

مركز دراسات المستقبل الأفريقي

أ.د. على مزروعى

قضايا فكرية

إفريقيا والإسلام والغرب

ترجمة

د. صبحى قنصوه

د. محمد عبدالحميد

أ. محمد عاشور

أ. أحمد على

سلسلة دراسات إفريقية (٤)

١٩٩٨م

إهـــــــداء2004

محمد عاشور مهدي

مصر

على أعتاب عصر جديد

قضايا فكرية

إفريقيا والإسلام والغرب

على أعتاب عصر جديد

المراسلات : ٢٦ ب شارع الجزيرة الوسطي - أبو الفدا - الزمالك - القاهرة
ت: ٣٤٠٦٥٤٣ - ٣٤٠٩٨٢٥ فاكس : ٣٤٠٩٥٢٠

الطبعة الأولى

(١٤١٨هـ / ١٩٩٨م)

علي مزروعى

قضايا فكرية

إفريقيا والإسلام والغرب
على أعتاب عصر جديد

ترجمة

صبحي قنصوه　　　　محمد عبد الحميد

محمـد عاشور　　　　أحـــمـد عـــلـي

تقديم

أ . د . إبراهيم نصر الدين

مركز دراسات المستقبل الإفريقي
القاهرة
١٤١٨ هـ ١٩٩٨م

(سلسلة دراسات إفريقية ، ٤)

مركز دراسات المستقبل الإفريقي
٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج. م. ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المركز بالقاهرة .
مزروعى ، علي .
قضايا فكرية : إفريقيا والإسلام والغرب على أعتاب عصر جديد / علي مزروعى .
القاهرة : مركز دراسات المستقبل الإفريقي ، ١٩٩٨م .
ـــ ص / سم . (سلسلة دراسات إفريقية ؛ ٤)
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية
تدمك . ١ - ٥ - ٠ - ٥٧٧٥ - ٩٧٧ .
١ - إفريقيا ٢ - الإسلام .
٣ - الغرب .
(أ) العنوان (ب) السلسلة .
رقم التصنيف : ٩ر٩٦٦
الإيداع : ٩٧٧٤/ ١٩٩٧

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

المحتويات

الموضوع الصفحة

* * *

تصـــدير

يطرح هذا العدد من سلسلة أوراق إفريقية مجموعة من القضايا والأطروحات الفكرية التي تتطلع جلها إلى آفاق الألفية الثالثة من الميلاد ، وهي بمثابة قراءة في أوراق سندباد مسلم هو المفكر الإفريقي علي مزروعي . وقد ارتأى مركز دراسات المستقبل الإفريقي أن ينشر هذه الدراسات وينقلها إلى العربية على يد نخبة من الباحثين الشباب ، بما يسهم في تحقيق الأهداف المرجوة التي تستند عليها فكرة المركز .

وباعتقادنا أن هذه القضايا الفكرية التي يثيرها على مزروعي تمثل قمة عطائه المعرفي ونضجه الفكري ، وهو الأمر الذي يكسبها أهمية خاصة . ومن جهة أخرى فإنها تناقش بحكمة المحلل المتغيرات الدولية منذ أن انفرط عقد الاتحاد السوفيتي ، وبعين المستشرف لآفاق القرن الواحد والعشرين مجموعة من القضايا ذات الأهمية البالغة لنا في مصر وإفريقيا ودول الجنوب كافة .

ويأتي عنوان هذا العدد الذي تم اختياره بالتنسيق مع المؤلف ليعكس المحاور الأساسية التي يتركز حولها الحوار ، وهي على النحو التالي : الإسلام ونهاية التاريخ ، وعلاقة الإسلام بالغرب كدراسة حالة لمنظومة العلاقات بين دول الشمال ودول الجنوب . أما المحور الثاني فإنه يتناول دور الدين في الحياة السياسية الإفريقية مع التركيز على حالتي الإسلام والمسيحية ، كما أنه يحلل في دراسة مستقلة دور المسلمين الأمريكيين في عملية صنع قرار السياسة الخارجية الأمريكية . ويطرح المحور الثالث إشكالية العلاقات العربية الإفريقية في ظل النظام الدولي الجديد .

وتغتنم إدارة المركز هذه المناسبة لتقدم جزيل شكرها للأستاذ الدكتور علي مزروعي ، مدير معهد الدراسات الثقافية العالمية بجامعة ولاية نيويورك الأمريكية ، لما أبداه من حماس وإعجاب بأهداف المركز ، ولما قدمه من دعم ملموس من أجل إنجاز هذا العمل .

كما نتقدم بخالص الشكر للمؤسسات التالية والتي أسهمت بشكل أو بآخر في

دعم الكتاب : رابطة أوفاهمو بجامعة كاليفورنيا ، ومؤسسة M.E Sharpe ، ورابطة علماء الاجتماع المسلمين والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ومركز التفاهم الإسلامي المسيحي بجامعة جورج ثاون ، وكذلك مجلة الشؤون الدولية .

ويطيب لنا أن نتقدم بجزيل الشكر للأستاذ محمد عاشور - والفريق المعاون له - على عطائه المخلص وتفانيه من أجل إنجاز الرسالة التي يسعى المركز لتحقيقها .

والله من وراء القصد

إدارة المركز

* * *

• تقديم :

يسرني أن أقدم للقارئ باللغة العربية هذا الكتاب الهام ، الذي يستمد أهميته من الثقل العلمي والشهرة العالمية لمؤلفه ، وحيوية أفكاره التي لطالما كانت مثار جدل ونقاش بين المهتمين بالشئون الإفريقية .

ومؤلف الكتاب هو الأستاذ الدكتور علي الأمين المزروعي الذي يعتبر أحد أشهر المتخصصين في القضايا الإفريقية إن لم يكن أشهرهم - وهو مسلم الديانة كيني الأصل ، وقد قضى جانباً كبيراً من حياته في الغرب ، حيث عمل في الدراسات الإفريقية وتخصص فيها حتى صار علماً من أعلامها، لا سيما في العلوم السياسية، ويعمل الآن مديراً لمعهد الدراسات الثقافية العالمية في الولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى عمله كأستاذ زائر وغير متفرغ في العديد من الجامعات الأمريكية والإفريقية .

والكتاب الذي بين يدي القارئ مجموعة مقالات نشرت في عقد التسعينيات من هذا القرن (العشرين) ، تمثل في مجملها رؤية المؤلف لبعض القضايا الهامة المثارة على الساحة الفكرية الدولية والإقليمية ، والجامع بينها أن الإسلام وإفريقيا والغرب قواسم مشتركة بين هذه المقالات على اختلاف عناوينها وتنوع موضوعاتها ، وسعياً لتقصي تلك القواسم وتبيانها ، وجلاء الخيط الواصل بين هذه المقالات يمكن طرح الأفكار الأساسية لهذه المقالات ، والتي نرى أنها تمثل المفاتيح الأساسية للتواصل مع الآراء الواردة في هذا الكتاب واستيعابها .

* الإسلام ونهاية التاريخ :

في معارضته ونقده لمقولة فرانسيس فوكوياما عن « نهاية التاريخ » يُطلق «مزروعي» مقولة مناظرة مؤداها أن الدين الإسلامي هو الفصل الختامي لتاريخ الأديان في العالم ، حيث لم يظهر دين سماوي من بعده . ويرى أن الإصلاح الديني الإسلامي - الذي جاء لتلافي ما اعتور المسيحية من عيوب - قد سبق حركات الإصلاح المسيحية التي قادها كل من « مارتن لوثر » و« چون كلفن » .

وعلى الرغم من الدور الحضاري الهام الذي أداه الإسلام والمسلمون للحضارة الإنسانية ، فإنه مع بزوغ « عصر النهضة الأوروبية » أصبح المسلمون موضوعاً

للتاريخ وليسوا فاعلين فيه . وهو الحال الذي استمر حتى النصف الثاني من القرن العشرين ، حينما بدأ المسلمون المشاركة من جديد في صنع التاريخ العالمي بطريقة غير متعمدة أو بالأحرى بطريقة غير مباشرة من خلال حروب التحرير (حرب التحرير الجزائرية ، الحرب في أفغانستان ، دور عبد الناصر في تحدي التحكم الغربي في موارد المسلمين) .

- وفي إطار مقولته عن « الإسلام ونهاية التاريخ » يذهب مزروعي إلى أن الدين الإسلامي ينطوي على الكثير من القِيَم التي تساعد على تحقيق المساواة ومقاومة العنصرية في مقابل الممارسات المسيحية العنصرية التي من أمثلتها :

- منع الأفارقة الأمريكيين من دخول كنائس البيض .

- دور الكنيسة الهولندية في دعم العنصرية في جنوب إفريقيا .

- ويعبر مزروعي عن إيمانه بالديمقراطية ، ورفضه للرأسمالية ، الأمر الذي يدفعه للبحث عن مدى إمكانية قيام ديمقراطية إسلامية (غير رأسمالية) ، ذات طابع عالمي ، باعتبار أن الإسلام أول من نادى بالعالمية . ويذهب إلى أنه رغم أن الإسلام لم يكن خلال القرن العشرين تربة خصبة لنمو الديمقراطية ، إلا أنه لم يترعرع في ظله أبشع المساوئ التي شهدها القرن العشرون في مجتمعات مسيحية وبوذية وكونفوشيوسية (النازية ، الفاشية ، الشيوعية ، المذابح العرقية ، التفرقة العنصرية) .

- ويخلص مزروعي إلى أن مقولة فوكوياما حول « نهاية التاريخ » تتجاهل أنه من الأهمية بمكان معرفة كيف نحمي أنفسنا من الأسوأ (الرأسمالية) ، ولذا فإنه يؤكد على أن الإسلام من بين كل نظم القِيَم في العالم هو النظام الوحيد الذي لم يشع القوى التدميرية التي ظهرت خلال القرن العشرين ، وربما خلال تاريخ البشرية .

* الإسلام والغرب :

إن المفتاح الأساسي لفهم رؤية علي مزروعي لطبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب هو مقولة « هنتنجتون » عن « الصراع بين الحضارات » ، حيث يتفق مزروعي مع تلك المقولة ، ولكنه يختلف مع « هينجتون » ، فيما يتصل بالإطار الزمني لهذا الصراع وطبيعته ، حيث يذهب مزروعي إلى أن الصراع قد بدأ بين الغرب والعالم

الإسلامي قبل الحرب الباردة ، وأن الغرب كان هو المعتدي الثقافي والاقتصادي والعسكري على العالم الإسلامي .

فثقافياً : قام الغربَ بفرض منظومة القِيَم والتعليم ، وأنماط اللباس ، وأساليب الحياة .

واقتصادياً : فإن العالم الإسلامي يدفع الجزية للغرب في صورة أعباء الديون ، وغيرها من أشكال الاستغلال الاقتصادي .

وعسكرياً : فإن معظم المعارك العسكرية للغرب خلال النصف الثاني من القرن العشرين كانت تدور رحاها في العالم الإسلامي الذي تكبد نحو نصف مليون قتيل منذ عام ١٩٨٠ (ليبيا ، إيران ، لبنان ، العراق ، فلسطين ، . . . إلخ) .

ويشير مزروعي إلى مفارقة أساسية مؤداها تمثل الغرب للتقسيم الإسلامي للمعمورة ما بين « دار إسلام (سلام) » وهي التي تخضع لحكم الإسلام ويقطنها المسلمون ، و« دار حرب » وهي التي لا تخضع لأحكام الإسلام ، ويقطنها غير المسلمين ، و« دار عهد أو صلح » ، حيث يرى مزروعي أن ممارسات الغرب تكشف من تقسيم العالم إلى « دار غرب » ودار « اللاغرب » أو « غير الغربيين » على أن المقارنة بين التقسيم الإسلامي للمعمورة في ظل العصر الإسلامي والتقسيم الغربي في ظل التنظيمات الدولية وفي مقدمتها الأمم المتحدة تكشف عن أن فعاليات الأمم المتحدة ، والمناداة بعالمية النظام الدولي في مقابل عالمية عقيدة الإسلام، ما زال يشوبها الانحراف بشكل خطير ، من ملامحه ومؤشراته :

(أ) إن الأمم المتحدة لا تمثل مختلف الحضارات ، فخمسة من بين ستة من أمنائها العامين ينتمون إلى تقاليد مسيحية ، كما أن مجلس الأمن بمثابة ناد للرجل الأبيض ، فالأمم المتحدة هي امتداد للامبراطورية غير الرسمية للغرب ، ذلك أن «عبارة المجتمع العالمي» قد حلت محل « العالم الحر » لإضفاء شرعية على أعمال الولايات المتحدة الأمريكية والغرب ، ولغرض الهيمنة على العالم الإسلامي (مجلس الأمن وفرض عقوبات على الدول الإسلامية : العراق ، ليبيا ، السودان. . .) .

(ب) إن عالمية الأمم المتحدة - المستندة إلى الدول - قد انتصرت بسبب قوة الغرب ، في حين تعثرت عالمية عقيدة الإسلام بسبب ضعف المسلمين .

(جـ) إنه لم تحدث المواجهة بين عالمية النظام الدولي ، وعالمية العقيدة إلا في البوسنة ، حيث عارضت الأمم المتحدة تطلعات معظم العالم الإسلامي ، فعلى حين قبل العالم الإسلامي رسمياً بقيام دولة يهودية في قلبه ، فإن الغرب رفض قبول دولة إسلامية وسط أوروبا المسيحية .

(د) تجاهل الأمم المتحدة - في الغالب الأعم - الاعتداءات على المسلمين (البوسنة ، الشيشان ، كشمير ، جنوب لبنان ، فلسطين ، أفغانستان . . .) .

ومن الأفكار الجديرة بالنظر والبحث مقولة : إنه إذا كان العالم الإسلامي منطقة صراع ، فإن السلام القائم بين الدول الغربية يعود إلى الرخاء الاقتصادي والانتشار النووي ، أكثر مما يرجع - حسبما يقال - إلى النزعة السلمية المتأصلة في الديمقراطية .

كما أنه من الجدير بالملاحظة والمتابعة تلك الآثار الناجمة عن حركة التدافع والتفاعل بين العالم الإسلامي والغرب ، حيث أسفر التغريب الثقافي الذي تعرض له العالم الإسلامي عن هجرة الكثير من العقول ، والأيدي العاملة من العالم الإسلامي إلى الغرب ، الأمر الذي انعكس على التركيب الديمرجرافي في بلدان الغرب ، حيث تزايدت أعداد المسلمين وأنشئت المساجد والكتاتيب والجمعيات الإسلامية ، بحيث أصبح يوجد في الوقت الراهن نحو ٢٠ مليون مسلم في أوروبا، بالإضافة إلى ٥٠ مليون مسلم تركي . كما يوجد نحو ستة ملايين مسلم في الولايات المتحدة الأمريكية ويتزايد عددهم باستمرار ، كما أصبح الإسلام ثاني الأديان في فرنسا بعد الكاثوليكية من حيث عدد الأتباع . الأمر الذي يدفع للتساؤل عن مدى إمكانية انعكاس ذلك التغير الديمرجرافي على الواقع الثقافي والتعليمي في الغرب !!

* الإسلام وإفريقيا :

في سعيه للتعرف على دور الدين في الحياة السياسية والاجتماعية في إفريقيا يعرض « مزروعي » لأثر الاستعمار على انتشار أو إنحسار الأديان في إفريقيا ، ويتناول بالرصد طبيعة العلاقة المدنية العسكرية في المجتمعات الإفريقية ، وأثر الدين في الحياة الاجتماعية . والمفاتيح الأساسية في هذا الصدد يمكن إجمالها في المقولات التالية :

المقولة الأولى : أن الممارسات الاستعمارية على اختلاف أنماطها قد أثرت على

دور الدين في المجتمعات الإفريقية ، بل وحددت في كثير من الأحيان نطاق انتشار وامتداد النفوذ الديني .

فالسياسة الاستعمارية البريطانية في الحكم غير المباشر عزلت الإسلام في مناطق إفريقية (شمال السودان ، شمال نيجيريا ، .... إلخ) فازدهر الإسلام ، وإن كان ذلك قد أدى إلى علاقات صراعية مع المناطق التي تكثفت فيها حملات التبشير ونشر اللغة الإنجليزية (جنوب السودان ، جنوب نيجيريا) .

أما السياسة الاستعمارية الفرنسية المتمثلة في الاستيعاب ، والتي قامت على معارضة الإسلام ، فقد اتجهت إلى شن حرب ثقافية على التقاليد والقِيَم الإفريقية الوطنية ، فأدى ذلك بطريقة غير مباشرة إلى إضعاف مقاومة الوطنيين ، وهو ما دفع بهم إلى تقبل الإسلام في غرب إفريقيا كقوة نضالية ضد الاستعمار .

المقولة الثانية : أنه من مراجعة الممارسة السياسية الإفريقية يلاحظ أن الحكام العسكريين المسلمين أكثر قمعاً من المعتاد (نيجيريا ، الصومال ، السودان ، أوغندا ...) مع بعض الاستثناءات . وأن الحكام المدنيين المسلمين أكثر تسامحاً من المعتاد (نيجيريا ، الصومال ، السودان ، مالاوي ، ...) .

المقول الثالثة : أن المجتمعات الإسلامية الإفريقية أكثر تسامحاً وتقبلاً لتداول السلطة (سلماً أو قسراً) بين المسيحيين والمسلمين ، وهو ما لم تعرفه الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تفلت السلطة فيها من هيمنة البروتستانت إلا مرة واحدة في عهد كيندي ، ولم يتول السلطة مسلم أو يهودي قط .

المقولة الرابعة : أنه على الصعيد الاجتماعي تعتبر المدن الإسلامية أقل عنفاً من حيث (عمليات السطو ، المضايقات ، تجارة المخدرات ...) من المدن غير الإسلامية حتى في إطار الدولة الواحدة (« كانوا » في مقابل « إيبادان » في نيجيريا ، « ممباسا » في مقابل « نيروبي » في كينيا) أو من دولة إلى أخرى («القاهرة» في مقابل « جوهانسبرج » ، « دار السلام » في مقابل « كينشاسا ») .

المقولة الخامسة : أن الدين الإسلامي مثَّل بقيمه وتقاليده درعاً واقياً في مواجهة مرض « الإيدز » ، حيث تشير الإحصاءات والبيانات الدولية إلى أن المرض أقل انتشاراً في إفريقيا الإسلامية عنه في إفريقيا غير الإسلامية ، بل أن المسلمين أقل عرضة للإصابة بهذا المرض حتى في حالة عيشهم داخل مدينة واحدة مع غير المسلمين .

وكدأبه في معظم دراساته يختتم مزروعي دراسته بمقولة جديرة بالتأمل والمتابعة والبحث ، وهي أن إفريقيا يمكن أن تمثل عنصر الربط والتعايش والتعاون فيما بين المسيحية والإسلام ، انطلاقاً من واقع أن المسيحية بحسب انتشارها الآن تعتبر ديانة أفرو - غربية - ، وأن الإسلام بنفس المعيار ديانة أفرو - آسيوية - ، وبالتالي فإن إفريقيا هي القاسم المشترك الذي على أساسه يمكن قيام تعاون مشترك وتفاهم بين الديانتين خاصة مع الأخذ في الاعتبار :

١ - أن إفريقيا هي أكثر القارات من حيث نسبة المسلمين إلى غيرهم .

٢ - أنه لا يحدث صراع إسلامي / مسيحي ، إلا إذا ارتكن إلى عوامل تباين أخرى إثنية أو إقليمية ، أو ثقافية أو تاريخية .

* * *

* المسلمون في الولايات المتحدة :

إذا كانت المقولات سالفة البيان تستمد أهميتها من أبعادها الموضوعية وقيمتها العلمية والفكرية ، فإن شهادة علي مزروعي وآرائه فيما يتصل بدور المسلمين في السياسة الأمريكية تزيد في أهميتها انطلاقاً من حقيقة البعد الذاتي للمؤلف (مزروعي) الذي قضى أكثر من عشرين عاماً في المجتمع الأمريكي بأوساطه المختلفة ، حيث عمل بجامعة « ميتشجن » كأستاذ للعلوم السياسية منذ عام ١٩٧٣م، لذا فإن مقولاته عن أوضاع المسلمين الأمريكيين ودورهم في المجتمع الأمريكي وأثرهم في النظام السياسي جديرة بالنظر والاهتمام ، ويمكن إجمال أهم مقولاته في هذا الشأن فيما يلي :

المقولة الأولى : أن المسلمين الأمريكيين يتأثرون بأربع هويات أساسية هي : الوطنية ، العرقية ، الإسلامية ، الأمريكية .

المقولة الثانية : أن المسلمين الأمريكيين يشتركون مع اليهود في الولايات المتحدة في الرغبة في عدم الخضوع الكامل للثقافة المسيحية السائدة ، وفي رفض مبدأ الزواج بين أبناء الديانات المختلفة ، وفي الرغبة في الاستقلال الثقافي . ولكنهم يختلفون عن بعضهم في أولوية الولاء . فعلى حين ظل اليهود يهوداً في المقام الأول وأبناء أصولهم الوطنية في المقام الثاني ، فإن العكس هو السائد بالنسبة للمسلمين ، كما أنهم يختلفون عن بعضهم كذلك في أن اليهود يحتلون مكانة

سياسية واقتصادية وإعلامية وتعليمية مرموقة في المجتمع الأمريكي على عكس المسلمين ، وإن كان من المتوقع أن يصبح الإسلام أكبر ديانة غير مسيحية في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن العشرين ، إلا أن مسألة تأثيره في الحياة السياسية الأمريكية تظل موضع تساؤل .

المقولة الثالثة : أن المسلمين الأمريكيين يتصرفون سياسياً على ضوء هوياتهم العرقية والوطنية .

(أ) فالعرب الأمريكيون (يغلب عليهم المسيحية ، حيث لا تزيد نسبة المسلمين الأمريكيين ذوي الأصول العربية عن ١٢ر٤٪ من إجمالي المسلمين الأمريكيين) يبدون تعاطفاً مع القضية الفلسطينية ، لكن هذا التعاطف مشتت بسبب الخلافات بين الأنظمة العربية .

(ب) مسلمو جنوب آسيا (٢٥٪ من إجمالي المسلمين الأمريكيين) أكثر اهتماماً بقضية كشمير ، لكنهم منقسمون بشأن مستقبلها ، ما بين مؤيد لاستقلالها (مسلمو باكستان) ومعارض لاستقلالها (مسلمو الهند) .

(جـ) المسلمون ذوي الأصول الإيرانية (٣ر٦٪ من إجمال المسلمين الأمريكيين) وهم أكثر اهتماماً بمسألة الفصل العنصري ، وإن كان أتباع جماعة « أمة الإسلام » هم الأكثر وعياً بالعامل العرقي .

المقولة الرابعة : تباين علاقة المسلمين الأمريكيين بكل من الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري بتفاوت القضايا المطروحة .

(أ) فعلى صعيد السياسة الداخلية يقبل المسلمون سياسة الحزب الديمقراطي العلمانية باعتبارها تحمي حقوق الأقليات ، وفي ذات الوقت يرفضون سياسته التحررية التي تحرض على شيوع الجنس والجشع والفردية ، والنزعة الاستهلاكية ، وفي المقابل فإنهم يقبلون سياسة الحزب الجمهوري المتعلقة بالحفاظ على قيم العائلة التقليدية ، ورفض التحررية الجنسية ، لكنهم يرفضون سياسته المحافظة ذات الطابع العنصري ، والتي تحمل في طياتها كراهية للأجانب ، ووسط هذا وذاك فإن غالبيتهم يصوتون للحزب الجمهوري .

(ب) في مجال السياسة الخارجية : الجمهوريون أكثر صداقة للمسلمين من

الديمقراطيين ، كما تشير إلى ذلك أحداث التاريخ الحديث ، والعكس بالنسبة للديمقراطيين ، ذلك أن الإدارات الجمهورية تصدت لإسرائيل غير مرة إذا قورنت بالإدارات الديمقراطية ، وتعتبر إدارة كلينتون أكثر الإدارات دعماً لإسرائيل .

المقولة الخامسة : وتتعلق بتفاوت اهتمامات المسلمين المحليين عن اهتمامات المسلمين المهاجرين .

فالمسلمون المحليون (معظمهم من ذوي الأصول الإفريقية) : يهتمون بالقضايا الداخلية باعتبار فقرهم وتدني مستوى معيشتهم ، ولذا فإن ممارساتهم تحمل في طياتها عوامل التمرد ، ورغم ضعفهم الاقتصادي ، إلا أنهم ذوو نفوذ سياسي كامن باعتبار عددهم الآخذ في التزايد .

أما المسلمون المهاجرون ، فإنهم يهتمون بقضايا السياسة الخارجية ، وهم في وضع اقتصادي ومعيشي أفضل ، ولذا فإن ممارساتهم تحمل في طياتها نوعاً من القناعة والرضى ، ورغم نفوذهم الاقتصادي إلا أنهم ضعاف سياسياً ، وقد يزداد هذا الضعف ، وتقل أعدادهم نتيجة القوانين المقيدة للهجرة إلى الولايات المتحدة .

ورغم ما تقدم فإن كليهما في طريقه إلى الانصهار في المجتمع الأمريكي مع احتمال أن يتم ذلك تحت الهوية الإسلامية .

* الأفروعربية :

يطرح مزروعي تساؤلاً هاماً في هذا الشأن بدور حول : هل يمكن تحقيق مصالحة تاريخية بين العرب والأفارقة ، تتجاوز ذكريات تورط العرب تاريخياً في تجارة الرقيق ، وذكريات ثورة زنجبار عام ١٩٦٤ ، كتلك المصالحة التاريخية التي تمت بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وبين اليابان والولايات المتحدة شريطة أن تكون أسرع من المصالحة الأولى . وأعمق من المصالحة الثانية ؟

يجيب مزروعي على ما تقدم بأن التحولات في النظام العالمي تفرض سرعة تحقيق هذه المصالحة ، ونسيان الماضي ، وصياغة مستقبل جديد يهدم الحوائط الأيديولوجية والاقتصادية ، بل والجغرافية بين العرب والأفارقة .

ويرى مزروعي أن هناك عدة ركائز يرتكن عليها مفهوم الأفروعربية تتمثل في :

١ - **الركيزة الجغرافية** : ذلك أن الجزيرة العربية تعد جزءاً من إفريقيا ، ذلك

أنها أقرب إلى إفريقيا من جزيرة مدغشقر ، وليس من حق البحر الأحمر ، على حد قول مزروعي ، أن يكون فاصلاً بين العرب والأفارقة ، بنفس القدر الذي نرفض فيه الاعتراف بالصحراء الكبرى كعامل فصل بين العرب والأفارقة .

٢ - **الركيزة التاريخية** : فالإسلام قديم في إفريقيا قدمه في الجزيرة العربية .

٣ - **الركيزة الثقافية واللغوية** : ذلك أن اللغة العربية يتحدث بها غالبية سكان القارة ، كما أن اللغتين السواحيلية والهاوسوية تأثرتا بشكل كبير باللغة العربية والإسلام ، بل إن الروابط اللغوية بين العرب والأفارقة أقدم كثيراً من الإسلام ، لدرجة بات يصعب معها تحديد أين تبدأ اللغات السامية في القارة وأين تنتهي اللغات المحلية الإفريقية .

٤ - **الركيزة الإثنية** : فهناك تداخل سكاني إثني بين العرب والأفارقة ، وعلى سبيل المثال : فإن الأمهريين ساميون انحدروا من أسلاف كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية ، وكذلك لغتهم الأمهرية ، لدرجة جعلت جوانب التشابه الإثني والثقافي بين إثيوبيا وشبه الجزيرة العربية تفوق مثيلتها مع بقية القارة الإفريقية .

٥ - **الركيزة الدينية** : فظهور الإسلام وانتشاره في شمال إفريقيا ، قضى على الانفصال بين العرب والأفارقة ، حيث تعرَّب اللسان ، وتحول غالبية السكان إلى الإسلام ، وأصبحت إفريقيا أول قارة يشكل المسلمون غالبية سكانها ، وهكذا فإن الإسلام كان بمثابة قوة تعويض ثقافية توحيدية في مواجهة الانفصال الچيولوچي الذي سببه نشأة البحر الأحمر .

ويذهب مزروعي إلى أن هناك ظروف ولَّدها الوضع العالمي الجديد كان لها انعكاسات بالسلب على تطوير الأفروعربية ، فالعرب منقسمون على أنفسهم منذ حرب الخليج الثانية ، والأوضاع الاقتصادية في إفريقيا متردية ، ثم إن إنهاء العنصرية في جنوب إفريقيا قد أدى إلى أضعاف الالتزام بالوحدة الإفريقية ، فضلاً عن أن الكفاح من أجل الديمقراطية قد دفع بالحكام والشعوب الإفريقية إلى التركيز على القضايا المحلية وإغفال التجمع الإقليمي ولو في الأمد القصير .

بيد أن مزروعي يعود فيشير إلى أنه رغم ما تقدم ، فإن هناك عوامل جديدة تدفع بالعرب والأفارقة إلى التجمع مرة أخرى تحت راية الأفروعربية ، ومن هذه العوامل : أن العرب والمسلمين أصبحوا في صدارة الضحايا العسكريين للنظام العالمي الجديد ، في حين أن الأفارقة والسود في صدارة الضحايا الاقتصاديين لهذا

النظام نتيجة بزوغ الأبارتهيد العالمي (أهوال التكيف الهيكلي ، الإيدز ، المخدرات، الفقر ، الجريمة ، العنصرية في أوروبا . . . إلخ) .

. . . ويذهب مزروعي إلى أنه من الضروري إيجاد آليات جديدة لدفع الأفروعربية ، كإنشاء مؤسسات مشتركة لتقوم بأعمال مشتركة ، وتحت إدارة مشتركة ، وتمويل مشترك ، والعمل على خلق آليات ثقافية تدفع إلى نسيان الماضي، وتحقيق مصالحة سريعة وعميقة بين العرب والأفارقة .

وفي الختام أرجو أن يكون هذا التقديم معبراً - ولو إلى حد ما - عن بعض أفكار هذا العالم الإفريقي المتميز ، صاحب الرؤية الإسلامية ، والإفريقية ، والغربية ، التي تعبر عن الميراث الثلاثي للقارة الإفريقية .

أ . د . إبراهيم أحمد نصر الدين
أستاذ ورئيس قسم النظم السياسية والاقتصادية
معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة
القاهرة في ١٢/ ١١/ ١٩٩٧

* * *

الفصل الأول

الإسلام ونهاية التاريخ

الفصل الأول
الإسلام ونهاية التاريخ

ترجمة : د . محمد عبد الحميد [*]

● **مقدمة :**

أثارت المناظرة الخاصة بنهاية التاريخ مجموعة من القضايا تتصل ، إلى حد كبير، بفلسفة التاريخ . ذلك لأن هذه القضايا ترتبط بمغزى الجنس البشري خلال تاريخه كله ، وليس فقط خلال مرحلة بعينها من مراحل تطوره . وقد فجّر فرانسيس فوكوياما Frarcis Fakuyama هذه المناظرة في مقالته الأساسية التى سماها « نهاية التاريخ » ، والمنشورة في دورية المصلحة الوطنية الأمريكية [١] ، في ربيع عام (١٩٩٠م) . ويري فوكوياما ، في هذه المقالة ، أنه بحلول نهاية القرن العشرين ، سيكون قد تم الانتصار الحاسم لليبرالية الاقتصادية ، والسياسية [٢] . وتتمثل الأطروحة الأساسية التى ينطلق منها فوكوياما ، في أن العالم بأسره يتحرك صوب النظام الرأسمالي الليبرالي الديمقراطي الذي قُدّر له أن يكون النموذج الاجتماعي السياسي الختامي لمجمل التطور الإنساني . وفي هذا يؤكد فوكوياما على: « أن ما يمكن أن نشاهده اليوم ليس مجرد نهاية للحرب الباردة ، أو مرحلة عابرة من مراحل ما بعد الحرب ، بل نهاية التاريخ ، بمعنى أننا نعيش المرحلة النهائية من التطور الإيديولوجي للبشرية ، كما نعيش عولمة الديمقراطية الليبرالية بوصفها شكلاً ختامياً للحكومة الإنسانية » [٣] .

(*) مدرس بقسم الاجتماع ، كلية الأداب ، جامعة القاهرة .

(١) عمل فرانسيس فوكوياما سابقاً في وزارة الدولة بالولايات المتحدة الأمريكية ، كما عمل وقت كتبة المقالة في Rand Corporation ، وقد نشرت المقالة في أول مرة في :

Francis Fukuyama : " The End of History ? " in The National Interest (Spring 1990) .

وأعيد نشرها فى :

Francis Fukuyama, Taking Sides , 3 rd . ed , John T . Rourke , ed . (Guil Ford , CT : The Duskhin Publishing Group 1991) .

(2) Francis Fukuyama . Taking Sides , p . 340 .

(3) I bid , p . 341 .

ويرى فوكوياما أن التغيرات الحاسمة التي حدثت - وقت كتابة الأفكار الأساسية للمقال عام ١٩٨٩ - في شرق أوربا ، والاتحاد السوفيتي ، تعد جزءاً من التطور التاريخي صوب الرأسمالية الديمقراطية ، وأن هذه التطورات لا بد أن تشهدها المجتمعات كافة ، إن آجلاً أو عاجلاً .

وقد فصّل فوكوياما هذه الأفكار الأساسية ، في كتاب كامل فيما بعد [(١)] .

● أطروحة فوكوياما ، والعالم الإسلامي :

ربما نتساءل ، نحن المسلمين ، عن مدي ارتباط أطروحة فوكوياما بالعالم الإسلامي ؟ هل يتطور عالمنا الإسلامي ، أيضا ، فى أتجاه النظام الرأسمالي الليبرالي الديموقراطي ؟ أم أن الإسلام يقدم نموذجاً مكتملاً ، وبديلاً للتاريخ الإنساني ؟ . الواقع أن المسلمين لا يعتقدون كثير في نهاية التاريخ ، كما لا يعتقدون في نهاية التاريخ الديني .

فالإسلام يعتبر نفسه وريثاً ، وحاملاً للتقاليد الإبراهيمية عبر التاريخ ، كما أقر القرآن ذلك : **﴿ شرع لكم من الدين ما وصّي به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾** [(٣)] .

وينظر المسلمون إلى محمد ﷺ بوصفة آخر الرسل ، ويرون أن اليهودية ، والمسيحية تنبئتا بمجئ « محمد » ، ونزول القرآن ، وفيما يتعلق باليهود يؤكد القرآن : **﴿ قل أرءيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾** [(٤)] .

وفيما يتعلق بالمسيحين ، يؤمن المسلمون أن المسيح قد أخبر حوارييه بمجئ آخر الرسل ، حيث يؤكد القرآن : **﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى أسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين »** [(٥)] .

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Francis Fukuyama , The End of History and the last Man (New York and Toronto : Free Press & Maxwell Mac Millan Canada , 1992) .

(٢) All quotations in this Paper are Taken From the Qur' an , 6 the eds Trans . M . H Sha Kere Elmharst , N. Y Tahrik Tarsile Qutran, Inc .1990).

(٣) سورة الشورى آية : ١٣ . (٤) سورة الأحقاف آية : ١٠ . (٥) سورة الصف آية : ٦ .

وربما يتساءل المرء : إلى أي حد أثبت التاريخ صحة هذه المعتقدات التى يؤمن بها المسلمون ؟

لقد أثبت التاريخ أن محمداً هو آخر المؤسسين العظام لإحدى الديانات الكبرى. فالإسلام أقصر هذه الديانات عمراً ، ولم يظهر منذ مولده من أربعة عشر قرناً من الزمان ، دين أخر أصبح الدين القومى لبلد ما خلال القرن العشرين ، فهل يعني ذلك أن الإسلام هو الفصل الختامي لتاريخ التدين في العالم ؟ لقد أكد القرآن بوضوح أن « محمد » هو آخر الأنبياء : ﴿ **ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** .. ﴾ [1] .

فهل يعني تعبير ﴿ خاتم النبيين ﴾ أن مجئ « محمد » كان إعلاناً بنهاية تاريخ التدين ، على أساس أنه يمثل المرحلة الختامية لهذه الرحلة من مراحل الخبرة الإنسانية ؟ وهل المجتمعات الإسلامية هي المرحلة الختامية ، بدليل عدم ظهور أي «نبي » آخر ، منذ أربعة عشر قرناً ، يعيد مرة أخرى ، تأسيس ديانة كبرى ؟

وإذا نظرنا إلى أطروحة نهاية التاريخ من الوجهة العلمانية فهل تتجه المجتمعات الإسلامية ، شاءت أم أبت ، نحو الرأسمالية الليبرالية الديمقراطية ؟ إن العالم الإسلامي ، كما هو واضح خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، هو الأكثر سكاناً ، والأسرع نمواً ، مقارنة بالعالم الليبرالي الديمقراطي . حيث يذكر جون ويكس Weeks . J في دراسته عن الخصائص السكانية للدول الإسلامية ، أنه «في ظل معدلات النمو الحالية ، تزداد احتمالية تضاعف تعداد الدول الإسلامية ، الذى قُدر عام (١٩٨٨م) بـ (٩٨٠) مليون نسمة ، ليصل إلى (١,٩) بليون نسمة قبل عام (٢٠٢٠م) ، وتصل نسبة المسلمين إلى (٢٣٪) من إجمالي سكان العالم » [2] .

فبينما يبلغ معدل المواليد الخام في الدول الإسلامية (٤٢,١) في الألف من السكان ، يبلغ نظيره في الدول المتقدمة (١٣,١) في الألف ، وبينما يبلغ معدل النمو الطبيعي ، في البلدان الإسلامية ، (٢,٨٪) ، فإن هذا المعدل يبلغ (٠,٣٪)

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٠ .

(٢) John Weeks , " The Demography of Islamic Nations, " Population Bulletin (1988) 43, 4 : 5 .

ويرى البعض أن انخفاض معدلات المواليد في العالم العربي في الوقت الذي يرتفع فيه معدلات المواليد في الدول النامية (ومعظمها غير ديمقراطي) قد تشكل خطراً « للقيم الغربية » ، انظر :

- The Birth Death (New York , NY : Pharos Books , 1991) .

في الدول المتقدمة ، كما يبلغ معدل الخصوبة في الدول الإسلامية (٦٪) ، في حين يبلغ (١,٣) في الدول المتقدمة » [١] .

وعلى الجانب الآخر ، نجد أن عالم الرأسمالية يضم كلاً من الديمقراطيات الليبرالية ، ومعظم المجتمعات الإسلامية ، ومن المفيد أن نتذكر ، في هذا السياق ، أن العالم العربي الذي يمثل طليعة الحضارة الإسلامية لا يمثل بالضرورة طليعة الديمقراطية الإسلامية . ففيما يتصل بقضية الجنس Gender ، على سبيل المثال ، نجحت بعض الدول مثل باكستان ، وبنجلاديش ، في العمل على تمكين المرأة المسلمة من الوصول إلى أعلى المراتب السياسية في البلاد [٢] .

كما يجب إلا ننسى أيضاً ، التجربة العربية في عهد الرسول ﷺ ، وما شعر به ، هو نفسه ، تجاه المرأة ، وحقوق النساء ، فمن هي زوجة « محمد » الأولى ؟ وكيف كانت العلاقة بينهما ؟ وإلى أى مدي كان « محمد » ليبرالياً ، في عرف المصطلحات المعاصرة ؟ دعنا نذكر أنفسنا بأن زوجة محمد ، ﷺ لم تكن « امرأة عاملة » فقط ، بل إن محمداً ذاته ، كان يعمل عندها ، ولم يستنكف « محمد » أن يعمل لدى امرأة ، أو أن يطلب مشورتها ، بل إنها كانت أول من يفضى إليه « محمد » بشكوكه ومخاوفه عندما نزل عليه الوحي ، وهو يتعبد في الغار . ولا شك أن النموذج المحمدى يختلف اختلافاً بيناً عن النموذج السعودى المعاصر ، الذي يخضع للتقاليد الوهابية ، فمازالت المملكة العربية السعودية لا تسمح بمنح تصاريح قيادة السيارة للسيدات ، وعندما حاولت مجموعة من النساء السعوديات الاحتجاج على هذا القانون ، إبان فترة نشر القوات الأمريكية وقوات التحالف فى حرب الخليج ، تعرض لهجوم عاصف [٣] .

ويقدم الإسلام في جنوب شرق آسيا نموذجاً للتعددية الثقافية في العالم الحديث ،

---

(١) John Weeks , " The Demography of Islamic Nations " , p . 13 .

(٢) تولت بناظير بوتو رئاسة الوزارة الباكستانية في ديسمبر (١٩٨٨م) ، وكانت رئيسة المعارضة في وقت إصدار المقالة ، كما تولت البيجوم خالدة ضياء رئاسة الوزارة في بنجلاديش في ديسمبر (١٩٩١م) ، كما تتولي امرأة منصب رئيسة المعارضة أيضاً في بنجلاديش ، وهي حسينه واجد .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول ما أثير بخصوص قضية قيادة السيارات بالمملكة العربية السعودية انظر :
The New York Times of November 7 , 1990 , p . 18 ; November 8 , 1990 , p . 15 ; November 13 , 1990 , p . 14 ; November 15 , 1990 , p . 19 ; November 18 , 1990 , p . 16 ; and December 8 , 1990 , p . 16 .

إذ على الرغم من التوترات ، والصدامات الدورية بين الصينين والهنود ، وبين السكان المحليين في هذه البلدان ، أو بين المسلمين والبوذيين ، والهندوس ، والمسيحين ، فإن معظم شعوب جنوب شرق آسيا تبدي بمرور الوقت مزيداً من الاهتمام بالتقدم الاقتصادي أكثر من اهتمامها بالهيمنة الثقافية ، وكما أوضح وانج Wang : « نجحت الآسيان (منظمة دول جنوب شرق آسيا) إلى حد بعيد ، في تقديم صورة للنمو والأمن والثقة ، كما أن وجودها يقدم منظوراً مقارناً لحقوق الأقليات ، وغيرها من الحقوق الأخرى ، وعمقت تجربة الآسيان ، من خلال خبرة أعضائها بالقضايا الاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية ، عمقت حساسيتها كجماعة، للقضايا المشتركة ذات الطابع الأوسع » [١] .

وسوف يلقى إسلام جنوب شرق آسيا رواجاً في هذه البلدان (بلدان جنوب شرق آسيا) مقارنة بالإسلام الشرق أوسطى ، خاصة في قضايا الجنس Gender والدور السياسي للمرأة ، حيث تشهد هذه البلدان ، على الاقل ، اتجاهاً أقوى نحو قبول مشاركة المرأة في مختلف الأنشطة السياسية مقارنة بما يحدث في بلدان الشرق الأوسط [٢] .

وعموماً ، فإن الإسلام العربي - وفق تعريفه - أقل تعددية ، من الناحية الثقافية ، مقارنة بالإسلام غير العربى ، حيث استطاع العالم العربي أن يُصهر اللغة العربية مع الدين الإسلامي في الحياة اليومية ، مشكلاً تجربة دينية ثرية ، لكنها - على صعيد آخر - أقل ثراءً ، من الناحية الثقافية ، من تجربة هؤلاء

(١) انظر :
See Gungwu Wang , " Ethnicity and Religion in Social Development " in The ASEAN Success Story , ed . Linda G. Martion (Honolulu : East - West Center , 1987) , p . 43 .

ولمزيد من التفاصيل حول الأداء الاقتصادي لدول الآسيان ، انظر :
Seiji Naya , " Economic Performance and Growth Factors of the ASEAN Countries , " Ibid , pp . 47 - 87 .

(٢) حول تقييم وضع المرأة السياسي في ماليزيا ، واندونسيا في دراسة مقارنة ، انظر :
lenore Mouderson , " Gender and Politics in Malaysia " , in why Gender Matters in southeast Asian politics , ed . Maila Stivens (Clayton , Australia : Centre of Southeast Asian Studies , 1991) , pp . 43 - 60 , and Norma Sollivan , " Gender and Politics in Indonesia " , Ibid , pp 61 - 86 .

المسلمين الذين يؤدون شعائر الصلاة باللغة العربية ، ويقرضون الشعر بلغة أخرى، كمسلمي جنوب شرق آسيا ، الذين تصب روافدهم الثقافية المتنوعة في مجري نهر واحد هو إسلام جنوب شرق آسيا ، وبالطبع فإن ذلك لا يمثل سوى «تقليد تاريخي طويل ، في جنوب شرق آسيا ، يقضى بالتعايش ، الذى يصل أحياناً إلى الاندماج ، بين العقيدة الإسلامية ، والعادات المحلية » (١) . فالمسلمون من غير العرب ، لا يعانون من تعددية ثقافية واضحة .

لقد خرجت من بلاد الإسلام ، على مدار القرن العشرين ، أعظم التحديات الثقافية للإمبريالية الغربية ، لكن هذه التحديات لم تكن بالضرورة تحدياً للديمقراطية الليبرالية الغربية ، كما تحدى الإسلام العلمانية الغربية ، لكنه لم يتحد الرأسمالية الغربية ، بالضرورة . فهل تعنى هذه التوترات أن للإسلام دوراً مميزاً يستطيع أن يلعبه كي يرد على المنادين بالنظام الليبرالي الديمقراطي بوصفه ختام التاريخ الإنساني ؟

لقد نادى عدد كبير من علماء الدين الإسلامي بالليبرالية والاصلاح في الإسلام، ويجب إلا ننسى أن « الأجندة » السياسية الإسلامية ، والتوجهات الإسلامية ذات الطابع الجماعي ، كانت تنبع من الواقع ، أكثر من كونها تابعة لنظرية دينية استاتيكية ، وتحتوى على العديد من ميكانيزمات الإصلاح ، والتكيف، والتجديد ، وقد عبرت الحركات الدينية عن هذا الجانب من الإسلام ، وتشتمل هذه الميكانيزمات ، على عناصر تحدي إسلامى ، في مواجهة الإرادة الاستعمارية ، وفي مواجهة النظرة الحديثة للعالم الآخر (البعث والحساب) ، كما تشتمل على تحديات أساسية للقانون الديني وكيف يعبر عن التغيرات في بنية الأسرة ، وأساليب الملبس ، والحركات ، والتراث المضاد للتوحيد .

وثمة طائفة واسعة من المفكرين المصلحين الذين نشطوا خلال القرنين التاسع عشر ، والعشرين ، ويأتى على رأس هؤلاء جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده، ومحمد إقبال ، وقد كان هؤلاء منظرين مسلمين ذوى تعليم أوربى ، ومعرفة

---

(١) Roy F . Ellen , " Social Theory , Ethnography and the Understanding of Practical Islam in South - East Asia , " in Islam in South - East , ed . M . B . Hoover (leiden , The Nether lands ; E . j . Brill , 1983) pp . 50 - 91 .

أساسية بعلوم وتكنولوجيا العالم الغربى ، وعلى دراية بمشكلاته الاجتماعية ، لذا شكلت توجهاتهم تحدياً دينياً سياسياً للغرب ، من منطلق العقلانية الإسلامية [1].

ولأن النظرية الدينية عند الأفغاني جمعت بين الدين ، والاستجابة السياسية لقوى الحضارة الغربية المسيحية القاهرة ، فقد أوصى ، منطلقاً من الثوابت الدينية، بحركة إسلامية موحدة تستطيع إحياء الخلافة ، وتؤسس قوة إسلامية ترقى إلى مصاف القوى العالمية ؛ وبوصفه محللاً سياسياً واقعيا ، تحولت هذه الرؤية إلى دعوى لقومية إسلامية تقف في مواجهة الهيمنة الاقتصادية الغربية ، ولدعم هذه الدعوي نادى الأفغاني بـ :

أولاً : استقلال اقتصادي وسياسي عاجل ، **ثانياً** : القناعة الكاملة بأن السيادة المطلقة للإسلام ، على كل الأديان تنبع ، كما يؤكد المعتزلة ، من عقلانيته ، **ثالثا**: الإيمان بأن الحياة الدينية لا تشتمل على الجانب الروحاني للإنسان ولا على الوضع الخاص للجماعة المتدينة فقط ، بل تشتمل بالإضافة إلى ذلك ، على سمات نوعية داخلية ضرورية لتحقيق حياة آمنة (على سبيل المثال ، التواضع ، والأمانة ، والصدق ، الذى يحرر الذات الإنسانية من عواقب المادية وعبادة اللذة).

وكان الأفغاني ، مثله مثل العديد من مصلحي العصر الحديث ، من أكبر المنظمين لحركات الإصلاح ، مثل جماعة السلفين ، وجماعة الأخوان المسلمين في مصر ، وكان محمد عبده ، الفيلسوف ، والأستاذ بالأزهر ، والصحافي ، والمفتي، واحداً من أتباعه ، وقدم محمد عبده العديد من البرامج الاجتماعية الواسعة التى تفيد في الإصلاح الاجتماعي طويل المدى ، كما قام بتدريس علوم الدين ، وكتب العديد من الأعمال ، التي تحتوى على الأراء الفقهية وتسمح ، على سبيل المثال ، بأكل الحيوانات المذبوحة بأيدى المسيحين ، واليهود

---

(١) انظر :

Muhammed Abduh , The Theology of Unity , Trans Kenneth Cragg and Ishaq Muhammad (New York : Humanities Press , 1966) : Muhammad I qbal . The Reconstruction of Religions Thought in Islam (Lahore , Pakistan : sh . Muhammad Ashraf , 1995) , and Islam in Transition : Muslim Prespectives , ed . John Donohue and John I . Esposito (New York : Oxford University Press 1982) .

مبرراً الرخص بما اقتضته الضرورة ، وقدم العديد من الاصلاحات الخاصة بحقوق المرأة . وركز ، محمد عبده ، في آرائه الدينية ، على أقامة رابطة وثيقة بين الوحى والعقل . حيث يرى أن الوحى معرفة بديهية أنزلها الله على الرسول كى يعلم الإنسان العادي ، لا من أجل أن يقتصر تفسيرها أو تأويلها على قلة من البشر . فقد شعر محمد عبده ، مثله مثل المعتزلة ، أن القرآن يستجيب لمقتضيات العصر Created in Time ، وأن التفكير الديني علم عقلي .

ويري محمد إقبال (١٨٧٨ - ١٩٣٨م) أن الإسلام ظاهرة أخلاقية ، وفكرية تساعد البشرية ، وأنه يمثل أداة خلاقة من عند الله ، على إدراك الإمكانات غير المحدودة للعالم، ويرى إقبال أن الاتجاه العقلى الإسلامي استطاع أن يحول النماذج الإغريقية ، من التفكير المجرد إلى البحث الإمبيريقى للوقائع العيانية . يتضح ذلك من تأكيد القرآن ضرورة إعمال العقل ، فالإيمان يحتوى على معرفة إمبيريقية بالواقع ، مقترنة برؤية نظرية ، لذا فإن معرفة كيف يكشف الله عن ذاته في الكون تتكامل مع فكرة كون الله منزهاً عن كل شيء ، فالإسلام يمتلك حساً عالياً بالوعى التاريخي ، لذا ينظر المسلمون إلى أنفسهم بوصفهم مشاركين في صنع التاريخ .

● التاريخ الغربي ، والتاريخ الإسلامي :

تواكبت التغيرات الفكرية العلمية ، في التاريخ الغربي ، مع التغيرات الاقتصادية والدينية. وتمثلت التغيرات الفكرية في عصر النهضة Renaissance، الذى أدي إلى خلق الروح الفردية في الفنون ، وتحولت إلى حركة كبرى فى أوربا، كما أدى إلى التنوير ، الذى أثمر عقلانية ذات طابع أوروبى ، بما تتضمنه من شك مثمر ، وأدي عصر النهضة ، أخيراً إلى الثورة العلمية التكنولوجية ، التي ظهر في كنفها أول العلماء العظام ، وتشكلت بدايات العلمانية التي أستمرت بعد ذلك ، كما تشكلت الثورة العلمية التي جمعت كل هذه الطاقات الدافعة ، وكما قال أحد الباحثين : « لقد أعاد الخيال الخلاق لعصر النهضة إحياء المنطق والاستقراء ، وتقدير الإنجيل للعقل الإنساني بوصفه عقلاً قادراً على الملاحظة والإبداع ، كما أحيا التفكير الإصلاحى الأمل في التاريخ وإخضاع الطبيعة للبحث والاستقصاء . وأفضى كل ذلك إلى جعل العلم الحديث علماً ممكناً » [١] .

---

(١) Harold P . Nebelsick , the Renaissance , the Reformation and the Rise of Science (Edinburgh , Scotland ; T & T Clark , 1992) . pp . XIX .

وتوازت مع هذه التطورات بداية حركة الإصلاح البروتستانتى ، في المجال الديني، خلال القرن السابع عشر . ففي ظل انفتاح العقل، والانفتاح على العالم، الذى تواكب مع عصر النهضة ، وعصر الاكتشاف ، كان من الطبيعي أن تصبح سلطة الكنيسة ، وما سيّجته حول نفسها من انغلاق وجمود ، موضع تساؤل [١] .

ولم يكن الاقتصاد بعيداً عن هذه التغيرات الحادثة في المجتمع ، فالتطورات التى طرأت على السلوك الاقتصادى قبل الإصلاح البروتستانتى ، دخلت - بعد هذا الإصلاح - مراحل أكثر تطوراً ، أفضت إلى الثورة الرأسمالية . وثمة قضية أساسية ، أثارت قدراً كبيراً من الجدل خلال تلك الفترة ، وهى : هل ترتد التغيرات التى طرأت على السلوك الاقتصادي إلى التغيرات التى طرأت على المجالات الدينية ؟ . وقدم ماكس فيبر M . Weber عالم الاجتماع الشهير في الغرب ، إسهاماً أساسياً في هذه المناظرة ، حيث أقام علاقة وثيقة بين الإصلاح البروتستانتي ، ونشأة الرأسمالية .

وكان ذلك موضوع كتابه الشهير « الأخلاق البروتستانتينية ، وروح الرأسمالية»[٢] ، وتتمثل الأطروحة الأساسية التى ينطلق منها فيبر فى أن المسيحية عزفت ، قبل الإصلاح البروتستانتي ، عن جمع المال خاصة عن طريق الربا ، والفوائد [٣] ، وكان جمع المال ، حسبما رأت المسيحية آنذاك ، عملاً غير جدير

---

(١) حول التغيرات التاريخية للعلاقة بين النهضة والإصلاح ، انظر على سبيل المثال :
William R . Estep , Renaissance and Reformotion (Grand Rapids , MI : William B . Eetdmans , 1986) ; and Albert Hyma , Renaissance to Reformation (Grand Rapids , MI : William B . Eerdmans , 1951) .

(٢) انظر :
Max Weber , The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism (New York : Charles Scribner's Sons , 1958) ; M . J . Ketch , Capitalism and the Reformation (New York : Barnes & Noble , 1968) ; Jelle C . Riemersma , Religious Factors in Early Dutch Capitalism 1550 - 1650 (The Hague , Paris : Mouton , 1968) ; Wolfang Schluchter , Rationalism , Religion and Domination : A Weberian Perspective (Berkeley : University of Berkeley Press , 1989) ; and , for and early overview of the controversy , see Robert W. Green , Protestantism , Capitalism and Social Science : The Weber Thesis Controversy , 2 d ed . (Lexington , MA : Heath , 1973) .

(٣) هدد قانون « كانون » بسخط الكنيسة على هؤلاء الذى سيصرون على التعامل بالربا رغم تحذير الكنيسة، انظر :
Hyma , Renaissance to Refotmation , p . 66 .
The Holy Bible , ed . Rev , C . I Scof : la (New York , of ford) .

بالاحترام ، من الناحية الأخلاقية ، خاصة في ظل تحديرات الإنجيل القويه ضد الأغنياء والمرابين ، حيث يقول المسيح ، على سبيل المثال . « **مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله** » (إنجيل مرقس الاصحاح العاشر . أيه ٢٥) . وكان الفقر جائزة المسيحى إلى التقوى

بناء على ذلك ترك المسيحيون عملية جمع المال إلى اليهود ، لأنهم مطرودون من رحمة الله منذ دورهم المخادع يوم صلب المسيح ، وتنازلت أوربا ، المعادية للسامية ، عن شيطان جمع المال ، والوظائف البنكية الأخرى ، إلى هؤلاء اليهود[1] لذا فإن توزيع الأدوار الذى ظهر فى أوربا أرتبط بمسيحية ما قبل الإصلاح، تلك المسيحية التى نبذت إشكالا بعينها من السلوك الاقتصادى بوصفها إشكالاً غير جديرة بالإحترام دينياً وأخلاقياً .

وجاء الإصلاح البروتستانتي ، بعد ذلك ، وكان هذا الإصلاح رائداً في دروب شتي ، أولاً : أنه نزع الثقة عن الكنيسة ، وعن السلطات المخولة لها ، ولم يكن ذلك هجوماً ضد المسيحية ، بل كان هجوماً على الكنيسة ذاتها ، وكانت الكنيسة المسيطرة ، آنذاك ، هى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ثانيا أنه نزع الثقة عن الوساطة الكهنوتية ، وأكد أن القساوسة ليسوا ظل الله على الأرض ، حيث اعتاد الناس الذهاب إلى القس للحصول على العفو من الرب ، أو لشراء الغفران ، وربما يدفع المرء بعض المال لتبرر له الكنيسة شرب مزيد من الخمر ووصلت الكنيسة إلى مرحلة أصبحت تقوم فيها بكل المهام ، نيابة عن الله ، في مقابل رشوة ما ، في بعض الأحيان . وفي ظل هذه الانتهاكات كان من الضروري ظهور قادة للتغيير ، وكان على رأسهم مارتن لوثر وجون كالفن ، وكتب مارتن لوثر تعليماته (الخمسة والتسعين) ، وعلقها على باب أحدى الكنائس في وتنبرج عام (١٥١٧م) ، فاضحاً فيها الانتهاكات التى مارستها الكنيسة ضد المسيحية ، وبادئاً حركة تغيير سرعان ما انتشرت عبر شمال أوربا ووصلت إلى أجزاء عديدة من

---

(١) انظر ، على سبيل المثال :

H A Oberman . The Roots of Anti - Semitism in the Age of Renaissance and Reformation (Philadelphia Fortress Press , 1984) ; and William Nicholls Chrisian Antisemitism A History of Hate (Northvale , NJ : J . Aronson 1993)

العالم من خلال التبشير بالبروتستانتية . وبدء الإصلاح البروستانتي في تحدى الوساطة الكهنوتية التى كانت تمارسها الكنيسة يقول مارتن لوثر

« يوزع الباباوات والاساقفة صكوك الغفران يميناً وشمالاً ، ويتباهون بقدرتهم على منح هذه الصكوك في كل حدب وصوب ، لقاء مالٍ يشترون به طعامهم وملبسهم ، أوه . . . يالهم من رهبان مساكين ! » [(١)] .

ثالثاً : كان هذا الإصلاح البروتستانتي علامة على بزوغ الروح الفردية في الثقافة الغربية الجديدة حيث شعر المرء أن بإمكانه أن يتحدث إلى الله مباشرة ، وأن يتحدث إليه الله مباشرة أيضا ، من دون وساطة كهنوتية ، من الباباوات والقساوسة . ومنذ أن شعر المرء بعدم الحاجة إلى وسيط كهنوتي ، يتحدث من خلاله إلى الله ، تأسست الفردية الدينية ، ومن الفردية الدينية كان الانتقال إلى الفردية الاقتصادية .

رابعاً : نظر هذا الإصلاح ، البروتستانتي ، إلى العبادة بوصفها تتخذ إشكالاً وصوراً متنوعة ، ورأى أن العمل ذاته يعد شكلاً من أشكال العبادة . وأصبح عمل المرء وممتلكاته دليلاً على وقوف الله بجانبه [(٢)] ولم تعد الملكية شيئاً سيئاً ، بل أصبحت دليلاً على أن الله يبارك أفعال المرء كما لم يعد جمع المال إثماً ، فالعبرة بإسلوب إنفاق هذا المال ، بل إن الإصلاح البروتستانتي اتجه إلى موقف يدعو المرء إلى « أن يجمع المال ولا ينفقه ، وأن يجمع أكبر قدر من المال ولا ينفق منه إلا القليل » ، وأفضى كل ذلك إلى التراكم الرأسمالي من ناحية ، وإعادة الاستثمار من الناحية الأخرى ، وبداية التراكم الواسع للثروة ، ذلك لأن الأفراد الذين عزفوا عن دخول الأسواق فيما سبق ، دخلوها الآن ، بل نظروا إلى هذا الدخول بوصفه شكلاً من أشكال العبادة ، ولم يعد ثمة تعارض بين التقوي ، أو الخوف من الله ، وجمع المال بل إن الاتقياء أصبحوا أكثر توقاً لأن يصبحوا أغنياء، طالما أنهم لن ينفقوا ثرواتهم هباءً ، بل سيدّخرونها ، أو يُعيدوا استثمارها، في الغالب ، وكان ذلك إيذاناً بانطلاق الرأسمالية . التى كانت على الأبواب

---

(١) Hyma . Renaissance to Reformation p 273

(٢) I bid . pp 490 - 91

وأدى التزاوج بين هاتين الثورتين - الثورة العلمية ، والثورة الرأسمالية - إلى الثورة الصناعية في الغرب ، حيث اندلعت الثورة ، أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، التى غيرت أوجه الحياة .

من هنا تشكل البرهان على العلاقة بين الروح البروتستانتية ونشأة الرأسمالية ، وقد صيغ هذا البرهان على النحو التالى : أن القوى التى قادت الثورة الصناعية ، والتغيرات الرأسمالية ، كانت قوى بروتستانتينية بالأساس . من ناحية أخرى فإن أغلب الدول المسيحية الكاثوليكية ، مثل البرتغال ، أسبانيا ، وإيرلندا ، كانت دولاً راكدة لم تستطع اللحاق بركب التطور الذى قطعته القوى البروتستانتينية . لكن فرنسا كانت استثناءً بارزاً ، بين الدول الكاثوليكية ، حيث شكلت فاعلاً مهماً في لعبة الصناعة والرأسمالية ، هذا على الرغم من عدم كونها بروتستاتينية [(١)] .

فعلى الرغم من أن فرنسا لم تشهد إصلاحاً بروتستانتينياً ، فإنها شهدت بديلاً وظيفياً تمثل في : الثورة الفرنسية [(٢)] حيث كانت ، هذه الثورة ، معادية للكهنوت المسيحي ، مثلها مثل الإصلاح البروتستانتي تماماً ، وسعت إلى تغيير السلوك الاقتصادي ، والسلوك الديني ، في فرنسا [(٣)] . ويمكن القول أن الثورة الصناعية ،

---

(١) حول المقارنة بين التقدم الصناعي ، التكنولوجي في فرنسا وبريطانيا ، انظر على سبيل المثال :
J . R . Harris , Essays in Industry and Technology in the Eighteenth Century : England and France (Hampshire , UK , and Brookfield , VT : Variorum and Ashgate , 1992) .

(٢) لمزيد من التفاصيل ، انظر :
Jean - Pierre Hirsch " Revolutionary France , Cradle of Free Enterprise, "American Historical Review (December 1989) , 94 : 5 : 1281 - 89 .

(٣) لتحليل الطبيعة الاقتصادية للثورة الفرنسية الاقتصادية وتأثيرها ، انظر على سبيل المثال :
Folrin Aftalion , The French Revolution : An Economic Interpretation (Cambridge , UK , and New York : Cambridge University Press , 1990) Jean Laurent Rosenthal , " The Development of Agriculture in Provence 1700 - 1860 : The French Revolution and Economic Growth, " Journal of Economic History (September 1990) , 50 : 3 : 615 - 38 ; and Peter Mcphee , " The French Revolution , Peasants , and Capitalism , " American Historical Review (December 1989) , 94 : 5 : 1265 - 80 .

وحول أصول ونتائج هذه الظاهرة في مجتمعات ومناطق أخرى انظر :
Roger Chartier, The Cultural Origins of the French Revolution (Durhan, NC=

والثورة الفرنسية كانتا مسئولتين عما تلاهما من ثورات ، حيث شهدت أوربا ثورات ليبرالية ، من ناحية كما شهدت ، من ناحية أخرى ثورات اشتراكية ، وكانت الثورة الأمريكية (١٧٧٦م) ، والثورة الفرنسية (١٧٨٩م) من أكثر الثورات الليبرالية تأثيراً كما كانت الثورة الروسية (١٩١٧م) ، والثورة الصينية (١٩٤٩م) من أكثر الثورات الاشتراكية تأثيراً . وهذه هى رؤيتى للتاريخ الغربي ، وهي رؤية تختلف عن رؤية فوكوياما .

لقد أراد فوكوياما أن يخبرنا بأن الثورات الأشتراكية قد انتهت ، وهذه هي مسيرة التاريخ . إذ حاولت الأيديولوجيات أن تحقق لأصحابها (يوتوبيا) ، وكانت الأشتراكية ، التى مارست بالفعل تأثيراً على عقول الملايين لعقود طويلة ، آخر هذه (اليوتوبيات) . لقد تهاوت الآن آخر (اليوتوبيات) ، وبكلمات فوكوياما : « أن أفول نجم الماركسية اللينيه من الصين ومن الاتحاد السوفييتي يعني موتها كأيديولوجية مؤثرة في مغزي التاريخ العالمي ، وهذه الحقيقة قوضت آمال أية دولة كبرى في أن تحتل ، بمفردها ، طليعة التاريخ الإنساني » [(١)]

● هل ماتت الماركسية ؟

ثمة قضية أساسية أثرتها في هذه الآونة التى نحياها ، مع أنهيار الثورة الأشتراكية ، على الأقل فى أوروبا . وتتصل هذه القضية بما إذا كانت الماركسية قد ماتت حقاً [(١)] ؟ . ويبدو لى أن الأسهام اللينيني هو الذى أنهار بالفعل ، لينين الروسي، الذى كان أحد أعلام القرن العشرين ، كما كان ماركس أحد المفكرين الإلمان خلال القرن التاسع عشر ، وكان لينين أشبه بمارتن لوثر في تفسيره

Duke University Press , 1991) ; Alan Forrest and Peter Jones , eds , Re- = shaping France : Town , Country , and Region during the French Revolution (Manchester , UK , and New York : Manchester University , Press and St . Martin's Press , 1991) ; and David G . Troyansky et al . , The French Revolution in Culture and Society (New York : Greenwood Press , 1991) .

(١) Fukuyama , in Taking Sides , p . 355 .

(٢) انظر

A A Mazrui , " The Resurgence of Islam and the Decline of Communism : What Is the Connection ? " Futures (United Kingdom Buttersworth, 1991) pp 273 - 88 .

للتعاليم الماركسية [١] ، وبما أن المسيحية تحتوي على مذاهب مختلفة ، من ثم يمكن للمرء أن يكون مسيحياً دون أن يكون لوثرياً . وينطبق الأمر نفسه على الماركسية ، حيث يمكن للمرء أن يكون ماركسياً دون أن يكون لينينياً ، لكن القرن العشرين حمل توليفة غريبة جعلت من اللينينية بداية الماركسية الزائفة ، ولإن روسيا كانت أول من سلك هذا الطريق ، ولأن لينين كان زعيم روسيا ، اعتقد الناس استحالة أن يكون المرء ماركسياً دون أن يكون ماركسياً لينينياً . واعتبرت الماركسية واللينينية شيئاً واحداً ، لا يمكن الفصل بينهما . واحتوت التوليفة اللينينية على الديمقراطية المركزية ، الحزب الطليعي ، الحزب الشيوعي الذى يحتكر كل شىء ، وترتبط هذه المفاهيم بلينين لا بماركس [٢] .

وفيما يتعلق بالماركسية نجد أنها لعبت ثلاثة أدوار في تاريخنا الحديث ، وتبدت هذه الأدوار في :

(أ) أخلاقيات التوزيع (توزيع ثروة المجتمع بشكل يقلل من أشكال اللامساواة داخل المجتمع .

(ب) منهجية في التحليل (أي طريقة ماركسية في دراسة المجتمع ، وتفسير تطوره ، واستخلاص النتائج المتعلقة بذلك) .

(ج) أيديولوجيا في التنمية ، تهدف إلى زيادة الإنتاجية .

وإذا حاولنا تقييم الدور الأول الذى لعبته الماركسية - ذلك الدور الذى أرتبط بأخلاقية التوزيع ، والاهتمام بأشكال التفاوت الاقتصادي الظالمة - نجد أن مصداقية هذا الدور لم تتأثر بالأزمة التى حدثت للماركسية ، فالمبدء الذى يقضي بوجوب التقليل من أشكال التفاوت القائمة ، بين الأفراد ، فيما يتعلق بمشاركتهم في ثروات المجتمع ، لم يفقد مصداقيته [٣] .

---

(١) انظر ، على سبيل المثال :

Paul Le Blanc , Lenin and the Revolutionary Party (Atlantic Highlands , NJ : Humanities Press International , 1990) .

(٢) انظر ، على سبيل المثال :

The Fundamentals of Marxist - Leninist Philosophy , trans . Robert Daglish (Moscow : Progress Publishers , 1974) .

(٣) حتى الاقتصاديين المتزمتين سابقاً ينظرون إلى قضايا المساواة المحيرة بمزيد من الاهتمام حالياً ، انظر على سبيل المثال : =

وفيما يتعلق بالدور الثاني - الماركسية بوصفها منهجاً في التحليل - فقد أوضحت أن بإمكان الباحث ألا يكون ماركسياً ، وأنا كذلك بالفعل . لكن التطورات التى حدثت خلال السنوات الثلاث الأخيرة أثبتت أن أياً من التحليل الطبقي ، أو بحث ظاهرة الإمبريالية لم يفقد مصداقيته . وثمة مناهج شتي يستخدمها الباحثون في دراسة المجتمع ، لكن أحداً لم يثبت ، حتى الآن ، أن المنهجية الماركسية غير ذات جدوي في دراسة المجتمع (١) ، وأخيراً فإن الماركسية بوصفها إيديولوجية في التنمية تعرضت لانتقادات ، ولم تحقق الأهداف المرجوة منها ، ذلك لأن لينين صاغ شكلاً ، أو أستراتيجية خاصة في التنمية فشلت في أن تصل بالبلاد ، التى انتهجتها ، إلى ما كانت تصبو إليه . لذا انهارت ، بشكل أو بآخر ، داخل العديد من الدول (٢) ، لقد ألقت اللينينية بالوليد الماركسي في دورة المياه .

وجدت الماركسية ، من ثم ، فرصتها الأفضل في آسيا ، على الأقل داخل الصين الشعبية ، حيث كانت الصين أقل تمسكاً باللينينية ، على الأقل في المجال الاقتصادي ، كما فقدت الديمقراطية المركزية طابعها المركزي ، ويُنبيء المستقبل عن مزيد من الإتساع للهامش « الديمقراطي » من الديمقراطية المركزية (٣) .

Amartga sen , Inequality Reexamined (Cambridge , MA : Harvard Univer- = sity Press . 1992) .

وما زالت قضية المساواة تشغل عقول المنظرين السياسيين أيضاً ، انظر على سبيل المثال :

David G . Gil , Unraveling Social Policy : Theory , Analysis , and Political Action Toward Social Equality , 4 th ed . (Rochester , VT : Schenkman Books , 1990) ; and Charles R . Beitz , Political Equality : An Essay in Democratic Theory (Princetion : Princeton University Press , 1989) .

(١) كشف تقرير أصدرته إحدى المكتبات قريباً أن حوالي (١,٥١٠) كتاب ، (١,٣٥٦) مقالة في قضايا الاقتصاد السياسي تعتمد بوضوح على التحليل الماركسي .

(٢) حول التحولات الاقتصادية والسياسية الأخيرة في شرق أوروبا ، انظر :

Ferenc Fehér and Andrew Arato , eds . Crisis and Reform in Eastern Europe (New Brunswick , NJ : Transaction Books , 1991) .

(٣) تشير التقارير الحديثة في الصحف والتقارير الخاصة بالسجناء السياسيين إلى انخفاض حدة الرقابة السياسية المفروضة عليهم . انظر على سبيل المثال :

The New York Times , June 1 , 1993 : AL . China's economy is definitely booming at a tremendous rate , although problems remain . See , for example , C . A . Tisdell , Economic Development in the Context of China : Policy Lssues and Analysis (New York : St. Martin's Press , 1993) .

وطالما أن الماركسية قد وجدت فرصتها الأفضل داخل آسيا ، فإن هذا الموقف يذكرنا بالمصير الذي لاقته الديانة المسيحية . إذ لم تنتشر لدي الذين بزغت بين ظهرانيهم ، حيث فشلت بين اليهود ، أول من بشروا بها ، كما فشلت في الشرق الأوسط ، مهدها الجغرافي ، ولم تزدهر إلا فى أوروبا ، في المنفى . بل سرعان ما أصبحت أوروبا موطن المسيحية والساعية إلى نشرها عبر العالم [1] لكنها لم تزدهر في المكان الذي بزغت فيه ، حتى في ظل الهيمنة الأوروبية، وعندما أنشأت أوروبا إسرائيل فإن ذلك جاء على حساب المسلمين كما جاء ، في الوقت نفسه، على حساب المسيحيين . حيث أفضى مجئ اليهود الذين أحضرهم الأوروبيون ، إلى خروج المسلمين والمسيحيين ، وتشير التقديرات إلى نزوح خمسين ألفاً من المسيحين، من الأراضي الفلسطينية التى أحتلها الصهاينة خلال حرب (١٩٤٨ - ١٩٤٩م) [2] . لذا فإن أنشاء إسرائيل قلص من الوجود المسيحي في الشرق الأوسط ، حيث ساهم في القضاء على بعض التجمعات السكنية المسيحية بالمنطقة، وانخفضت أعداد الفلسطينين المسيحيين في مختلف المناطق الفلسطينية، انخفاضاً ملحوظاً ، بين عامي (١٩٣١ - ١٩٦١م) ، فقد انخفضت أعداد المسيحيين في القدس الجديدة من (١١,٥٢٦) عام (١٩٣١م) إلى (١,٤٠٣) عام (١٩٦١م)[3].

والسؤال المهم هنا ، فيما يتعلق بالماركسية ، هو : هل تتحرك الماركسية في الاتجاه نفسه ؟ هل ستزدهر بعيداً عن موطنها الأصلي ، وتصبح هامشية في أوروبا، المكان الذى ولدت فيه ؟ وهل ستجد ما يساعدها على الإزدهار في أكثر قارات العالم أزدحاماً بالسكان - قارة آسيا ، وهل ستكون الصين العملاقة هي المكان المؤهل لذلك ؟ والسؤال الذى يجب أن يثار هنا - بناء على ما سبق هو : هل هي نهاية التاريخ أم نهاية اللينينية ؟ إن التاريخ هو الكفيل بالإجابة عن هذا السؤال في المستقبل .

---

(١) حول الدور الغربي في نشر المسيحية في العالم غير الغربي ، انظر :

Charles W . Forman , ed . Christanity in the Non _ Western World (Englewood Cliffs . NS : Prentice - Hall , 1967) , pp 35 - 52 .

(٢) انظر :

- R . B . Betls . Christians in the Arab East (Atlanta : John Knox Press 1978) p . 67 .

(٣) I bid . p . 69 .

● الإسلام في التاريخ العالمي :

هل ثمة تاريخ إسلامي يشبه ذلك التاريخ الذى وصّفناه فيما سبق ؟ وما الشكل الذى اتخذه ؟ دعنا نثير القضية من الزاوية الأكثر إثارة للجدل .

هل بإمكاننا أن نفترض بأن الرسول محمد ﷺ رأى (منذ ما يقرب من سبعة قرون قبل ظهور مارتن لوثر ، وجون كالفن) أن المسيحية ، التى عاصرها ، كانت بحاجة إلى إصلاح ؟

يؤكد القرآن أن أهل الكتاب اليهود والنصاري قد بدّلوا ما جاء في كتبهم المقدسة : ﴿ **يأيها الذين أمنوا ءَامنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ (١) .

هذه حقيقة ، لكن القرآن يري أن المسيحيين هم الأقرب للمسلمين ، حيث يؤكد القرآن : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين أمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ (٢) .

وأحد أخطاء المسيحيين ، الكبري ، هى قناعتهم بأن عيسي ابن الله : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصاري المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون** ﴾ (٣) .

ويؤكد النبي محمد ﷺ ، أن المسيحيين قد حرّفوا رسالة الله الحقيقية ، وهو الأمر الذي أكده ، بعد سبعة قرون ، مارتن لوثر ، وجون كالفن ، حيث أكدا أن رسالة عيسى (عليه السلام) حُرِّفت من قِبْل بعض أتباعه .

ويؤمن المسلمون بوحدانية الله ، فالله واحد أحد لم يتخذ ذرية ولا ولد ، ويؤكد القرآن على ذلك في سورة مستقلة ، هي سورة الأخلاص ﴿ **قل هو الله آحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (٤) .

ولا شك أن مارتن لوثر وجون كالفن لن يُسلما بذلك ، لكنهما حاولا الحد من القول بتعددية الله ، حيث أكدا المكانة الخاصة التى تحتلها السيدة مريم العذراء ، أم

---

(١) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(٢) سورة المائدة آية : ٨٢ .
(٣) سورة التوبة آية : ٣٠ .
(٤) سورة الإخلاص .

المسيح، لكن هذه المكانة لا تصل ، من وجهة نظرهما ، إلى أن تصبح وسيطاً بين العبد والرب ، من ثم حاول البروتستانت تحجيم المكانة ، والمزايا ، التى احتلتها السيدة مريم داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ونهي مارتن لوثر عن رفعها إلى مكانة الآلهة أو توقيرها أكثر من كونها إحدي أتباع المسيح [١] . كما أكد مارتن لوثر، وجون كالفن على أن الله لا يحتاج إلى وسيط من القساوسة ، لعبادته ، فكل إنسان يستطيع أن يكون على صلة مباشرة بالله . إن مارتن لوثر ، وجون كالفن أكدا ، في القرن السادس عشر ، الأمور ذاتها التى أكدها النبي محمد ﷺ في القرن السابع حيث أكد الإسلام أن جسد المسيحية يوجد في دين الله ، وأن القساوسة طغوا بادعائهم أنهم يمثلون السلطة الآلهية .

فهل يمكن القول - بناء على ذلك - أن الإسلام كان أول الثورات البروتستانتينية ؟

لقد آمن الإسلام بالرسالة المسيحية ، وأكد أنها تعرضت للتحريف والتشويه ، وحاول تنقيحها دون أن يقلل من شأن المكانة السامية التى احتلها السيد المسيح . فهل ثمة تأثير يمكن أن يفضي إلى شكل من أشكال الميركنتيلية في التجارة تترتب على التوسع الإسلامي ؟ لقد كان هناك حقاً ثورة رأسمالية جنينية ، قيد التشكل ، وهذه هي أحد التطورات .

فهل يمكن أن نعثر على تطور مشابه ، يتمثل في نهضة إسلامية في الفنون والعلوم ، وإذا ما اتفقنا على أن هذه التطورات هي الدالة على التغيرات الكبرى التى حدثت خلال فترات التاريخ الإسلامي ، فإن التقدير التقريبي لإتساع تلك الثورة العلمية الوليدة يعتمد على المنظور الفكرى للباحث. فإذا كان الباحث متمركزاً حول النموذج العربي في تفسير التنوير الإسلامي ، فإنه سيختزل فترة التنوير الإسلامي إلى أقل حد ممكن . أما إذا تصور باحث آخر أن هذه الفترة تمتد حتى ظهور الامبراطورية العثمانية ، فإن فترة التنوير الإسلامي تستمر حتى القرن السابع عشر . ولا شك أن التنوير الإسلامي قد اقتبس من الحضارات الأخرى ، لكنه استطاع أن يطور الكثير من العناصر التى أقتبسها ، فعلى سبيل المثال تسمى الأعداد

---

(١) Bernhard lohse , A Short History of Christian Doctrine , Trans , F. Ernest Stoeffles (Philadelphia : Fortress Press , 1978) , p . 207 .

فى اللغة الإنجليزية بالأعداد العربية ، ولا شك أن هذه الأعداد تمثل جزءاً من الاستجابة الإسلامية لمثيرات الحضارات الأخرى ، واستطاع (التنوير الإسلامي) أن يتخطى هذه المثيرات ، بعد أن طورها لقرون وحضارات قادمة . ففي هذه الحالة، الخاصة بالأعداد ، فإن المثير جاء من الهند ، ونقله المسلمون ، بعد أن طوروه إلى حضارات أخرى [١] .

وانتقلت الحكمة اليونانية إلى أوروبا الغربية عبر العلماء المسلمين ، مثل الفيلسوف الإيراني المسلم ابن سينا ، والمفكر الأسباني المسلم ابن رشد [٢] ، وتجلت فلسفة ابن سينا في الفلسفة المسيحية الكاثوليكية ، بأشكال متنوعة ، وكان القديس توما الأكويني ، على سبيل المثال ، الذى يُعد واحداً من أكبر علماء الدين المسيحيين ، من أكثر العلماء الذين أسسوا تحليلاتهم للعلاقة بين « الجوهر » ، و«الوجود » على فلسفة ابن سينا . كما كانت شروح ابن رشد لأرسطو نواة لكتب فلسفية صاغها بعض كبار المفكرين المسيحيين : مثل البرت الأكبر ، وتلميذه المفضل القديس توما الاكوينى ، وتُرجمت هذه الشروح إلى اللاتينية ، والإنجليزية، وما زال يُستفاد منها حتى الآن ، في فك طلاسم أعمال أرسطو [٣] .

وشكلت الحكمة اليونانية ، فيما بعد ، جزءاً من تصور الغرب عن ذاته ، كما شكلت منبع العقلانية الغربية [٤] ، وإذا دققنا النظر في أصل الكلمة الإنجليزية Alph - bet لوجدنا أنها غير مشتقة من اليونانية بشكل مباشر ، وإنما ترجع جذورها إلى الكلمة العربية ألف باء Alifbete .

---

(١) انظر :
Duncan Towson , Muslim Spain (Cambridge , UK : Cambridge University Press 1973) , p . 41 .

(٢) انظر :
Ibid , p . 42 , Hichem Djait , Europe and Islam (Berkeley , CA : University of California Press , 1985) ; and W . Montgomery Watt , The Influence of Islam on Medieval Europe (Edinburgh : University Press , 1972) .

(٣) انظر :
De Lacy O'Leary , Arabic Thought and Its Place in History (London : Routledge Kegan Paul , 1922) ; and Majid Fakhry , A History of Muslim Philosophy (New York : Columbia University Press , 1970) .

(٤) انظر على سبيل المثال :
G . E . von Grunegaum , Islam and Medieval Hellenism : Social and Cultural Perspectives (London : Variorum Reprints , 1976) .

وإذا كانت اللغات الأوروبية الغربية قد تأثرت باللغة العربية ، فإن اللغة الأسبانية هي اللغة الأكثر تأثراً باللغة العربية عبر التأثير العربي على أسبانيا طيلة ثمانية قرون [١] .

وما زال علماء الآثار مندهشين من امتداد آثار الحضارة الإسلامية من تاج محل ، في الهند إلى الحمراء في أسبانيا . لذا أؤكد هنا مرة أخرى ، وكما أوضحت فيما سبق ، أننا يجب إلا ننسى أن النهضة التى بلغها الغرب مدينة في جوهرها ، للنهضة الإسلامية ، ودعنى أقتبس هنا ما قاله أحد الباحثين في الغرب "Eugene A . Myers " « لقد كان التأثير الإسلامي على العلم والثقافة الغربية تأثيراً عظيماً منذ أواخر القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر » [٢] ، وانتهى إلى النتيجة التالية :

« من الصعب التقليل من شأن الأهمية الثقافية لأعمال الباحثين المسلمين ، وترجماتهم في تطور العلم والإنسانيات . . . لذا فإن جذور الفكر الغربي تعد مزيجاً من الفكر اليوناني العربي ، والفكر العبري » [٣] .

ومن المفارقة أن تطور آفاق الهيلينية ، التي ألهمت النهضة الأوروبية الغربية فيما بعد ، جاء عبر العالم الإسلامي ، وخصوصاً عبر أسبانيا . خلاصة ذلك ، بشكل عام ، أن التاريخ الإسلامي شهد تطورات مشابهة لما حدث في الغرب ، لكن هذه التطورات ، كانت في مرحلتها الجنينية .

لكن ما الذى حدث بعد ذلك ؟ لقد تغيرت الصورة . بدأ العالم الإسلامي في الانتكاس . لقد جاءت عصور الظلام ، في الغرب ، قبل عصر النهضة ، بينما جاءت عصور الظلام عندنا ، نحن المسلمين ، بعد عصر النهضة . ومن هنا أصبح المسلمون موضوعاً للتاريخ ، وليسوا ذواتا فاعلة في هذا التاريخ ، أصبحوا غير «فاعلين » ، بل « مفعول بهم » . ويختلف الباحثون ، اختلافاً يعتمد على درجة

---

(١) انظر :

Duncan Towson , Muslim Spain , for A General Description of the Impact of Islam on Spain .

(٢) انظر :

Eugene A . Myers , Arabic Thought and the Western World in the Golden Age of Islam (New York : Frederick Ungar , 1964) p . 10 .

(٣) Ibid , . pp . 133 - 4 .

تمركزهم حول النموذج العربي ، حول بداية هذا الأنهيار ، إذ يراه البعض بدأ قبل المغول ، بيما يرى البعض أنه بدأ قبل الامبراطورية العثمانية .

وأستطيع القول بأن النصف الأول من هذا القرن كان جزءاً من هذا الانهيار ، حيث كان المسلمون غير فاعلين في التاريخ ، لأن معظم أجزاء ، العالم الإسلامي كانت تقع تحت الاستعمار . كما تفككت الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ، وقامت القوي الأوروبية باحتلال أجزاء مختلفة من هذه الامبراطورية التى أصبح معظم أجزاءها إما محتلاً أو واقعاً تحت الحماية [١] . أما أجزاء العالم الإسلامي التي لم تخضع للاستعمار المباشر ، فإنها لم تكن بعيدة عن هيمنة الاستعمار الجديد ، فبلدان مثل إيران (فارس) أو أفغانستان لم تكن مستقلة بشكل يعتد به ، خلال تلك الفترة .

وشهد النصف الثاني من القرن العشرين بداية ظهور المسلمين بوصفهم شركاء في صنع التاريخ ، فقد بدأ تأثير المسلمين ، خلال تلك الفترة ، في التاريخ العالمي لا عن طريق صياغة هذا التاريخ . بل من خلال محاولة تغيير تاريخهم الخاص . وما يترتب على ذلك من نتائج على الصعيد العالمي ، حيث تصبح هذه النتائج ، بشكل غير مباشر ، ذات قوة تحويلية على الصعيد العالمي ، وتعد حرب التحرير الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢م) من أبرز الأمثلة الدالة على ذلك [٢] .

وإذا ما أراد المرء أن يفسر هذه الحرب من منطلق نزعة التمركز حول الذات الأوروبية ، يجد أن فرنسا اعتبرت الجزائر جزءاً منها ، لكن الجزائريين نظروا إلى ذلك بوصفه « استعماراً ولا شيء غير ذلك » ، وبدأوا في شن حرب التحرير ، حتى أعتلي السلطة رجل فرنسي حكيم ، هو شارل ديجول ، أدرك الواقع ، وحصلت الجزائر على استقلالها عام (١٩٦٢م) .

ويعد هذا التفسير تفسيراً خاطئاً للتاريخ الجزائري ، أما التفسير الصحيح فهو

---

(١) من أجل نظرة عامة على الامبراطوريات الاستعمارية انظر :

David K . Feildhouse , The Colonial Empires : A Comparative Survey From the Eighteenth Century , 2 nd, ed . (London : Macmillan , 1982) .

(٢) لمزيد من التفصيل حول الحرب ، انظر :

John E . Talbott , The War Without a Name : France in Algeria , 1954 - 1962 (New York : Knopf , 1980) .

التفسير الذى ينظر إلى الجزائر بوصفها إحدى دول شمال إفريقيا التى حملت السلاح ، وحاربت من أجل استقلالها ، ولم يكن يعنيها ، آنذاك ، سوى الحصول على حريتها ، وحقوق شعبها [١] . ولم يكن في ذهن الشعب الجزائري، آنذاك أيضاً ، أنه يغير التاريخ العالمي .

لكن كيف استطاع الشعب الجزائري أن يغير تاريخ العالم خلال أربع سنوات (١٩٥٤ - ١٩٥٨م) فقط ؟ لقد أستطاع أن يفعل ذلك عبر الضغوط التى مارسها على النظام الدستوري الفرنسي ، تلك الضغوط التى فاقت الضغوط التى مارستها حرب فييتنام على أمريكا فيما سبق . لدرجة أن أصبحت فرنسا على شفا حرب أهلية[٢] . حيث كنت ، آنذاك ، طالباً يدرس في أنجلترا ، وما زلت أتذكر بوضوح ما شهدناه من توترات ، مندهشين عما تنبني به هذه التوترات ، فلأول مرة، ربما في تاريخها .تخرج المانشستر جارديان ، بإفتتاحية تهيب بالفرنسيين أن يكفوا عن الإندفاع الطائش الذى يمكن أن يفضي إلى العصيان المدنى المسلح ، حيث كان اليسار الفرنسي مستعداً للنزول بالسلاح في الشوارع لمحاربة القوات الفرنسية المحبطة ، والتى تشعر بعدم أخلاقية المهمة التى ذهبت من أجلها إلى الجزائر ، إذا ما فكرت هذه القوات في الذهاب إلى باريس لإسقاط الحكومة [٣] .

وتعقد الموقف ، وكان هناك رجل واحد بإمكانه أن ينقذ فرنسا : هو شارل

---

(١) حول العلاقة الفرنسية الجزائرية ، انظر على سبيل المثال :

Tony Smith , The French Stake in Algeria , 1945 - 1962 (Ithaca , NY : Cornell University Press , 1978) .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول السياسة الفرنسية في الجزائر ، انظر :

W . G . Andrew , French Politics and Algeria : The Process of Policy Formation . 1954 - 1962 (New York : Appleton - Century - Crofts , 1962) .

ولمزيد من التقارير الصحفية حول السياسة الديجولية في الجزائر ، انظر :

C . L . Sulzberger , The Test : DeGaulle and Algeria (London : R . Hart - Davis, 1962) .

(٣) كانت الأعداد الكبيرة للقوات شبه العسكرية الفرنسية المستوطنة في الجزائر أحد أهم معوقات الاستقلال حيث كانوا أكثر الحركات سخطاً على الانسحاب الاستعماري من الجزائر ، واكتسبوا تعاطف القوات العسكرية الفرنسية ، مما قاد إلى خوف من انقلاب عسكري في فرنسا ذاتها ، انظر على سبيل المثال :

G . A . Kelly , Lost Soldiers : The French Army and Empire in Crisis . 1947 - 1962 (Cambridge , MA : MIT Press , 1962) .

ديجول ، وسقط النظام الدستوري القديم ، فما كان ديجول يحكم فرنسا في ظل نظام كهذا ، وصمم على وضع دستور جديد تماماً ، مؤسساً الجمهورية الخامسة . وبمجئ ديجول إلى السلطة أصبحت فرنسا أكثر استقراراً من الناحية السياسية ، وانسحبت فرنسا من الجناح العسكري لحلف الناتو NATO ، كما أصبحت فرنسا أقل خضوعاً للولايات المتحدة ، وقطعت شوطاً في البرنامج النووي الخاص بها ، وتخلت عن سياستها الاستعمارية عبر العالم ، خصوصاً في إفريقيا [٢] ، وبحلول عام (١٩٦٢م) أصبحت الجزائر دولة مستقلة .

لقد تغير تاريخ فرنسا لأن المسلمين كانوا يناضلون من أجل استقلالهم في الجزائر ، وفي شمال إفريقيا . كما تغير التاريخ الأوروبي لأن تاريخ فرنسا كان قد تغير ، وتغير تاريخ العالم لأن التاريخ الأوروبي كان قد تغير . إننا هنا إزاء موقف لشركاء في التاريخ ، شاركوا في صنعه بينما كانوا يحاولون تغيير تاريخهم الخاص .

وفيما يتعلق بأطروحة فوكوياما الخاصة بنهاية التاريخ ، وانهيار الشيوعية ، فإن أحداً من المحللين الفرنسيين لم يتحدث عن أفغانستان ، كما لم يتحدث أحد عن العلاقة بين نهاية الشيوعية ، وانهيار الإرادة الإمبريالية السوفييتية عند هزيمتها في أفغانستان ، لم يفعل ذلك أحد من الباحثين في الغرب .

لقد كان ثمة بلد يسمى الاتحاد السوفييتي كان قوياً ومهيمناً اعتاد أن تجتاح دباباته أي بلد يحدث فيها ما يعكر صفو امبراطوريته ، فعل ذلك في المجر (١٩٥٦م) ، وفي تشيكو سلوفاكيا (١٩٦٨م) لكنه فشل في أفغانستان (١٩٧٩م) ، فعلي عكس ما حدث في تشيكوسلوفاكيا (ربيع براغ) ، وفي المجر (١٩٥٦م) ، لم يترك المجاهدون فرصة أن يعيش الغزاة في سلام ، وناضلوا بكل ما أوتوا من قوة ، واستمروا في النضال حتى بعد أن خرج الغزاة . ويجب علينا ، بالطبع ،

---

(١) انظر على سبيل المثال :

P . M . Williams and Martian Harrison , De Gaulle's Republic (London : Longman , 1960) .

(٢) من الدراسات التي وثقت لاثر الصراع الجزائري على دفع حركات السلام الفرنسية ، والحركات الفرنسية المناهضة للاستعمار :

David L . Schalk in his War and the Ivory Tower : Algeria and Vietnam (New York : Oxford University Press , 1991) .

أن نذكرهم بأن الغازي قد رحل ، ويبقى أنهم وقفوا أمام قوة عظمي ، في مرحلة تاريخية ، مسلحين بغيرتهم على الإسلام ، تماماً مثلما أثبت الإسلام ، في مراحله الأولى ، قدرته على محاربة القوى الإمبريالية الغازية [1] ، وإنهارت الإرادة السوفييتية الإمبريالية بشكل قدري ، لكن أحداً لم يناقش ذلك في الغرب ، لم يناقش أن الاتحاد السوفيتي ، بعد أفغانستان لن يستطع أن يرسل دباباته إلى مجر أخرى ، أو إلى بولندا أخرى ، أو إلى تشيكوسلوفاكيا أخرى ، فلن يستطيع أن يمارس لعبته القديمة بعد أن هزمه المسلمون في أفغانستان .

إن أحداً لم يربط بين الأحداث بهذه الطريقة ، لأنهم لا ينظرون إلى المسلمين بوصفهم فاعلين في التاريخ ، بل لا زالوا ينظرون إلينا نحن المسلمين ، بوصفنا موضوعات للتاريخ ، موضوعات مفعول فيها من قبل القوى التاريخية كافة . لكن الحالة الأفغانية تجسد حالة رائعة لحركة المسلمين الذين سعوا إلى تحقيق أهداف خاصة بهم ، لكنهم - في سعيهم هذا - حققوا أهدافاً غيرت من التاريخ العالمي ، على الرغم من أن أغلب المجاهدين الأفغان ، لا يعرفون «البيروسترويكا» ولا يفهمون كثيراً ، فى العلاقة بين الشرق والغرب ، فكل ما يعرفونه هو : « أننا مسلمون ، نحب حريتنا ، ونحب ديننا ، وإن هؤلاء الغزاه لن يغمض لهم جفن في بلادنا ، ولابد من طردهم من بلادنا »، لقد صنع المسلمون التغير عبر تحطيمهم الكتلة الشرقية القديمة . وتدعم الدور الإفغاني عبر الدور الإيراني ، الذى خلق الظروف التى دفعت الاتحاد السوفييتي إلى اجتياح إفغانستان. لأنه كان مرعوباً من ثورة إسلامية أخرى [2] . وشكلت هذه المتغيرات أسباباً فاعلة، صنعها فاعلون مسلمون كبار، اعتبرها المحللون الغربيون غير كافية لتفسير مجرى التاريخ الحديث.

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Rudolph Peters , Islam and Colonialism : The Doctrine of Jihad in Modern History (The Hague : Mouton , 1979) ; and Oliver Roy , Islam and Resistance in Afghanistan , 2 nd, ed . (Cambridge , UK , and New York : Cambridge University Press , 1990) .

(٢) انظر على سبيل المثال :

Lawrence Ziring , Iran , Turkey , and Afghanistan : A Political Chronology (New York : Praeger , 1981) ; and Yaacov Ro'i, ed , The USSR and the Third World : Issues in Domestic and Foreign Policy (London and Boston : Allen & Unwin , 1984) .

ولعب المسلمون دوراً فاعلاً في علاقات الجنوب - الجنوب ، وعلاقات الشمال - الجنوب ، كان له أثره الواضح في تحدي التحكم الغربي في موارد المسلمين ، وكلنا يعرف الدور الذى لعبه عبد الناصر في تحدي التحكم الغربي في موارد المسلمين ، وثمة تأثير إسلامي على علاقات الجنوب - الجنوب - من خلال المساعدات المتبادلة، وفرص العمالة ، كما في حالة البلدان الإسلامية الغنية بالنفط[١] ، ويمارس المسلمون أيضاً تأثيراً على علاقات الشمال - الجنوب ، كما يحدث في المفاوضات مع الشمال حول القضايا الدولية ، والقضايا الاقتصادية المحورية [٢] ، وبذلك استطاع المسلمون أن يضيفوا الكثير إلى قوة الجنوب ، كما نجحوا في تحطيم القوة الشرقية .

لكن الأمر غير الواضح هو : كيف سنتعامل مع الغرب ، الغرب الذى يشعر المسلمون ، للأسف ، بأنهم أضعف منه ، هل هناك من مخرج ؟

ويقودنا ذلك إلى النظر للمسلمين بوصفهم فاعلين في صنع التاريخ ، والرأى عندي أن المسلمين يشاركون في صياغة التاريخ العالمي ، لكن بطريقة غير متعمدة ، وعبر نتائج غير مقصودة ، فالذين يشتركون في صياغة التاريخ ، يفعلون ذلك بوعي ولإغراض محددة ، واعتقد أنه من المهم أن نواجه أطروحة فوكوياما الخاصة بالديمقراطية والرأسمالية ، وإلى أين تقودنا نحن المسلمين .

عموماً ، أنا أكثر حماساً للديمقراطية ، وليس للرأسمالية ، وإن كانت الرأسمالية ، للأسف ، هي التربة الملائمة لنمو الديمقراطية ، ولم يقدم لنا التاريخ

---

(١) انظر :

Shireen T . Hunter , OPEC and the Third World : Politics of Aid (Bloomington : Indiana University Press , 1984) ; and Abdelkader Benamara and Sam Ifeagwu , eds , OPEC Aid and the Challenge of Development (London and New York : Croom Helm , 1987) .

(٢) انظر :

James Pscatori , International Relations of the Asian Muslim States (Lanham , MD and New York : University Press of America and the Asia Society , 1986) ; and D Abdullah, The Biting Flaschood : A Study of Islam and Western Thought (London Ta - Ha . Publishers Ltd , 1984).

نموذجاً لديمقراطية تعددية نجحت في العالم ، دون حد أدنى من الرأسمالية ، فهذا النموذج لم يوجد بعد ، ويصبح السؤال هنا : هل هذا صدفة أم أن له مسبباته ؟ هل من المستحيل إقامة مجتمع تعددي ، تنافسي مفتوح دون وجود درجة من درجات الرأسمالية ، هل الرأسمالية هي السماد الطبيعي لغرس الديمقراطية ؟ وهل يجب علينا أن نضع هذا السماد في تربتنا ، إذا ما أردنا ديمقراطية ؟ ثمة خلاف واضح بين المفكرين حول هذه القضية [1] ، ومن المفهوم أننا نقبل بتوليفة تجمع بين الرأسمالية والديمقراطية ، فهل نستطيع من ثم :

(أ) دمقرطة الإسلام أو إعادة دمقراطته أو

(ب) أسلمة الديمقراطية ؟

فيما يتعلق بـ « دمقرطة الإسلام » فهل سننجح في جعل الديمقراطية تحتل جزءاً أكبر داخل القوى الفاعلة في حياتنا . وننظر إلى المحاسبة أمام الله بوصفها جزءاً لا يتجزء من المحاسبة أمام الناس ؟ هذا سؤال يجب علينا أن نسأله لأنفسنا ونحن نضع تاريخ الإسلام المستقبلي . كيف نجمع بين المساءلة أمام الله ومساءلة الناس للحكومة ؟ ثانياً : كيف نجعل مفهوم الأمة مفهوماً محلياً يصلح لدائرة انتخابية محدودة العدد ، بعد أن كان يجمع بين البلايين من البشر عبر أقطار عديدة من دول العالم؟ فحيث يوجد بليون مسلم حول العالم[2] . يصبح التفكير في دائرة انتخابية واحدة تجمع عموم المسلمين ، أمراً غير واقعي ، فهل ستوجد الدوائر الأصغر ؟

وفيما يتعلق بقضية الجنس Gender ، كيف يتحقق للمرأة المسلمة مشاركة كاملة ؟ لقد شكل الجنس ثورة فاصلة في التاريخ الإسلامي القديم ، حيث نزل الإسلام بين قوم كانوا يقومون بوأد البنات ، ويفرقون بين الذكر والأنثي ، واختار الله أن ينزل الإسلام بين قوم تشيع بينهم هذه المساوئ لكن بعد جيل واحد بدأ

---

(١) انظر دراستين حديثتين لتلك القضية :

Dietrich Rueschmeyer et al , Capitalist Development and Democracy (Chicago : University of Chicago Press , 1992) ; and Gyorgy Lukacs . The Process of Democratization , Trans . S . Bernhardt and Nolan Levine (Albany : SUNY Press , 1991) .

(٢) انظر :

Weeks , " The Demography of Islamic Nations " 1988 .

لمجتمع يعترف بالأنثى كمواطنة لها حق الملكية [1] ، واتخذ المجتمع سبيله إلى التغير لكن هل شاء الله أن يكون هذا التغير مطرداً ؟ سؤال يصعب الإجابة عنه ، فنحن نتعامل مع مادة إنسانية خام ، فأنت لا تستطيع أن تغير ، عبر جيل واحد ، كل ما تتمنى أن تغيره ، فأين كانت بذور التغيير ، مثلاً ، عندما أباح الإسلام تعدد الزوجات ، وسمح للرجل بإن يتزوج أكثر من زوجة على أن يساوى بينهن في المعاملة ، هل اشتراط المساواة في المعاملة هي بذور التغيير التى بذرها الإسلام؟ لا شك أن المرء يدرك صعوبة ذلك ، نظراً لاستحالة أن يعامل المرء كيانين بشريين مختلفين بشكل متساو . فقد تكون إحداهن مسلية عن الأخرى ، وقد تكون إحداهن مزعجة أو مريحة أو جذابة أكثر من الأخرى ، ومن الواضح أنه من المستحيل أن يعامل المرء كيانين إنسانيين بالطريقة نفسها .

وقد كان لأبي أكثر من زوجة ، ما زالت إحداهن على قيد الحياة ، أخصص لها جزءاً من أي رزق متواضع أحصل عليه ، وعلى الرغم من أنها ليست أمي التي ولدتني ، وعلى الرغم من أن أبي مات منذ عام (١٩٤٧م) ، فإنها لا زالت جزءاً من التزاماتي العائلية . وهو ما يوضح لنا كيف تدوم هذه الولاءات .

وفى إحدى المناسبات رأيت أبي يشتري فستاناً ، هدية لأمي الثانية ، التي ما زالت على قيد الحياة . فقلت له آنذاك : لماذا لم تشترِ أية هدية لأمى ، فانزعج أبي لهذه الملحوظة وقال لي : « اسمع يا بني ، أمك زوجة أكثر تقليدية ، تحب ارتداء أنواع معينة من الملابس غير موجودة في نيروبي ، وأفضل أنواعها موجود في بلدتنا .

وكان أبي محقاً في ذلك . فنوع الملبس الذي كانت تفضله أمي موجود في مومبسا أكثر من نيروبي . لكنى أردت ، من ناحية أخرى ، أن اسبب لأبي بعض المتاعب ، فقد كنت مغتاظاً منه ، فوشيت لأمي بأمر الهدية التي أحضرها لزوجته الثانية . فإذ بأمي تصفعني وتخبرني بأن أهتم بشئوني الخاصة فقط .

إن القضية الأساسية التي أردت الوصول إليها هنا هى إنه على الرغم من أن أبي كان قاضياً مسلماً غزير العلم . واستخدم الرخصة بتعدد الزوجات ، إذ كانت

---

(١) انظر :

John Thomas Cummings et al , Islam and Development , ed . John Esposito (Syracuse , NY : Syracuse University Press , 1984) pp . 35 - 6.

له أكثر من زوجة ، فإنه يمكن القول : إن عدم المساواة في المعاملة كانت واقعاً قائماً عبر التاريخ لاستحالة تحقيق ذلك ، من الناحية السيكولوجية والفيزيقية . ولو كانت ثمة مراجعة تشريعية في الإسلام عبر الوقت ، كتلك الموجودة مثلاً ، في النظام الأمريكي لربما أُعلن أن تعدد الزوجات غير قانوني ، مثله مثل العبودية. إن النظام الأمريكي يصدر أحكامه الخاصة بالإجهاض طبقاً لقراءته للدستور الأمريكي، على الرغم من أن الآباء المؤسسين ، الذين صاغوا هذا الدستور لم يخطر ببالهم مناقشة هذه القضية عند صياغة الدستور . لذا نجد أن القضاة والمحامين يختلفون فيما بينهم حول ما إذا كان الإجهاض يرتبط بالحرية الشخصية أم لا . وبالمغايرة يمكن النظر إلى العقيدة الإسلامية التي تقر زواج الرجل بأكثر من امرأة، على أن يساوي بينهن في المعاملة – وذلك بشكل يفوق وضوح أي نص في الدستور الأمريكي يتعامل مع قضية الإجهاض . لذا يمكن القول أن ذلك كان بمثابة تحريم يفرضه الواقع .

إن قضية الجنس Gender بحاجة إلى إعادة بحث ، فكثيراً ما سعى الإسلام إلى إحداث ثورة جنسية ، لكنها لم تتحقق حيث أجهض هذا المشروع لسببين : –

(أ) تحول التيار الأساسي للإسلام نحو الملكية بدءاً من عهد الأمويين فصاعداً ، وتطور ظاهرة الحريم ، حيث أصبحت أكثر عزلة مع تنامي التيار الأرستقراطي في الإسلام .

(ب) غلق باب الاجتهاد وإجهاض الثورة الجنسية Gender revolution .

ولا شك أن « مقرطة الإسلام » تختلف عن إضفاء طابع المساواة على الديمقراطية. وأعني بهذه الأخيرة بذل أقصى جهد لجعل القيم الإسلامية أكثر إتاحة للمجتمعات غير الإسلامية . وما زلت أذكر تجربة الحزب الإسلامي في بلدي كينيا، ذلك الحزب الذى لم تسمح الحكومة بإشهاره . فقد كان حزباً إسلامياً متميزاً ، حيث أقر بوضوح أنه ليس من الضروري أن يكون الفرد مسلماً لكي يكون عضواً بالحزب أو مؤيداً له أو حتى موظفاً يعمل فيه ، فالشرط الوحيد

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Dennis J . Horan etal , eds , Abortion and the constitution : Reversing Roev . wade throught the courts (washington , DC : georgetown University Press , 1987) : and Alida Brill , Nobody's Business : paradoxes of Privacy (Raeding , MA : Addison - wesley , 1990) .

هو قبول القيم الإسلامية التي أقرها الحزب . كأساس لبرنامجه . لذا لم يكن هذا الحزب حزباً لمعشر المسلمين ، بل كان حزباً للقيم الإسلامية . فليتم العضو إلى أي دين شاء ، طالما أن قيمه تتسق مع القيم الإسلامية التي يلتزم بها الحزب .

فالإسلام بقيمه ، يستطيع على سبيل المثال ، الحد من ظاهرة الإدمان وتعاطى المخدرات - وهما خطران أساسيان يتهددان الديمقراطية الغربية . لما يسببانه من فوضى وعدم نظام وتمرد . ونظراً لأن النزعة الفردية ، وما يترتب عليها من حرية فردية ، هي التيار السائد في المجتمع الغربي ، يصعب على الدولة التعدى على حقوق الأفراد ، حتى لو شكل هؤلاء الأفراد خطراً على أنفسهم أو على الآخرين[١] . فهل يستطيع الإسلام أن يقدم للغرب وسائل من الاعتدال تساعد في التقليل من هذا الخطر ؟

وفيما يتعلق بعولمة الديمقراطية نجد أن الإسلام كان أول الأديان التي نادت بالعالمية . فالصلاة خمس مرات في اليوم الواحد ، والتوجه إلى قبلة واحدة ، أينما كانوا ، تعد دليلاً على العالمية ، كما أن مفهوم الأمة ذلك المفهوم الذي يتمسك به بليون مسلم عبر أرجاء المعمورة يعد ، أيضاً ، دليلاً على العالمية الإسلامية . خذ أيضاً مكة المكرمة ، قبلة الحجاج ، التي يسعى كل مسلم إلى أن يحج إليها ، ولو مرة واحدة طوال حياته ، إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فهذا أيضاً يعد جزءاً من العالمية . فهل يساعد ذلك في جعل الديمقراطية ظاهرة عالمية؟ .

ألا يملك الإسلام الكثير من القيم التي تساعد على تحقيق المساواة ، ومقاومة العنصرية ؟ إذ ليس كافياً أن نكون ليبراليين أو رأسماليين ، بل نحن بحاجة إلى مستويات أكثر من المساواة ، بما في ذلك المساواة العرقية ، تلك المساواة التي بدأها الإسلام في المسجد الذي جمع كل البشر بمؤذنه سيدنا بلال . لكن المسيحية ، على الجانب الآخر ، تعاني من مشكلات كبرى ، تتصل بالتفرقة العنصرية ، ولم يكن - غريباً - من ثم، عندما أعلن جيمي كارتر خلال فترة رئاسته، أن الكنيسة مازالت تمنع دخول الأفارقة الأمريكان، وكانت هناك كنائس للبيض فقط في عهد كارتر !

---

(١) بشر أحد الفلاسفة الفرنسيين المحافظين بعواقب وخيمة على الديموقراطية الغربية من جراء التحديات الموروثة التي تفرضها الحرية الفردية ، انظر :

Jean - François Revel , How Democracies Pesish , Trans , William Bron (Garden City : Doubleday , 1984) .

كما كانت الكنيسة الهولندية إحدى ركائز التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا . نخلص من ذلك إلى أن الإسلام يحتوي على آفاق من المساواة يجب على الغرب أن يمعن النظر فيها ، لا ليعتنق الدين الإسلامي ، بل ليتعلم من القيم الإسلامية.

● **خاتمة :**

« ربما يكون المستقبل « ما بعد غربي » ، وربما يكون « معادياً للغرب »
لكنه لا يمكن أن يكون « غير غربي » [(١)] » . بيتر ف . درونكر .

ألا يجب على المسلمين - من ثم أن يواجهوا هذا التحدي ؟ وهل يستطيعون ذلك ؟ لقد ركزت المناقشات الخاصة بـ « نهاية التاريخ » على قوة الغرب ، مفترضة ضعف بقية أجزاء العالم . وعلى الرغم من إن الإسلام لم يكن ، خلال القرن العشرين ، تربة خصبة لنمو الديمقراطية ، فإن هذه التربة لم تنبت أبشع المساوئ التى ظهرت عبر هذا القرن ، من نازية ، وفاشية ، وشيوعية ، ومذابح عرقية . تلك المساوئ التى ظهرت ، وأينعت في مجتمعات مسيحية أو بوذية أو كونفوشيوسية . ودائماً ما يكون المسلمون عرضة للانتقاد لأنهم لا يأتون بالأفضل لكن أحداً لم يشد بنماذج السلوك الإنساني التى قدموها ، وجنبتهم اسوأ ما في السلوك الإنساني من نماذج . إن الإسلام لم يشهد ما يشبه معسكرات الاعتقال النازية ، أو المحاكم العرقية الأمريكية الظالمة ، أو تفرقة عنصرية كالتي مارستها الكنيسة الهولندية ، كما لم يشهد تفرقة عنصرية كالتي شهدها اليابان قبل ، وخلال الحرب العالمية الثانية أو مذابح كالتي تمت في عهد ستالين أو بول بوت ، فهل يوجد في الإسلام ما ينتهك الكرامة ، والإنسانية إلى هذا الحد ؟ .

وإذا كان انتصار الديمقراطية الليبرالية قد تطلب انهيار الشيوعية ، فدعنا نتذكر قضية كنت قد أثرتها فيما سبق وهي : إن سقوط الشيوعية تطلب مقاومة الإسلام، لقد انتصرت الشيوعية بشكل لافت في أقطار مسيحية ، مثل روسيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبلدان بوذية مثل فيتنام ، وكوريا ، وإلى حد ما في الصين ، ذلك البلد الكونفوشيوسي ، لكن الشيوعية لم تنتصر أبداً - بغض النظر عن

---

(١) - Peter Druches , Post - Capitalist Society (New York : 60 Harper Business , 1993) P . 214 .

الحالة الألبانية المشكوك فيها - في بلد إسلامي . كما شاهدنا الفاشية في ألمانيا المسيحية ، وفي إيطاليا ، وفي اليابان البوذية ، لكننا لم نر فاشية في العالم الإسلامي كما لم نشهد معسكرات اعتقال في الأمة الإسلامية .

يفترض فوكوياما أننا قد وصلنا إلى « نهاية التاريخ » لأننا اكتشفنا الأفضل ، لكنه نسي أننا بحاجة إلى معرفة كيف نحمي أنفسنا من الأسوأ . نحن نعرف أن الديمقراطية الليبرالية الغربية مكنتنا من معرفة المجتمع المفتوح ، ومساءلة الحكومة ، والمشاركة الشعبية ، والإنتاجية الاقتصادية العالية . لكننا نعرف أيضاً ، أن التعددية الغربية كانت تربة خصبة لنمو النزعات الفاشية والنازية والعرقية ، والاستغلال والنفعية والمذابح العنصرية . فلو كان التاريخ الذى يبحث عن نظامه السياسي المبتغي ، قد وصل إلى نهايته فإنه لن يقتنع بالرسالة التى يقدمها الغرب حولة كيفية تعظيم الجانب الأفضل من الطبيعة البشرية . بل يجب على هذا التاريخ أن يرجع إلي الإسلام كي يتعلم منه كيف يتخلص من نماذج السلوك السيئة في الطبيعة البشرية ، بدءاً من إدمان الكحوليات إلى الفاشية ، ومن المادية إلى النازية، ومن تعاطي المخدرات إلى اللينينية . لقد كان الإسلام هو الأكثر مقاومة ، من بين كل نظم القيم في العالم ، لا يشع القوى التدميرية التى ظهرت خلال القرن العشرين ، وربما خلال تاريخ البشرية ، بما في ذلك مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) . والسؤال الجدير بالإثارة هنا هو : هل كان اقتراب هذه المجتمعات من الشريعة يحول دون انتشار هذا المرض ؟

إن نهاية التاريخ يجب أن تكون تزاوجاً بين أكثر من حضارة ، وتزاوجاً بين أكثر من معيار . فما زال المسلمون بحاجة إلى تجاوز مرحلة العصور الوسطى المتخلفة، حينما كانوا مفعولاً بهم ، في التاريخ . وأتمنى أن يستمر دورهم كفاعلين في صناعة التاريخ ، حيث يجب عليهم الاستمرار في تحقيق اهدافهم المحلية بما يسهم ، في الوقت نفسه ، في تعديل وضعهم على المستوى العالمي . ويبدو أن استئناف المسلمين لدورهم كصناع للتاريخ هو الأهم ، بالنسبة لهم جميعاً . ونتمنى أن يقترن ذلك بتوسع هائل في عصر ما بعد اللينينية إذ يجب علينا أن نبدأ ليس فقط في تولي زمام أمورنا بأيدينا ، بل نساعد ، في الوقت نفسه ، الجنس البشري في الانتقال إلى بر الأمان .

لقد كنا طوال معظم سنوات هذا القرن ، مجرد مسافرين على سفينة الحياة ، لا نعدُ وكوننا مجرد مسافرين مقيدين ، في معظم الأحيان ، بالأغلال ، لكن عبر مسيرة النصف الثاني من القرن العشرين بدأنا نصبح أعضاء في قيادة هذه السفينة ، وبدأنا في المشاركة في تحريكها ، وتوجيهها صوب مرساها النهائى ، والسؤال هنا: هل نحن في وضع يسمح لنا ، مرة أخرى ، أن نتولي زمام هذه السفينة ، وهل يتحقق لنا ذلك خلال العقد الحالي ، أم خلال العقد القادم ، أم أن الأمر سيطول أكثر من ذلك ؟ هل نحن في وضع يمكننا من أن نصبح ، نحن المسلمين ، القائد العام لهذه السفينة .

* * *

الفصل الثاني

الثقافة الإمبريالية لعلاقات الشمال بالجنوب

حالة الإسلام والغرب

الفصل الثاني

الثقافة الإمبريالية لعلاقات الشمال بالجنوب

حالة الإسلام والغرب

ترجمة : د . صبحي قنصوه (*)

● مقدمة ونظرة عامة :

خلال معظم النصف الأول من القرن العشرين ، كان ثلثا العالم الإسلامي على الأقل ، مرتبطاً بشكل رسمي بالإمبراطورية الجماعية للعالم الغربي ، وخلال معظم النصف الثاني من القرن العشرين ، كان معظم العالم الإسلامي داخلاً ، بشكل غير رسمي ، في إطار الإمبراطورية الجماعية للغرب . وخلال أعوام الإمبراطورية الرسمية (**) ، وخصوصاً بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية ، كانت الأقطار الإسلامية مستعمرات أو توابع لبلدان مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا، كما كانت روسيا ، بمعنى خاص ، إحدى القوى التي استعمرت بلاد المسلمين ، وفي الأعوام الأخيرة من الإمبريالية غير الرسمية ، احتلت الولايات المتحدة وضعاً مهيمناً بصورة بارزة ، مدعومة في ذلك بقوتين ، أو ثلاث ، من القوى الأوروبية الكبرى . وخلال أعوام الإمبراطورية الرسمية ، تعرض العالم الإسلامي لقدر كبير من التغريب الثقافي ، في القِيَم وطراز الملابس ونظم التعليم ونمط الحياة والاقتصاد . وفي المقابل بدأت في الغرب ، في الأعوام

(*) مدرس علوم سياسية بقسم النظم السياسية والاقتصادية معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة .

(**) يقصد بأعوام الإمبراطورية الرسمية تلك الحقبة التي هيمنت فيها القوى الغربية بشكل رسمي (معاهدات ، احتلال فعلي ، فرض الحماية ... إلخ) على مقدرات المجتمعات الإسلامية (المترجم).

الأخيرة ، عملية أسلمة سكانية ، حيث أصبح المسلمون على وشك التفوق عددياً على اليهود ، في الولايات المتحدة وفرنسا ، وربما في أوروبا الغربية كلها . ومع ذلك ، ورغم أن المسلمين قد يفوقون اليهود عدداً ، فهل سيمكنهم ذات يوم ، أن يغطوا على نفوذ اليهود ، في مدى يقل عن قرن من الزمان ؟

وإذا كان القرن العشرون هو قرن الحرب العالمية ، فهل هو أيضاً قرن الإمبراطورية العالمية ؟ ، لقد حاول البريطانيون إنشاء إمبراطورية عالمية بشكل رسمي ، من خلال مناطق شاسعة من الأرض لا تغيب عنها الشمس ، وتمتد من «كراتشي» إلى « كينجستون » ، ومن « مايدوجوري » في نيجيريا إلى « ميلبورن » في استراليا ، ومن « كويبيك » إلى « كوالالامبور » ، إلا أنه رغم أن محاولة البريطانيين إقامة إمبراطورية رسمية كانت مثيرة ، فإنها قد عجزت عن أن تشمل العالم كله، أما إمبراطورية الولايات المتحدة غير الرسمية، فهي التي تقترب، بدرجة أكبر بكثير ، من النطاق العالمي الحقيقي ، غير أن الولايات المتحدة لا تعمل بمفردها ، فهي قوة إمبريالية عالمية ، تعاونها قوى إمبريالية فرعية ، أي بريطانيا وفرنسا في الشئون السياسية العالمية ، وألمانيا واليابان في الشئون الاقتصادية العالمية .

ويدور هذا الفصل حول العلاقات الإمبريالية غير الرسمية ، بين نظام الهيمنة الغربية والعالم الإسلامي ، فقد قام الغرب ، خلال الحرب الباردة ، بتقسيم العالم بحكم الواقع ، إلى دار الحرب (وبعبارة أخرى العالم الشيوعي) ، ودار المغرب (أو دار الغرب) ، ودار الصلح ، أو دار العهد (أو دار التوابع ، أي العالم الإسلامي ومعظم باقي العالم الثالث) ، كذلك ، فقد استخدم الغرب الأمم المتحدة كأداة من أدواته في التعامل ، وتحولت إمبراطوريته غير الرسمية لتصبح عالمية في الواقع ؛ وخلال هذا القرن ، قرن الإمبراطورية العالمية ، لم تكن الأطراف فقط متعددة القوميات ، ولكن القلب الإمبريالي أيضاً ، أصبح متعدد القوميات ، ومن هنا ، فإن هيمنة الغرب ، متعدد القوميات ، على العالم الإسلامي ، متعدد القوميات ، تعتبر حالة خاصة في علاقات الشمال بالجنوب .

وخلال النصف الثاني من القرن العشرين ، فإن أية مناقشة حول الآثار التي خلفتها الإمبراطوريات ، لن تكون كاملة ، دون مناقشة دور نظام الأمم المتحدة ، فالتقدم بطلب للعضوية في الأمم المتحدة ، كان واحداً من الأفعال الأولى المعبرة عن السيادة ، فيما بعد الاستعمار ، إلا أنه مع ذلك ، فإن الأمم المتحدة نفسها

جزء من آليات « السلام الغربي » Pax Occidental ، أي المظلة الإمبريالية الغربية ، ويدور هذا الفصل ، جزئياً ، حول دور الأمم المتحدة في إعادة تشكل القوة الإمبريالية الغربية .

ويجدر هنا أيضاً التمييز بين « إعادة التشكل الإمبريالي » Imperial Recon-stitution ، والتناسخ الإمبريالي Imperial Reincarnation ، فإعادة التشكل الإمبريالي تتضمن انبعاثاً ، كلياً أو جزئياً ، لنفس القوة الإمبريالية التي فقدت وضعها مؤخراً ، أما التناسخ الإمبريالي ، من جهة أخرى ، فهو تناسخ متصور لـ« روح» الإمبراطورية من مركز إلى مركز آخر ، عادة ما يكون ذا قرابة ؛ فخلال حكم « هارولد ماكميلان » ، رئيس الوزراء البريطاني ، أعلن « دين أشيسون » ، في الولايات المتحدة ، أن « بريطانيا قد فقدت إمبراطوريتها ، ولم تجد لها دوراً »، ورداً على ذلك ، وجد رئيس الوزراء البريطاني ، الذي استفز إلى حد ما ، نفسه مضطراً إلى أن يؤكد للشعب البريطاني أن بريطانيا عظيمة وستظل عظيمة .

ولكن ، هل كانت بريطانيا في سبيلها لأن تجد لها « دوراً » ؟ ، في الواقع ، فإن الدور الجديد لبريطانيا كان التعلق ، من الخلف ، بمناكب الهيمنة الأمريكية ، وأصبحت بريطانيا مجرد « معاون » في الإمبراطورية غير الرسمية للولايات المتحدة، وقد وصف « هارولد ماكميلان » ، وهو « كلاسيكي » بحكم تعليمه ، هذا الوضع بأن بريطانيا « تذلل الإغريق للرومان الأمريكيين » ، وبعبارة أخرى ، فإن بريطانيا أصبح عليها أن تذلل الصعاب من أجل قوة راعي البقر الأمريكي ، فهل تناسخت روح الإمبريالية الإنجليزية من السلام البريطاني Pax Britanica إلى السلام الأمريكي Pax Americana ؟ ، فخلال أزمة السويس ، (١٩٥٦م)، كانت بريطانيا والولايات المتحدة على جانبين متعارضين سياسياً ، وقد حدثت أزمة السويس قبل أن يصبح « هارولد ماكميلان » رئيساً لوزراء بريطانيا ، ومنذ ذلك الحين أصبحت بريطانيا ، إجمالاً ، متعلقة إلى حد كبير ، بظهر الإمبراطورية غير الرسمية للولايات المتحدة ، وبذلك يكون لدينا مثال للتناسخ الإمبريالي .

لقد تم تشجيع فكرة العلاقة الخاصة بين البلدين ، وخاصة من جانب لندن ، ورغم أن بريطانيا لم تتخل كلية عن استقلالها الدبلوماسي في تعاملاتها مع العالم الإسلامي ، إلا أن حجر الزاوية في السياسة البريطانية أصبح تأييد الأهداف الأمريكية إلى أقصى حد ممكن ، وتضمن ذلك :

اتباع سياسات مؤيدة للعراق خلال الحرب العراقية الإيرانية ، وسياسات معادية للعراق في التسعينيات ، وتدعيم القرارات الأمريكية ، السياسية والعسكرية ، فيما يتعلق بليبيا ، وإخلاص لا يهتز لإصرار الولايات المتحدة على استمرار عقوبات الأمم المتحدة على العراق ، والتي مر عليها وقت طويل منذ انتهاء عملية « عاصفة الصحراء » ، وقد استخدمت القوتان الأنجلو ساكسونيتان ، كلتاهما ، الأمم المتحدة لإضفاء الشرعية على تناسخ السلام البريطاني إلى سلام أمريكي ، ومن ثم فإنه حتى في بلدان السلام البريطاني الإسلامية ، التي كانت بريطانيا تحكمها فيما مضى كمصر والسودان وباكستان وغيرها ، فقد رضيت لندن أن يكون لها دور ثانوي فيها بالنسبة « لواشنطن »، وعندما أوقفت الولايات المتحدة عضويتها في اليونسكو، التي كان يبدو في الظاهر أن المسلمين يسيطرون عليها ، فقد تبعتها بريطانيا خاضعة .

إن عولمة الإمبراطورية الذي حاول البريطانيون تحقيقها بالمعنى الرسمي ، قد حققها الأمريكيون إلى حد أبعد من ذلك ، بشكل غير رسمي ، وذلك بفرض عقوبات على الخارجين عليها ، وبذلك حدث تناسخ للروح الاستعمارية ؛ وفي قرن الإمبراطورية العالمية ، أصبح مصطلح « المجتمع العالمي » أو « المجتمع الدولي» يستخدم ليعني الولايات المتحدة وحلفاءها الأقربين ، وعلى حد تعبير « صامويل هنتنجتون » ، فإن :

« المشكلات الأمنية والسياسية العالمية يتم تسويتها بصورة فعالة من خلال إدارة تضم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، والمشكلات الاقتصادية العالمية عن طريق إدارة تضم الولايات المتحدة وألمانيا واليابان ، وكل منها تحتفظ بعلاقات وثيقة ، بصورة غير عادية ، مع بعضها البعض ، مع استبعاد البلدان الأصغر ، وهي بلدان غير غربية في معظمها ، ففي مجلس الأمن الدولي ، أو في صندوق النقد الدولي، تتخذ القرارات التي تعكس مصالح الغرب ، وتقدم إلى العالم على أنها رغبات المجتمع الدولي ، ومن ثم ، فإن عبارة « المجتمع العالمي » ذاتها قد أصبحت أسماً كلياً مهذباً - بدلاً من عبارة « العالم الحر » - ، لإضفاء شرعية عالمية على الأفعال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى » [١] .

ويستطرد « هنتنجتون » مبيناً كيف استخدم الغرب مجلس الأمن الدولي ، لفرض

(١) Samuel P . Huntington , " The Clash of Civilizations ? " Foreign Affairs 72 , no . 3 (1993) : 39 .

عقوبات على البلدان الإسلامية ، والمطالبة باستخدام القوة ضدها ، فبعد احتلال العراق للكويت ، كان على الغرب أن يختار بين عدم تضييع الوقت أو عدم إزهاق الأرواح ، وقد اختار الغرب عدم تضييع الوقت ، وبعبارة « صامويل هنتنجتون » فإن :

« السيطرة الغربية على مجلس الأمن الدولي وقراراته ، والتي يخفف منها فقط امتناع الصين عن التصويت من حين لآخر ، قد أدت إلى إضفاء شرعية من جانب الأمم المتحدة ، على قيام الغرب باستخدام القوة لإخراج العراق من الكويت ، وتدمير أسلحة العراق المتطورة ، كما أنها أدت أيضاً إلى عمل غير مسبوق بالمرة، من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، عندما جعلت مجلس الأمن يطالب ليبيا بتسليم المتهمين بتفجير طائرة الـ « بان أميركان ١٣٠ » ، وعندما رفضت ليبيا، قام بفرض عقوبات عليها » (١) .

ويتفق هذا الفصل مع هنتنجتون بأن هناك صداماً بين الحضارات في العالم ، ولكن يختلف معه حول طبيعة هذا الصراع وإطاره الزمني ، فصراع الحضارات لم يبدأ مع نهاية الحرب الباردة ، ولكنه بدأ قبل ذلك بكثير ، كما كان العالم الغربي هو المعتدي الثقافي الرئيسي ، وكان العالم الإسلامي من بين ضحايا العدوان الثقافي الغربي ، ويهتم هذا الفصل ، جزئياً ، بالآثار التي خلفها هذا العدوان الغربي .

● بين فض الارتباط والاستعمار الذاتي :

في نفس الوقت الذي ربط فيه البريطانيون أنفسهم بالسلام الأمريكي ، فقد حاولوا بقوة أكبر ، فض ارتباطهم بالسلام البريطاني الرسمي ، واختاروا أن يكون لهم دور قيادي من الدرجة الثانية ، في الإمبراطورية الأمريكية غير الرسمية ، وفككوا ، بصورة حاسمة ، إمبراطوريتهم الرسمية ، ومن ثم ، فإن بريطانيا - مقارنة بفرنسا - قد فضت ، أكثر من اللازم ، ارتباطها بإمبراطوريتها الرسمية ، وتحملت قدراً ضئيلاً من المسئولية ، تجاه ما حدث في مستعمراتها السابقة منذ يوم الاستقلال .

وكان العالم الإسلامي من بين أولئك الذين تأثروا بفض الارتباط البريطاني الزائد عن الحد ، ففي عام (١٩٦٤م) ، وبعد أيام معدودة من الاستقلال ، انفجرت

---

(١) Ibid . Quotation on p . 40 .

ثورة اجتماعية في « زنجبار » ، ولم تفعل بريطانيا شيئاً تقريباً من أجل التدخل ، اللهم سوى منح اللجوء السياسي للسلطان المعزول ؛ كذلك ، فقد اندلعت حرب أهلية في « السودان »، بين الشمال المسلم والجنوب غير المسلم، في عام (١٩٥٥م)، مع اقتراب الحكم البريطاني من نهايته ، واستمرت الحرب حتى عام (١٩٧٢م) ، عندما تم التوقيع على اتفاق « أديس أبابا » ، وكانت هذه هي الحرب الأهلية السودانية الأولى ، وكان من الممكن إنهاؤها بسرعة أكبر كثيراً ، لو أن بريطانيا بذلت جهوداً أشد عزماً ؛ كما اندلعت حرب أهلية في « نيجيريا » بعد استقلالها بستة أعوام ، وكان من الممكن تجنب هذه الحرب ، إذا قامت بريطانيا بتدخل سياسي أشد قوة ، في الأحداث التي أدت إليها ، وقد أدت الحرب الأهلية النيجيرية إلى مصرع (٧٥٠) ألف نسمة ؛ وهناك مستعمرات بريطانية سابقة أخرى في إفريقيا ، شهدت أيضاً صراعات مريرة منذ الاستقلال ، وتشمل « أوغندا » و«سيراليون» والبلدان التي كان يسيطر عليها المستوطنون البيض في « جنوب إفريقيا» و« روديسيا » (زيمبابوي)، وبينما أدت الصراعات الأهلية بعد الاستقلال في إفريقيا البريطانية ، سابقاً ، إلى مصرع ما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين نسمة، فقد كانت الخسائر في إفريقيا الفرنسية ، سابقاً ، في حدود مئات الآلاف ، في «تشاد» بشكل رئيسي .

فقد تمت تصفية الاستعمار في الإمبراطورية الفرنسية السابقة ، من خلال مراحل أكثر وضوحاً ، وتضمنت أول مرحلة كبرى ، منح الاستقلال السياسي الاسمي في الستينيات ، دون استقلال اقتصادي أو نقدي ، وفيما عدا « غينيا » (كوناكري)، فقد ظلت فرنسا تسيطر على اقتصاديات مستعمراتها السابقة ، ولكنها قدمت لها العون أيضاً من خلال دعم عملاتها المحلية بالفرنك الفرنسي ، وتقديم المساعدات لميزانياتها عند الضرورة ، كما تمركزت قوات فرنسية في إفريقيا ، ولم تكن هذه القوات على درجة من الصغر ، بحيث لا تستطيع تدبير انقلاب ضد الحكام الذين لم تكن « باريس » راضية عنهم ، أو منع انقلاب ضد الحكام الذين كانوا محلاً لرضاها .

لقد كان استعداد فرنسا للتدخل عسكرياً ، له أثره المفيد ، بالتأكيد ، في تحقيق الاستقرار في مستعمراتها السابقة ، على الأقل بالنسبة إلى نظيراتها الناطقة بالإنجليزية ، ورغم أن المستعمرات الفرنسية السابقة ، لم تكن بمنأى عن الانقلابات العسكرية بالضرورة ، فإنها تبدو أقل ميلاً للحروب الأهلية السافرة .

وفي عام (١٩٦٤م) ، استجابت بريطانيا بالفعل للطلبات المكتوبة التي قدمتها حكومات « أوغندا » و« كينيا » و« تنجانيقا » ، وذلك بإرسال قواتها لنزع سلاح الجنود الأفارقة المتمردين ، وقد أنجزت القوات البريطانية هذه المهمة ، دون أن تطلق رصاصة واحدة، ولكن هذا التدخل البريطاني ضد المتمردين (وهم غير مدبري الانقلابات)، بناء على طلب ثلاث من حكومات دول شرق إفريقيا ، يبدو استثناءاً بارزاً في سياق السياسة البريطانية ، فمنذ هذا الموقف ، اتبعت بريطانيا سياسة مدروسة تقوم على فض الارتباط السياسي والعسكري ، كلية تقريباً ، بمستعمراتها السابقة ، وفي معظم الحالات ، فقد ترجم ذلك إلى سياسة من فض الارتباط الزائد عن الحد وغير المسئول، إزاء عواقب الاستعمار البريطاني في هذه المجتمعات.

وعلى النقيض من عدم الاهتمام المدروس بإفريقيا ما بعد الاستعمار ، فقد تعلقت بريطانيا بعربة السلام الأمريكي ، وتحاول القيام بدور قيادي من الدرجة الثانية ، داخل نطاق السيطرة العالمية غير الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية ، فهل ترجع جذور هذه الروابط التي تربط بريطانيا والولايات المتحدة ، إلى الثقافة والحضارة المشتركة ؟

أما بالنسبة للنموذج الفرنسي فيما بعد الاستعمار ، فإنه يثير تساؤلات مختلفة ، فقد ظلت المستعمرات الفرنسية السابقة على علاقة تبعية بفرنسا ، حتى بعد أن أصبحت ظاهرياً مستقلة سياسياً ، فهل يمكن أن نسمي ذلك نوعاً من الاستعمار التلقائي ؟ .

لقد استخدم مفهوم الاستعمار التلقائي Autocolonization ، للإشارة إلى علاقة سياسية ، تدخل فيها قوة مهيمنة من نصف الكرة الشمالي ، ومن ثم ، يتضمن هذا المفهوم ، في جوهره ، قبول بلد أصغر للهيمنة الإمبريالية من جانب قوة أكبر ، ويرتبط هذا المفهوم ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم أخرى أقدم منه ، ولها ارتباطات منطقية به .

أحد هذه المفاهيم القديمة هو مفهوم « الإمبراطورية بالدعوة » Empire by Invitation ، والذي استخدم للإشارة إلى الحماية العسكرية الأمريكية لأوروبا الغربية، بعد الحرب العالمية الثانية ، وما أعقب ذلك من تغلغل اقتصادي أمريكي في أوروبا؛ وفي العالم العربي ، ومن منظور إسلامي ، يمكن أن يستخدم هذا المفهوم للإشارة إلى دور سوريا في لبنان، وهو نوع «من السلام السوري» Pax Syriana

مفهوم آخر قديم وله صلة بالاستعمار التلقائي ، وهو مفهوم « الحماية » Protec-tion الرسمي ، وفيه تبحث دولة أضعف ، أو تجبر على قبول ، المظلة الحمائية لقوة مهيمنة معينة ، وأحياناً ، تنتقل هذه المظلة من قوة إلى أخرى ، ففي القرن التاسع عشر ، وفي أعقاب تمرد ضد الإمبراطورية العثمانية ، أصبحت «مولدافيا» و« والاشيا » محميتين روسيتين عام (١٨٢٩م) ، ثم خضعتا لحماية دولية أوسع عام (١٨٥٦م) ، واتحدتا عام (١٨٧٨م) ، لتكوين دولة ذات سيادة ، هي «رومانيا»؛ وفي النصف الأول من القرن العشرين ، استخدم البريطانيون مفهوم الحماية للتغلب على منافسيهم الأوروبيين ، فمثلاً ، استطاع البريطانيون من خلال عقد اتفاقية « أوغندا » عام (١٩٠٠م) ، إقناع « كاباكا البوجندا » بطلب الحماية البريطانية ، وبذلك أبعدوا الفرنسيين عن معظم شرق إفريقيا ؛ وفي العالم الإسلامي ، أقنع البريطانيون سلطان زنجبار بطلب الحماية البريطانية للسلطنة ذاتها، وأملاكها الساحلية في كينيا الحالية ؛ وفي كل هذه المواقف ، طلبت الدول الأضعف ، ولو نظرياً على الأقل ، حماية دول أقوى ، كما كانت سلطنة عمان محمية بريطانية ، ولكن بشكل غير رسمي بدرجة أكبر .

المفهوم الثالث المرتبط بالاستعمار التلقائي ، هو ظاهرة « الاستعمار بالرضا » Colonialism by Consent ، وأكثر نماذجه إثارة ، كان استفتاء (١٩٥٨م) ، الذي تبناه الرئيس شارل ديجول في الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا ، وأعطى الاستفتاء للمستعمرات الاختيار بين الاستقلال والسيادة ، أو استمرار الروابط الاستعمارية مع فرنسا ، وكانت المستعمرة الوحيدة التي واتتها الشجاعة للتصويت من أجل الاستقلال الكامل ، هي غينيا المسلمة ، والأكثر راديكالية تحت قيادة «سيكوتوري» ، فهل صوتت المستعمرات الأخرى من أجل الاستعمار الذاتي ؟ لقد كان لهذا الاتفاق العام على استمرار التبعية ، دلالاته بالنسبة لعلاقة فرنسا بإفريقيا، خلال ما تبقى من القرن العشرين ، حتى بعد أن أصبحت المستعمرات السابقة مستقلة اسمياً ، بدءاً من عام (١٩٦٠م) .

والمفهوم الرابع ذي الصلة بالاستعمار التلقائي ، هو مفهومي الخاص حول «استعمار النفس» Self - Colonization ، والذي قدمته عامي (١٩٩٣م،

و١٩٩٤م) [١] ، واستعمار النفس في رأيي هو ظاهرة جنوبية - جنوبية ، حيث تقوم الأطراف باستعمار الأطراف ؛ ففي آسيا الإسلامية ، يمكن أن تشمل أمثلة استعمار النفس ،. قيام « أندونيسيا » بضم « تيمور الشرقية » ، وفي إفريقيا الإسلامية ، تشمل الأمثلة ليس فقط محاولة المغرب ضم « الصحراء الغربية » ، ولكن أيضاً إدماج « زنجبار » في جمهورية « تنزانيا المتحدة » عام (١٩٦٤م) ، ومن ثم ، وبأي حال كانت، فقد ضمت « زنجبار » إلى « تنجانيقا »، لإنشاء تنزانيا .

والمفهوم الخامس المرتبط بالاستعمار التلقائي ، هو ظاهرة « التبعية الاقتصادية » الاختيارية في مجملها ، حيث سلمت معظم حكومات العالم الثالث ، بعلاقات تبعية اقتصادية مع نصف الكرة الشمالي ، كما أذعنت معظم الحكومات الإسلامية بالتأكيد للإمبريالية الاقتصادية ، وهناك وفرة زائدة فيما كتب حول التبعية الاقتصادية ، ويجب علينا أن نتساءل : هل هذا استعمار تلقائي اقتصادي ؟ أم أنه شكل جديد من المشاركة في عالم رأسمالي أوسع ؟ ، ربما يكون كلاهما في الواقع، ولكن رغم ذلك ، فإن هذا كناية عن اتفاق « فاوست » مع الشيطان .

● عالم سياسي ثلاثي الأجزاء .

في صيف (١٩٩٣م) ، أطلق « صامويل هنتنجتون » العنان للجدل حول طبيعة الصراع في عصر ما بعد الحرب الباردة ، حيث ذهب إلى أن نهاية الحرب الباردة معناها أن الصراعات المستقبلية لن تكون أساساً بين دول أو كتل أيديولوجية ، ولكنها ، بالأحرى ، ستكون بين الحضارات والتجمعات الثقافية ، وحسب تعبيره فإن [٢] :

« خطوط الخلاف بين الحضارات ، ستكون هي خطوط القتال في المستقبل ، وسوف يكون الصراع بين الحضارات ، هو الطور الأخير في تطور الصراع في العالم الحديث » [٣] .

---

(١) Ali A . Mazrui , " Decaying Parts of Africa Need Benign Colonization " International Herald Tribune (Paris) , August 4 , 1994 .

(٢) Huntington , " The Clash of Civilizations " Responses by Fouad Ajami , Mahbubani , Robert L . Bartley . Liu Binyan , and Jeane J . Kishore Kirkpartick , among others , were published in the next issue : Foreign Affairs 72 , no . 4 (1993) : 2 - 22 .

(٣) Huntington , " The Clash of Civilizations . " Quotation on p . 22 .

لقد أحسن « هنتنجتون » صنعاً ، عندما ناقش تنكر الغرب تحت مسمى «المجتمع العالمي » ، وكيف يستخدم الأمم المتحدة لتقديم أوراق اعتماد عالمية للمصالح الغربية .

فطبقاً لرأي « هنتنجتون » ، فإن عالمية الأمم المتحدة ليست كما يبدو في الظاهر، حيث أصبحت بمثابة ورقة التوت التي تستر الأعمال الإمبريالية الغربية ، وإذا كان نطق الشهادة ، بقول : « لا إله إلا الله » ، يعتبر واجباً لكي يصبح معتنق الإسلام عضواً من أعضاء الأمة (أي جماعة الإسلام العالمية) ، فإنه يبدو أنه لكي تصبح الدول أعضاء ، في وضع جيد ، في الأمم المتحدة ، فإن عليها جميعاً أن تقر بأنه « لا إله سياسياً إلا الغرب » ، فالغرب وحده ، له الحق في أن يقرر متى وكيف يجب استخدام القوة في السياسة العالمية .

فهناك دليل الآن على أن ليبيا ، ربما لا تكون هي المسئولة عن كارثة الطائرة الأمريكية ، فوق لوكيربي بأوسكتلندا ، وأن بعض بلدان الشرق الأوسط الأخرى، قد تكون هي المسئولة عن ذلك ، ورغم ذلك لم ترفع العقوبات عن ليبيا ، حيث لا تقبل واشنطن ولندن وباريس التراجع عن موقفها ، حتى ولو أدى ذلك إلى الظلم [١] ، وهنا ، فإن صلافة القوة تعمل عملها مرة أخرى .

لقد حدث شيء غريب في أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث أخذ الغرب ، دون وعي تماماً ، برؤية إسلامية قديمة للعالم ، قسم فيها الفقهاء

---

(١) من أمثلة الدراسات التى أشارت إلى العديد من المشتبه فيهم بشأن « حادثة لوكيربى » استناداً إلى التحقيقات انظر:

David Leppard , on the Trail of Terror : Inside Story of The Lockerbie Investigation (London : Jonathan Cape 1991) .

وعلى الرغم من أن « ليبارد » يؤكد صلة ليبيا بالحادث ، فإنه يشير أيضاً إلى احتمال تورط إيران ، وسوريا فى الفصل الأخير ، وحول العقوبات المفروضة على ليبيا انظر هامش ١٥ في :

Vera GOWLL and - Debbas , " The Relationship Between the Lockerbie Case " , international court of Justice and security Council in the Light of the American Journal of International Law 88 (October 1994) .

وانظر أيضاً :

" Security Council Extends Libya Sanctions " , New York Times , March 31 , 1995) , SecA .

المسلمون الأقدمون العالم إلى ثلاثة أجزاء ، وهي : دار الإسلام ، ودار الحرب ، ودار الصلح (أو دار التعايش السلمي ، أو السلام التعاقدي) [٢] ، وهذا القسم الأخير ، كان الإمبراطورية غير الرسمية للمسلمين .

ففي دار الإسلام ، كان من المفترض أن يسود الود والتعاون طبقاً للمبادئ الإسلامية، وكان من المفترض أن تكون الغلبة للسلام الإسلامي **Pax Islamica**، وكانت دار الإسلام تشمل المسلمين وغير المسلمين من الطوائف المسموح بها ، (وهم « أهل الكتاب » والذميين) ، والتي كانت تتمتع بحماية الدولة ضد عدم الأمن الداخلي والعدوان الخارجي [٢] .

أما دار الحرب ، فلم تكن بالضرورة ميداناً للمواجهات العسكرية المباشرة ، ولكن كانت تضم أراضي غير المسلمين ، المعادين للإسلام غالباً ، وهو ما يماثل ذلك الوضع الذي وصفه « توماس هوبز » ، بعد ذلك بكثير ، بأنه حالة عدم وجود صاحب سيادة واحد [٣] ، وقد وضع الفقهاء المسلمون مفهوم دار الحرب ، أو حالة الحرب ، اعترافاً بالسلطات القائمة في البلدان التي لا تسلم بأن السيادة لله، وكما يقول « مجيد خدوري » ، فإن :

« اعتراف الإسلام بالسيادات غير الإسلامية ، كان معناه فقط ، أن وجود شكل من أشكال السلطة يعتبر ضرورياً ، بطبيعة الأشياء ، لبقاء النوع البشري ، حتى إذا كان الناس يعيشون في أراض في حالة الطبيعة ، خارج حظيرة النظام الإسلامي العام » [٤] .

وأما بلدان دار الصلح ، (أي دار السلام التعاقدي أو التعايش السلمي) ،

---

(١) اعتمدت الدراسة في هذا المقام على مقدمة « مجيد خدوري » لترجمته لكتاب قانون الأمم الإسلامي : السير للشيباني » .

Majid Khadduri's , The Islamic Law of Nations : Shaybani's Siyar (Baltimore : Johns Hopkins University Press , 1966) pp 11 - 13

وذلك على الرغم من ميله إلى تأكيد التقسيم الثنائي ما بين دار السلام ، ودار الحرب .

(٢) I bid , . pp 11 - 12 .

(٣) يشرح هوبز هذه الحاله في كتابه « التنين » ، انظر الطبعة الحديثه له في :

Thomas Hobbes , Leviathan : With Selected Varionts from the latin Edition of 1668 , ed . Edwin Curley (Indianapolis : Hackett , 1994) .

(٤) Khadduri , op . cit , p . 13 .

فكانت بلداناً غير إسلامية ، تفاوضت مع الحكام المسلمين ، من أجل سلام واستقلال ذاتي أكبر ، في مقابل نوع ما من أنواع الجزية ، أو الضريبة الجماعية ، التي يتم دفعها للخزانة الإسلامية ، ومن ثم ، كانت العلاقة نوعاً من الإمبريالية الجديدة ؛ ولم يعترف جميع الفقهاء المسلمين بدار الصلح ، كفئة منفصلة ، حيث شعر بعضهم أنه « إذا أبرم سكان المنطقة معاهدة سلام ، وقاموا بدفع الجزية ، فإنها تصبح جزءاً من دار الإسلام ، ويصبح لأهلها الحق في التمتع بحماية الإسلام» [١] .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، أخذ الغرب بهذه الرؤية الإسلامية الثلاثية للعالم، ووضع نفسه ببساطة بديلاً للإسلام ، ومن ثم ، وبالنسبة لمعظم النصف الثاني من القرن العشرين ، وخلال فترة الحرب الباردة ، فقد كان العالم يضم الفئات الآتية:

- دار المغرب ، (أو دار الغرب) ، بدلاً من دار الإسلام .
- دار الحرب ، (وكانت العالم الشيوعي بالأساس) .
- دار الصلح ، (أو دار التعايش السلمي ، وكانت العالم الثالث) .

وكان العالم الثالث يدفع الجزية للغرب في صورة أعباء الديون وغيرها من أشكال الاستغلال الاقتصادي ، وهو ما يعتبر صورة حديثة للجزية التي كانت تدفعها بلدان دار الصلح للحكام المسلمين في العصور الوسطى .

ولكن هناك تحفظ كبير في حاجة إلى تأكيد ، وهو أنه رغم أن دار الحرب في العقيدة الغربية ، كانت العالم الشيوعي نظرياً ، فإنه من الناحية العملية ، حدثت جميع المعارك العسكرية للغرب تقريباً - خلال النصف الثاني من القرن العشرين - في العالم الثالث ، بما في ذلك العالم الإسلامي [٢] .

فالحرب الكورية كانت في العالم الثالث ، وإن لم تكن في العالم الإسلامي ،

---

(١) Ibid, pp. 12-13.

(٢) على الرغم من أن دارسي العلاقات الدولية يركزون على العلاقات الأمريكية - السوفيتية ، فإن البعض يشيرون إلى أن الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية مشكلاته الأساسية فى علاقاته الدولية مع دول العالم الثالث ، انظر أمثلة لذلك في :

Charles W . Maynes , " America's Third World Hang - ups, " Foreign Policy 71 (Summer , 1988) : 117 - 40 ; and Steven R . David , " Why the Third World Matters " , International Security 14 , no (1989) 50 - 85 .

ومن الصعب في حالة « كوريا » و« فيتنام » ، التمييز بين العالم الشيوعي والعالم الثالث، حيث هلك ملايين عديدة من البشر في الحروب التي قادتها أمريكا هناك، وفي كلتا الحالتين ، حاربت دول « حلف وارسو » و« حلف الأطلنطي » ، كل منهما الآخر ، من خلال وسطاء ، ولكن بالمفهوم العسكري ، لم يتعرض أي من أعضاء « حلف وارسو » للأذى بشكل مباشر ، ومن ثم فإن دار الحرب ، بالمعنى العقائدي ، ليست بالضرورة هي دار الحرب بالمعنى الحرفي ، فقد قامت الولايات المتحدة بتسليح نفسها ، حتى الأسنان ، لمحاربة العالم الثاني الشيوعي ، ولكنها استدارت إلى العالم الثالث ، بدلاً من ذلك ؛ وقد حدث الهجوم الغربي الكاسح في كوريا ، تحت علم الأمم المتحدة [١] .

وإذا كان من الصعب ، في كوريا أو فيتنام ، تحديد أين ينتهي العالم الثاني الشيوعي ، وأين يبدأ العالم الثالث ، فإن مثل هذا الغموض لا وجود له في العالم الإسلامي ؛ لأن الدول الإسلامية لم تعتنق الشيوعية [٢] ، ومع ذلك ، فإنه منذ عام (١٩٨٠م) ، قتل خمسمائة ألف مسلم ، على الأقل ، بالأسلحة الغربية ، بمن فيهم الليبيون والإيرانيون واللبنانيون والفلسطينيون والعراقيون ، وكأن الغرب قد غمرته السعادة ، في رده على التحديات السياسية الإسلامية .

ففي حرب الخليج عام (١٩٩١م) ، استخدم الغرب علم الأمم المتحدة ، ليضفي على نزعته العسكرية ، استنفاراً وشرعية عالمية [٣] ، وما زالت المعاناة الإنسانية

---

(١) حول دور الأمم المتحدة في الصراع الكورى ، راجع :

Leon Gordenker , The United Nations and the Peaceful Unifecation of Korea : The Politics of Field Operations , 1947 - 1950 (The Hague : M . Korea : Nijhoff , 1959)

وحول دور الولايات المتحدة الأمريكية على صعيد أزمة كوريا فى الأمم المتحدة راجع فى سبيل المثال :

Leland M . Goodrich , Korea : A Study of U . S . Policy in the United Nations (New York : Council on Foreign Relations , 1956) .

(٢) تعتبر البانيا دولة إسلامية من الناحية السكانية ، إلا أن العقيدة قد خضعت لقهر عنيف من جانب السلطات الشيوعية .

(٣) انظر على سبيل المثال :

Burns H . Weston , " Security Council Resolution 678 and Persian Gulf Decision Making : Precarious Legitimacy , " American Journal of International Law 85 (July 1991) : 516 - 35 .

تتزايد في العراق، نتيجة الحرمان الذي سببته العقوبات الاقتصادية « الأنجلو أمريكية» ، والتي أعطاها مجلس الأمن الدولي شرعية عالمية [١] ، كما زادت معدلات الوفيات بين الأطفال في العراق ، إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف منذ نهاية الحرب ، وتصاعدت معدلات الوفاة بين الأفراد العاديين بسبب الأمراض التي كان من الممكن الوقاية منها [٢] ، ومع ذلك ، ورغم التعجيز العسكري والجغرافي للعراق ، فما زالت قبضة « صدام حسين » على البلاد ، تبدو قوية لا تهتز [٣] .

إن السبب الظاهري للعقوبات ، هو التأكد من أن العراق لن يعيد بناء أسلحة الدمار الشامل ، ومع ذلك ، فإن كل عضو من أعضاء مجلس الأمن الدائمين ، يتميز بحب التملك فيما يتصل بأسلحة الدمار الشامل لديه ، كما أن العراق لم يجد بعد ضرورة في أن تصل به الغطرسة ، كفرنسا ، إلى حد تجريب أسلحة نووية على بعد آلاف الأميال من قلب أراضيه ، معرضاً بذلك للخطر سكان البلدان الأخرى ، وكان من بين الاحتجاجات التي قامت بها دول المحيط الهادي الضعيفة عسكرياً ، حول هذه القضية : مظاهرات الشوارع ، وخفض التمثيل الدبلوماسي ،

---

(١) حول موقف الولايات المتحدة من العقوبات المفروضة على العراق انظر :

Eric Rouleau , " Amirica's Unyielding Policy Toword Iraq " , Foreign Affairs 74 (January / February 1995) , pp 59 . 72 .

(٢) في الواقع وطبقا ، لإحدى الدراسات ، فإن معدل وفيات الأطفال قد أرتفع خمس مرات من نهاية الحرب في ١٩٩١ ، مودياً بحياة ٥٧٦,٠٠٠ طفل عراقي .انظر :

" Iraq Sanctions Kill Children , UN Reports , " New York Times , December , 1995 . Sec A .

(٣) من التقارير التى تنتقد العقوبات انظر الدراسة التحليلية :

Haris Gaydar and Jean Dreze , " Hunger and poverty in Iraq . 1991 " , World Developement 20 (July 1992) 921 - 45 .

وانظر :

Eric Hoskins , " Killing is killing - Not Kindness " , New Statesman and Society 5 (January 17 , 1992) pp 12 - 13 .

فعلى الرغم من التوتر الداخلي والاعتراضات المستمرة ، فإن « صدام حسين » لم يتأثر بالعقوبات كما أوضحت الدراسة التالية :

Steve Platt , " Sanctions , Don't Harm Saddam " , New Statsman and Society 7 (November 1994) p . 10 .

ومقاطعة البضائع الفرنسية ، كالخمور [1] ، كذلك فإن العراق لم يجد شريكاً من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن يمكن أن يقول له : « إن تخدش ظهري النووي، أخدش ظهرك » .

● الأمم المتحدة والثورة الثقافية المضادة :

الأمم المتحدة ، كمؤسسة يفترض أنها عالمية ، تمثل الدول والأقاليم ، ولكنها لم تحاول تمثيل الحضارات ، ومن ثم ، فإن خمسة من بين ستة من أمنائها العامين السابقين ، ينتمون إلى تقاليد مسيحية [2] ، ومع ذلك ، فإن العالم المسيحي يضم فقط حوالي خمس سكان العالم ، كما لم يكن هناك أمين عام هندوسي أو مسلم أو كونفوشيوسي ، رغم حقيقة أن هؤلاء ، معاً ، يفوقون المسيحيين ، من حيث عدد السكان ، بنسبة تزيد على اثنين إلى واحد ، وكان هناك أمين عام بوذي واحد، وهو يوثانت ، أي بوذي واحد وخمسة مسيحيين ، رغم أن عدد البوذيين في العالم ، ربما كان يساوي عدد المسيحيين [3] ، وهذه النسبة تثير السؤال الآتي : هل من الممكن أن يكون نظام الأمم المتحدة أكثر التفاتاً إلى التمثيل التناسبي للثقافات ؟ [4] .

ويرتبط بذلك سؤال آخر ، حول ما إذا كان حفظ السلام في المستقبل ، سوف يكون أكثر حساسية للحركات « الجيوثقافية » ، فالمنظمات الدولية « الجيوثقافية »، كمنظمة المؤتمر الإسلامي ، يمكن أن تكون لها صلة بالدبلوماسية الوقائية أو صنع السلام ، رغم أن جهود هذه المنظمة في الثمانينيات لإيقاف الصراع بين العراق

---

(١) طبقا لتقرير نشرته مجلة « نيويورك تايمز » فإن المنتجات الفرنسية قد فقدت العديد من الإسواق من جراء المقاطعة التي فرضت عليها اعتراضا على : الاختبارات النووية التى قامت بها فرنسا في المحيط الهادي ، ولم تقتصر تلك الخسارة على أسواقها في منطقة المحيط الهادي كاليابان ، واستراليا ، نيوزيلاندا ، ولكن شملت أيضا، هولندا ، أسكندنافيا ، ألمانيا . انظر :

New York Times , November 17 , 1995 , Sec A .

(٢) تولى منصب سكرتير عام الأمم المتحدة كل من : ترجيف لى ، داج همرشولد ، يوثانت ، كورت فالدهايم ، خافيير بيريز ديكولار ، بطرس غالى .

(٣) حول خلفيات الأمناء العامين . انظر :

Evan Luard , The United Nations : How it Works and What it Does (New York : St . Martin's 1994) , pp . 102 - 25 .

(٤) Brian Urquhart , " Selecting the World's CED , " Foreign Affairs 74 , no . 3 (1995) : pp . 21 - 26 .

وإيران لم تكن ناجحة بالقدر المطلوب [1] ، ومن جهة أخرى ، فإن الجهد الدءوب الذي قامت به مجموعة المراقبة ، التابعة للجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (ECOMOG) ، في ليبيريا ، يبدو أنها كانت أكثر نجاحاً نسبياً ، على الأقل حتى ربيع (١٩٩٦م) [2] .

وهناك سؤال آخر ، يتعلق بتدخل الأمم المتحدة في الصراعات بين الحضارات ، وما لذلك من نتائج حضارية غير عادية ، مثل حركات التشدد الإسلامي في أماكن كالجزائر ومصر ، وربما السعودية ، فقد دخل المسئولون في حلف الأطلنطي ، مع بعض أعضاء الجامعة العربية ، في مشاورات فيما يتصل بالتشدد الإسلامي ، فهل ستنضم الأمم المتحدة لهذه المشاورات ؟

فحتى الآن ، ما زال نظام الأمم المتحدة يشكل جزءاً من الهيمنة الثقافية والإمبراطورية غير الرسمية للعالم الغربي ، وعندما حاول « أحمد مختار إمبو » ، الرئيس العام لليونسكو ، الثورة على هذا الوضع انسحبت الولايات المتحدة وبريطانيا من اليونسكو ، وأقصى « إمبو » عن منصبه [3] .

لقد تشكلت الأمم المتحدة ، أساساً ، على يد المنتصرين في الحرب العالمية الثانية ، وهؤلاء المنتصرون ينتمون إلى حضارة واحدة ونصف حضارة ، فبريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا والجزء الأوروبي من الاتحاد السوفييتي ، تنتمي كلها إلى الحضارة الغربية ، أما الجزء الآسيوي من الاتحاد السوفييتي ، فيقدم نصف الحضارة الآخر ، وقد جعل هؤلاء من أنفسهم ، أعضاء دائمين في مجلس الأمن الدولي القوي ، ولكنهم قدموا تنازلاً واحداً لحضارة أخرى ، وذلك بجعل الصين - قبل أن تكون شيوعية - عضواً دائماً أيضاً ، كذلك ، فإنه من بين اللغات الخمس

---

(١) John Bulloch and Harvey Morris , the Gulf War : Its Origins , History and Consequences (London : Methuen , 1989) , pp . 117 - 119 .

(٢) حول خطة السلام في ليبيريا ، ودور « الأيكوموج » فيها انظر :
" Peace Plan is Accepted by Liberians, " New York Times , August 20 , 1995 , sect . A; and " 8 - Nation African Force is Peacekeeping Model in War - torn Liberia , " Washington Post , April 1 , 1994 , sect A .

(٣) لأمثلة عن هجوم الصحافة الغربية على « إمبو » M'bow انظر :
" When Will He M'bow Out ? " the Economist , October 3 , 1987 , p . 48 , and " Flirting with Destruction , " Nature (October 8 , 1987) , p . 472 .

الأصلية للأمم المتحدة ، كانت أربعة منها لغات أوروبية في الأصل ، وهي : الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية ، وحدث تنازل لحضارة أخرى ، بالاعتراف باللغة الصينية .

وقد بدأ يظهر نوع من الهيئة التشريعية ذات المجلسين : المجلس الأعلى أطلق عليه مجلس الأمن ، وهو الأقوى ، ولكنه أقل تمثيلاً ، والمجلس الأدنى ، وأطلق عليه الجمعية العامة ، وهو أقل قوة وأكثر تمثيلاً ، وقد تطور مفهوم المجلسين هذا من خلال الممارسة أكثر من كونه من خلال الترتيب ، وهو غربي جداً من حيث الأصل، كما أن المجلس الأعلى هو مجلس اللوردات العالمي - لوردات الحرب ! - وهو مفهوم آخر مستعار من الحضارة الغربية .

إن إحدى الوظائف الكبرى للأمم المتحدة ، هي المساعدة في حفظ السلام ، طبقاً لمبادئ القانون الدولي ، وقانون الأمم هذا ، هو في ذاته وليد السياسة والتاريخ الدبلوماسي الأوروبي ، فقد استخدم مرة ليكون :

قانون الأمم المسيحية ، ثم أصبح بعد ذلك :

قانون الأمم المتحضرة ، ثم أصبح بعد ذلك :

قانون الأمم المتقدمة (١) .

لقد استخدم القانون الدولي القديم ، لإضفاء الشرعية على قيام البلدان الغربية باستعمار البلدان الأخرى ، كما تميز آباء الفكر السياسي الغربي بنزعة أوروبية متغطرسة ، فقد ميز « چون ستيوارت ميل » بين (الهمج أو البرابرة والمجتمعات الجديرة بقانون الأمم) (٢) ، وهذه معايير حضارية كانت مقبولة في العالم الغربي كله تقريباً ، بل والأدهى من ذلك ، كان امتداح الاشتراكيين الأوائل للاستعمار ،

---

(١) Adam Watson , " European International Society and Its Expansion , " in Hedley Bull and Adam Watson , The Expansion of International Society (Oxford : Clarendon , 1985) . pp . 13 - 32 ; and Ian Brownlie , " The Expansion of International Society : The Consequences for the Law of Nations ", in Bill and Watson , eds . The Expansion of International Society , pp . 357 - 69 .

(٢) John Stuart Mill , " A Few Words on Non , Intervention " in Mill , Dissertations and Discussions , vol . 3 (London : Longmans Green Reader , 1867) , pp . 153 - 58 .

فقد أثنى « كارل ماركس » على استعمار بريطانيا للهند [١] ، كما أثنى « إنجلز » على استعمار فرنسا للجزائر [٢] .

ثم بدأت الأمم المتحدة تقبل ، ليس فقط بلداناً أكثر ، ولكن أيضاً ثقافات أكثر: « باكستان » عام (١٩٤٧م) ، و« ميانمار » (بورما) ، و« سيريلانكا » (سيلان) عام (١٩٤٨م) ، وبعد ذلك « ماليزيا » و« سنغافورة » ، وتلا ذلك بعض البلدان العربية الأخرى (حيث كانت مصر عضواً بالفعل) ، وهي : المغرب والسودان والجزائر، والبلدان الإفريقية السوداء المستقلة حديثاً ، بدءاً بغانا عام (١٩٥٧م) ، ومن ثم دخلت قِيَم جديدة ، حاولت التعبير عن نفسها ، من خلال بنية تحتية ذات نزعة أوروبية .

لقد أصبحت الأمم المتحدة ، فيما بعد ، قناة بدأت من خلالها الثقافات والبلدان الأخرى ، تصر على إدخال تغييرات في القانون الدولي ، فعندما قامت الهند باحتلال « جاو » ، وحررتها بالتالي من الحكم البرتغالي ، أعلن « كريشنا مينون» مبدأ مفاده : أن « الاستعمار عدوان دائم » ، ونزع ، من ثم ، الشرعية عن الاستعمار[٣] ؛ كذلك ، فإن الكفاح الإفريقي ضد سياسة « الأبارتهيد » ، قد قلص من مبدأ الشأن الداخلي ، كما طبق في سياسة « الأبارتهيد » في جنوب إفريقيا ، وفي النهاية ، أصبح ينظر إلى « الأبارتهيد » على أنها مسألة ، ذات صلة بالأمن الدولي ، وبدأت الأمم المتحدة تقوم بدور أكثر نشاطاً في محاربتها[٤] .

---

(١) Karl Marx and Frederick Engels , On Colonialism : Articles from the New York Trigune and Other Writings , by Karl Marx and Frederick Engels (New York : International , 1972) , pp . 81 - 87 .

(٢) Karl Marx and Frederick Engels , Collected Works , vol . 6 (New York : International , 1976) , p . 471 .

(٣) لمزيد عن وجهة نظر « مينون » للوضع في « جاو » وردود الفعل الغربية تجاه ممارسات الهند انظر :
Michael Brecher , India and World Politics : Krishna Menon's View of the World (New York : Praeger , 1968) , pp . 121 - 36 .

(٤) حول دور الأمم المتحدة في مكافحة العنصرية انظر :
" The U . N and Apartheid : A Chronology , " U . N Chronicle 31 (September 1994) : 9 - 14 ; Newell M . Stultz , " Evoluation of the United Nations Anti - Apartheid Regime , Human Rights Quarterly 13 (February 1991) : 1 - 23 ; and Ozdemir A . Ozgur , Apartheid the United Nations , and South Africa (Dobbs Ferry , NY : Transnational and Peaceful Change in , 1982) .

فهل من المحتمل ، في عصر ما بعد الحرب الباردة ، أن تستخدم الأمم المتحدة من جانب الحضارة الغربية المسيطرة ، ضد الحضارات الأخرى ؛ ، وهل هذا هو ما حدث خلال حرب الخليج ؟ ، وهل اختطف الغرب الأمم المتحدة ، لإضفاء الشرعية على مذابحه ، دفاعاً عن مصالحة البترولية ؟ ، وفي البوسنة ، هل استخدم الغرب الأمم المتحدة ، حتى يتأكد من عدم وجود دولة إسلامية قابلة للبقاء في وسط أوروبا ؟ .

لقد كانت الأمم المتحدة ، أحياناً ، مذنبة بإثم الإهمال ، ويدخل في ذلك :

١- الوقوف موقف المتفرج ، بينما كان « باتريس لومومبا » يؤخذ إلى حتفه ، عام (١٩٦١م) ، في « الكونغو » (زائير) [١] .

٢- الوقوف موقف المتفرج ، بينما آلاف الناس يُبادون خلال قصف العراق في حرب الخليج ، وهو ما أطلق عليه تلطفاً « دمار غير مقصود » ، ثم ما أعقب ذلك من استمرار تجاهل ما يعانيه العراقيون من عوز وحرمان ، بسبب العقوبات .

٣ - الوقوف موقف المتفرج في التسعينيات ، بينما مئات الآلاف من البوسنيين يشوهون أو يقتلون أو تبتر أعضاؤهم أو يغتصبون ، فهل هذا صدام بين الحضارات؟

وفي عمل سابق لي ، أثرت قضية دور الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة ، في الدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة ، في مكة والمدينة ، خلال حرب الخليج [٢]، وعند كتابة هذا الفصل ، ظهرت الولايات المتحدة ، على غير رغبة منها ، باعتبارها صانع السلام الوحيد ، والمفترض قبوله من جميع أطراف الأزمة البوسنية، بما في ذلك المسلمين البوسنيين ، وكان جزء من خطة السلام يتضمن تخفيض التسليح الصربي والكرواتي ، وزيادة تسليح المسلمين البوسنيين ، ولكن لن تتدخل قوات حفظ السلام ، بشكل مباشر ، في إعادة التسليح ، ويبدو أن الولايات

(١) Michael G . Schatzberg , Mobuth or Chaose ? The United States and Zaire , 1960 - 1990 (Lanham , MD : University Presses of America and the Foreign Policy Institute , 1991) .

(٢) Ali A . Mazrui , " The Resurgence of Islam and the Decline of Communism , " Futures : The Journal of Forecasting and Planning 23 (April 1991) : 283 - 85 .

المتحدة تحاول البحث عن أطراف ثالثة ، لتتولى مهمة تسليح القوات البوسنية ، بحيث تكون قادرة على صد أية تحديات في المستقبل [(١)] .

ويلفت النظر هنا ، أنه بينما كانت الأمم المتحدة والحلفاء الأوروبيون وإدارة كلينتون ، غير راغبة لمدة طويلة في رفع حظر السلاح والسماح للمسلمين البوسنيين بتسليح أنفسهم ، فإن الجمهوريين المحافظين (كالسيناتور الأمريكي السابق ، بوب دول) ، قد طالبوا - لفترة طويلة - بالسماح للبوسنة بتسليح نفسها [(٢)] ، ولسوء الحظ ، لم يتمكن العالم الإسلامي من الوصول إلى تلك الجهود المنظمة والمتسقة ، التي تمكن البوسنيين ، ذوي التسليح السيء ، من الدفاع عن أنفسهم .

لقد كان « هنتنجتون » مهتماً باحتمال قيام تحالف بين العالم الإسلامي والبلدان ذات التراث الكونفوشي ، وحسب رؤيتنا ، فهل سيقدم مثل هذا التحالف داراً جديدة للحرب بالنسبة للغرب ؟، وقد ظهرت للأمم المتحدة في السبعينيات، بشائر قيام هذا التحالف الإسلامي الكونفوشي ، ففي عام (١٩٧١م) ، كانت هناك ردود فعل مملوءة بالبهجة لاعتراف الأمم المتحدة بجمهورية الصين الشعبية [(٣)] ، كما شهد عام (١٩٧٤م) ، خطاب ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأم المتحدة ، كرئيس دولة بالفعل [(٤)] ، وكانت البشارة الثالثة ، قيام الجزائر عام (١٩٧٤م)، بشن حملة من أجل إقامة نظام اقتصادي دولي جديد [(٥)] ، والبشارة الرابعة ، كانت ما أعقب

---

(١) Al Gore , Interview on Nightline , American Broadcasting Companies , December 1 , 1995 .

وانظر أيضا :

New York Times , December 5 , 1995 , sect . A .

(٢) Carroll J . Doherty , " Dole Takes a Political Risk in Crusade to Aid Bosnia , " Congressional Quarterly Weekly Report 53 (March 11 , 1995) : 761 - 3 .

(٣) Samuel S . Kim , China . The United Nations , and World Order (Princeton : Princeton University Press , 1979) .

(٤) United Nations , Yearbook of the United Nations , 1974 (New York : UN , 1977) , pp . 189 - 251 .

(٥) راجع على سبيل المثال :

Pradip K . Ghosh , ed , New International Economic Order : A Third World Perspective (Westport : Greenwood , 1984) .

ذلك من اعتراف باللغة العربية ، عام (١٩٧٥م) ، باعتبارها اللغة الثانية غير الأوروبية ، المقبولة كلغة رسمية في المنظمة العالمية .

كذلك ، فقد كانت هناك إنجازات متواضعة ، إن لم تكن بارزة ، ذلك أن نظام الأمم المتحدة ككل ، جنباً إلى جنب مع مؤسسات « بريتون وودز » ، (البنك الدولي وصندوق النقد الدولي) ، ظلت أدوات كبرى لنشر القيم والمفاهيم والأفكار الغربية ، حيث أن هذه المؤسسات ، في تصوراتها وفي كثير من عملياتها، ترجع بجذورها إلى النظرة الغربية للعالم ، ومن ثم ، فإن الرؤساء العامين لليونسكو في المستقبل ، لا يحتمل أن يكونوا بنفس صلابة « أحمد مختار إمبو »[١] ، كما أن معظم الدول النامية ، على أية حال ، قد أجبرت على اتباع خط « الحزب » الغربي ، منذ وفاة الاتحاد السوفييتي .

وحتى هذه اللحظة ، فإن مجلس الأمن الدولي يعتبر ، بالأساس ، « نادى الرجل الأبيض » دون زائرين من غير البيض ، فأربعة من بين الأعضاء الخمسة الدائمين ، هي في جوهرها بلدان بيضاء من الناحية العرقية ، وتضرب بجذورها في التراث المسيحي الأوروبي ، (وهي الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وروسيا)، فهل أصبحت الأمم المتحدة ميداناً لا محيد عنه لصدام الحضارات في المستقبل ؟ أم أن الهيئة العالمية تعتبر ، ببساطة ، امتداداً للإمبراطورية غير الرسمية للغرب ؟

● الوجه الدامي للإسلام :

تحمل كل من الإمبراطورية الرسمية وغير الرسمية ، في طياتها احتمالات كبيرة للصراع ، وتفرض الصراعات المختلفة في العالم الإسلامي ، ضرورة إعادة النظر فيها جدياً ، فمعظم الضحايا من المسلمين ، ولكن هناك صراعات يكون المسلمون فيها هم المعتدون .

فهل أصبحت دار الإسلام القديمة ، الآن ، دار الحرب الحديثة ؟ ففي القانون الدولي الإسلامي التقليدي ، تضم دار الإسلام الأقاليم التي يكون المسلمون فيها

(١) Lawrence S. Finkelstein , " The Political Role of the Director - General of UNESCO, " in Lawrence S . Finkelstein , ed , Politics in the United Nations System (Durham , NC : Duke University Press , 1988) , pp . 385 - 423 .

أحراراً وآمنين ، إلا أن المسلمين الآن ، قد أحاطت بهم الصراعات في بلادهم المختلفة ، فإلى أي مدى تعتبر هذه الصراعات نتيجة لتصفية الاستعمار ؟ ، وكم من هذه الصراعات يرجع إلى استمرار الإمبراطورية غير الرسمية للغرب .

ويمكن تقسيم الصراعات الحالية في العالم الإسلامي إلى ثلاث فئات رئيسية من المجتمعات ، **فأولاً** - هناك مجتمعات يكون المسلمون فيها ضحايا لعنف الآخرين ، وتشمل هذه الفئة الحروب في البوسنة والشيشان وكشمير وجنوب لبنان وفلسطين المحتلة وأفغانستان عندما كانت تحت الاحتلال السوفييتي .

وثانياً - هناك مجتمعات يكون المسلمون فيها في حرب مع بعضهم البعض ، وتشمل هذه الفئة أفغانستان والجزائر ومدينة كراتشي في باكستان .

وتضم **الفئة الثالثة** المواقف التي يكون المسلمون فيها هم المعتدون أكثر من كونهم ضحايا ، وهنا يتخذ المسلمون ضحاياهم من الآخرين ، فرغم أن الحرب في السودان ليست حرباً دينية ، إلا أن الأثر الصافي لها يجعل المسلمين أكبر معتد ، ثم ماذا عن العمل الإرهابي في نوفمبر (١٩٩٥م) ، في الرياض بالسعودية ، ضد الأمريكيين [١] ؟ ، هل هي حالة تشمل مسلمين ضد أجانب ؟ ، أم أنها إشارة إلى بداية صراع بين المسلمين ، يناظر الأوضاع في الجزائر ومصر ؟

ولم يكن من المفترض ، في دار الإسلام القديمة ، أن يكون الصراع نظاماً يومياً، أما الآن ، فهناك الضنك والألم والشقاق ، حيث لم تجد عالمية العقيدة ، ما يناظرها من عموم السلام ، وتحمل كل من تصفية الاستعمار وبقايا الإمبريالية في طياتهما بذور هذا الصراع .

لقد تدخلت الأمم المتحدة في بعض هذه الصراعات المؤثرة على المسلمين ، ولم تتدخل في بعضها الآخر ، فهناك قرارات للأمم المتحدة حول كشمير ، وقرارات

---

(١) حول انفجار الرياض انظر :

New York Times , November 14 , 1995 , sect . A .

James Lee Ray , Democracy and International Conflict : An Evaluation of the Democratic Peace Propositon (Columbia , SC : University of South Carolina Press , 1995) .

وانظر أيضا :

International Security , 19 (spring 1995) .

أكثر من ذلك ، حول فلسطين ، كما حاولت الأمم المتحدة أحياناً ، تقديم المساعدة في الحرب الأهلية في أفغانستان ، إلا أن الأمم المتحدة ، ظلت بمنأى عن الحرب في الشيشان ، وهي الحرب التي مزقت فؤاد العالم الإسلامي ، بكثرة عدد القتلى والضحايا من المسلمين فيها .

وبينما فشل المسلمون في إقامة السلام فيما بينهم ، فقد نجح الغربيون في ذلك، وظهر كيان كامل وجديد من الكتابات ، يقوم على التسليم بأن « الديموقراطيات لا تذهب إلى الحرب ضد بعضها البعض » ، ولا تستند هذه الكتابات إلى تفكير يحركه الهوى أو الأخلاق ، ولكن تستند إلى تحليل علمي ومنظم لطبيعة العملية الديمقراطية ، وخصوصاً في الغرب الليبرالي ، إلا أنها لا تذكر شيئاً ، مع ذلك ، حول تلك العملية الديمقراطية التي لم تمنع الولايات المتحدة من غزو « بنما » ، ولم تمنع بريطانيا وفرنسا من الانضمام إلى التحالف العسكري ضد العراق في حرب الخليج ، إلا أن هذه المدرسة الفكرية الجديدة حول السلام الديمقراطي ، تؤكد أن هذه البلدان الديمقراطية لا تميل كقاعدة ، إلى أن تذهب إلى الحرب ضد بعضها البعض ، وعلى حد تعبير « هنتنجتون » ، فإن « مجرد التفكير في الصراع العسكري بين الدول الغربية أمر غير وارد » [١] ، ولكن ، كم من هذا السلام يرجع إلى الرخاء الاقتصادي والانتشار النووي ، أكثر مما يرجع إلى النزعة السلمية المتأصلة في الديمقراطية ؟

وهكذا ، وبدلاً من وضع لا يحارب فيه المسلمون بعضهم بعضاً ، (كما كان متوقعاً في ظل النظام القديم) ، أصبح هناك وضع لا يذهب فيه الغربيون للحرب ضد بعضهم البعض ، (كما يؤكد علم السياسة الجديد) ، وبدلاً من غلبة دار الإسلام ، أصبحت الغلبة لدار الغرب ، وأكثر من ذلك ، فإن الغرب يسيطر على الأمم المتحدة ، وتعثرت عالمية عقيدة الإسلام ، بسبب ضعف المسلمين ، بينما انتصرت عالمية الأمم المتحدة ، المستندة إلى الدول ، بسبب قوة الغرب .

وربما لم يحدث في أي مكان من العالم ، مثل هذه المواجهة الصريحة بين عالمية العقيدة وعالمية الدول ، كما حدث في البوسنة ، فقد تفككت الدولة المسماة

---

(١) Huntington , " The Clash of Civilizations , " P . 39 .

« بيوغوسلافيا » ، ومن بين أشلائها ، ظهرت دولة تسمى « البوسنة والهرسك »، ذات أكثرية من المسلمين ، إلا أن فكرة حكومة يتزعمها المسلمون في وسط أوروبا، مهما كانت هذه الحكومة ديمقراطية ، قد أثارت لدى بعض الدوائر ، مخاوف من احتمال حدوث اضطرابات ، فهناك تركيا المسلمة ، وهي بلد شرق أوسطي ، تحاول الاعتراف بها كبلد أوروبي ، وهناك ألبانيا المسلمة ، وهي أشد بلدان أوروبا تخلفاً من الناحية التكنولوجية ، أما ظهور البوسنة ، المتقدمة نسبياً ، والتي تقع في وسط أوروبا المسيحية ، فقد كان احتمالاً مزعجاً ، في ظل توقعات الخبراء حول «صدام الحضارات » المقبل .

ومن ثم ، فإن البوسنة تعتبر حالة دراسية مفيدة ، لعدد من العوامل ، وخاصة من حيث عالمية العقيدة في الحرب ، مقابل عالمية الدول ، كما أنها حالة دراسية لمعارضة الأمم المتحدة لتطلعات معظم العالم الإسلامي ، كذلك ، فإنها - في نهجها إزاء التقسيم الواقعي - ، تقدم حالة دراسية لصدام الحضارات .

فقد تعرضت البوسنة والهرسك للغزو ، أصلاً ، من جانب كل من القوات الصربية والصرب البوسنيين الذين سلحتهم صربيا ، وقامت الأمم المتحدة بفرض حظر السلاح على كلا الجانبين ، ومع ذلك ، فقد أخطأت الأمم المتحدة في فرض الحظر على الحكومة البوسنية لسببين رئيسيين :

١ - أن البوسنة لها حق الدفاع عن النفس ، طبقاً للمادة « ٥١ » من ميثاق الأمم المتحدة .

٢ - أن الجانب الصربي كان يتمتع بميزة كبرى ، حيث ورث الجانب الأكبر من العتاد ، في جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية السابقة .

وإذا تعرض المسلمون للإذلال والهزيمة الكاملة في البوسنة ، فقد تنشأ أشكال جديدة من حركات حرب العصابات الإسلامية في قلب أوروبا في العقود القادمة ، فالمسلمون الذين تعرضوا للإذلال ، عرف عنهم أنهم لا يكفون عن الظهور ، لأجيال عديدة ، لتخويف الذين أذاقوهم العذاب ، ومن ثم ، فإن النظير البوسني لمنظمة التحرير الفلسطينية أو للجيش الجمهوري الأيرلندي ، ربما كان سيُخلق غداً، دونما داع ، نتيجة لإذلال المسلمين اليوم ، كما أن تقسيم البوسنة لن تُطوي صفحته، فهل سيكون مكلفاً كتقسيم فلسطين ؟

ومن مفارقات الأمور بالنسبة للبوسنة ، هي أنه في الوقت الذي يتعلم فيه العالم الإسلامي ، كيف يتقبل دولة يهودية وسط الشرق الأوسط المسلم ، - رغم مجزرة مسجد الخليل التي قام بها متشدد يهودي - ، فإن الأوروبيين غير راغبين في قبول دولة إسلامية في وسط أوروبا المسيحية .

إن البوسنة والهرسك ، يمكن أن تصبح ، بشكل ما ، إسرائيل إسلامية في وسط أوروبا المسيحية ، فهل لدى أوروبا الإرادة لمساعدة البوسنة على البقاء ؟ ، أم أن أوروبا سوف تتصرف مثل « باروخ جولد شتاين » ، عندما أطلق الرصاص على المسلمين وهم في الصلاة ؟ ، وهل قدمت الأمم المتحدة غطاء شرعياً عالمياً لمنع قيام دولة مسلمة مستقلة وذات تسليح جيد ومتقدمة في أوروبا ؟ ، وإذا كان الغرب قد قام في أفغانستان بتقديم الأسلحة من أجل تحرير مجتمع مسلم ، وتثبيط عزيمة موسكو، فقد قام في البوسنة ، ومن خلال الأمم المتحدة ، بنزع سلاح مجتمع مسلم ، مؤقتاً ، وكان ذلك في جانب منه ، لكي لا يُغضب موسكو ، وفي أفغانستان ، ساعد الغرب المجاهدين من أجل طرد غزاتهم السوفييت ، أما في البوسنة ، فلم يكن الغرب والأمم المتحدة ، على استعداد حتى للدفاع عن بعض المناطق الخاضعة لحماية الأمم المتحدة ، ولكن لحسن الحظ ، فإن حماية حلف الأطلنطي « لسراييفو » ، قد تُجمد المكاسب الإقليمية للصرب .

لقد قام الغرب في أفغانستان بعمل الصواب ، ولكن لأسباب خاطئة ، حيث ساعد المسلمين في هزيمة السوفييت ، أما في البوسنة ، فقد كانت أعمال الغرب خاطئة ، لفترة طويلة ، ولأسباب خاطئة ، حيث قام بترضية الغزاة الصرب ، وذلك جزئياً بسبب عدم أهمية الطائفة ، ولكن ، أليس هذا هو الأوان الذي يقوم فيه المجتمع الدولي بعمل الصواب ولأسباب صواب ؟ ، - أي مساعدة البوسنة على البقاء ، كبلد موحد ومستقل ، لأن العدوان خطأ ، ولأن البلدان الضعيفة تستحق مساندة المجتمع الدولي ؟ ، أم أن مصالح إمبراطورية الغرب غير الرسمية لن تحظى برعاية أفضل بمثل هذه الأعمال ؟ .

وهنا ، فإن ظلال التحيز الثقافي تظل قائمة ؛ فهل كان الغرب والأمم المتحدة ، سيكونان بنفس البطء في رد فعلهما في البوسنة ، إذا كان المسلمون هم الذين يذبحون ويغتصبون المسيحيين ، وليس العكس ؟ ، وهل كان مجلس الشيوخ والإدارة الأمريكية سيستجيبان بهذه الدرجة من البطء ، إذا كانت معسكرات

الاعتقال الصربية ، قد أنشئت لليهود البوسنيين ، وليس للمسلمين البوسنيين ؟ ، وألم تكن الأمم المتحدة ، ستجبر على الاستجابة بحماس أكبر ، إذا كانت نساء اليهود هن اللاتي يغتصبن ، على يد رجال المسلمين ، كوسيلة من وسائل الحرب، بدلاً من أن تغتصب النساء المسلمات على يد الصرب ؟ .

في الواقع ، هناك اعتقاد بأنه إذا كان اليهود هم الذين يتعرضون لمثل هذا الإذلال الذي لا يوصف ، فإن إسرائيل لم تكن لتنتظر مجلس الأمن الدولي ولا مجلس الشيوخ الأمريكي ، للقيام بعمل [١] ، بل كانت ستقوم بعمل مثير ودولي وكبير ، من أجل شد انتباه العالم ، حتى ولو كان ذلك معناه أن تقوم بقصف بلجراد ، وفي الجانب الآخر ، فإن خمسين حكومة إسلامية ، قد رضيت بأن تلبي في استكانة ، مطالب مجلس الأمن ، وأحجمت عن تسليح المسلمين البوسنيين ، أو حتى إخلاء اللاجئين .

إن الاستنتاج الذي يمكن الخروج به هنا ، هو أن مثاليات الأمم المتحدة حول عالمية الدول ، ما زال يشوبها الميل والانحراف بشكل خطير ، فالأمم المتحدة ما زالت صنيعة العالمي الغربي ، وهو عالم ينظر إلى العالم من خلال العدسات الإسلامية الثلاثية في القرون الوسطى ، فما كان الفقهاء المسلمون في العصور الوسطى يرونه دار الإسلام ، أصبح الآن دار المغرب (أو دار الغرب) ، وأصبح الغربيون هم الرواد المقدمون ، أما دار الحرب بالنسبة للغربيين ، فكانت تعني ، حتى التسعينيات ، أرض الشيوعية ، ولكن يظل السؤال : هل أصبحت دار الحرب الآن ، بالنسبة للغرب ، هي العالم الإسلامي المعقد ؟ .

وفي العصور الوسطى ، كان بعض الإسلاميين يرون أن هناك أيضاً دار الصلح، أي أرض التعايش التعاقدي في مقابل الجزية ، وبالنسبة للعالم الغربي ، فقد تلقى الجزية ، وما يزال ، من معظم العالم الثالث ، في صورة أرباح وفوائد على أعباء الديون ، وعوائد الأشكال الأخرى من الاستغلال ، وفي بعض الأحيان ، قدمت الأمم المتحدة ، دون وعي ، مظلة لهذا التقسيم الثلاثي للعالم .

---

(١) انظر تفاصيل نقل « الفلاشا » من أثيوبيا إلى إسرائيل :

Ruth Gruber .Rescue : The Exodus of the Ethiopian Jews (New York : Athenuem , 1987) .

● الأمم المتحدة والإسلام : حلفاء أم أعداء ؟ :

بعد كل ما قيل وكل ما فعل ، ففي ظل أية ظروف ، يمكن أن تكون الأمم المتحدة حليفاً للعالم الإسلامي ؟ ، **فأولاً** - تعد الأمم المتحدة حليفاً ، عندما تقوم بدور إنساني ، كما في أزمات اللاجئين ، والاستجابة في ظروف المجاعات والجفاف، وغير ذلك من الكوارث ، ففي مثل هذه المواقف ، لا فرق بين كون المستفيدين المباشرين هم من المسلمين ، كما في الصومال وبنجلاديش ، أو من غير المسلمين ، كما في رواندا ، فالإسلام يؤيد مثل هذه الجهود جميعاً .

وثانياً - فإن الأمم المتحدة حليف ، عندما تتوسط في بعض المنازعات بين المسلمين، كما في جهودها لحل النزاع حول مصير الصحراء الغربية ، أو في مساعداتها في البحث عن السلام بين إيران والعراق في الثمانينيات [(١)] .

وثالثاً - فإن الأمم المتحدة حليف للمسلمين ، عندما تقدم قوات حفظ السلام ، وغير ذلك من جهود لحفظ السلام ، في الصراعات بين المسلمين وغير المسلمين، فعلى مدى سنوات ، وخاصة قبل اتفاقات « أوسلو » للسلام ، كانت قوات الأمم المتحدة ، مشغولة كثيراً بمهمة حفظ السلام ، غير المشكورة غالباً ، بين العرب والإسرائيليين ، كذلك ، فإن دور الأمم المتحدة طويل المدى في « قبرص » ، يعتبر مثالاً آخر للوساطة بين المسلمين وغير المسلمين .

ورابعاً - فقد تحالفت الأمم المتحدة أحياناً مع المسلمين ، عندما كان العالم الغربي منقسماً ، كما حدث خلال أزمة السويس عام (١٩٥٦م) ، حيث عارضت المنظمة العالمية غزو بريطانيا وفرنسا لمصر ، رغم ما تتمتع به بريطانيا وفرنسا من حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن .

كما كانت الأمم المتحدة قادرة أيضاً ، خلال فترات الانقسامات الداخلية في الغرب ، على أن تقوم بدور رئيسي في تصفية الاستعمار ، فقد كانت الولايات

---

(١) لتقييم دقيق للوساطة انظر :

Mohammed H . Malek and Mark F . Imber , " The Security Council and the Gulf War : A Case of Double Standard , " in Mohammed H . Malek , ed , International Mediation and the Gulf War (Glasgow : Royston , 1991) .

المتحدة تعارض تاريخياً ، بعض الصور القديمة من الإمبريالية الأوروبية ، وهو الموقف الذي أدى غالباً - خلال النصف الثاني من القرن العشرين - إلى تحالف الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، ضد النمط القديم من الاستعمار الأوروبي ، وفي ظل هذه الظروف ، كان من اليسير ، في الواقع ، أن تكون الأمم المتحدة ، ميداناً من أكبر ميادين كفاح شعوب آسيا وإفريقيا والجزر المنتشرة في البحار ، ضد الاستعمار ، حيث قامت الأمم المتحدة بدورها ضد الاستعمار ، ليس فقط من خلال مجلس الوصاية ، ولكن أيضاً من خلال الجمعية العامة ، وخاصة منذ أواخر الخمسينيات وما بعدها ، وكان هذا الدور ضد الاستعمار ، غالباً ، خدمة عظيمة للعالم الإسلامي .

وسادساً - فإن الأمم المتحدة يمكن أن تكون حليفاً للعالم الإسلامي ، إذا أخذت، جدياً ، بفكرة محاكمة مجرمي الحرب ، وأولئك الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية ، وسوف يهم العالم الإسلامي ، بوجه خاص ، محاكمة مجرمي الحرب والذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية من الصرب في البوسنة ، وقد أحسنت الأمم المتحدة صنعاً بتعيين محكمة لهذا الغرض ، إلا أنها قد قصرت كثيراً في توفير الموارد لهذه المهمة المعقدة .

وسابعاً - فإن الأمم المتحدة كانت حليفاً عندما كان العالم الإسلامي نفسه متحداً، فأحياناً ، كان من الممكن تمرير قرارات في الجمعية العامة ، على درجة كبيرة من إثارة الجدل ، فإسرائيل - مثلاً - دولة تقوم على أيديولوجية تؤمن بأن الروسي الذي يزعم انحداره من أصل يهودي ، والذي لا تربط أسرته أية صلة بالشرق الأوسط خلال الألفي سنة الأخيرة ، له الحق في الذهاب إلى إسرائيل ، أكثر من الفلسطيني الذي فر منها خلال حرب (١٩٤٨م) ، فهل مثل هذه التفرقة تعتبر عنصرية ؟ ، لقد تمكن المسلمون عندما كانوا متحدين ، عام (١٩٧٥م) ، من إقناع الجمعية العامة بتمرير قرار يؤكد أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية ، وعندما كان العالم الإسلامي منقسماً عام (١٩٩١م) ، فقد تم إلغاء هذا القرار بأغلبية ساحقة [١] .

وعندما كان المسلمون متحدين ، استطاعوا إقناع الجمعية العامة ليس فقط بتحدي

---

(١) " Zionism No Longer Equated With Racism , " U . N . Chronicle 29 (March 1992) P : 67 .

الولايات المتحدة ، ولكن أيضاً بنقل الجمعية نفسها من نيويورك ، في تحد أكبر من ذلك ، ففي عام (١٩٨٨م) ، عندما رفضت الولايات المتحدة أن تمنح تأشيرة دخول لياسر عرفات ، ومنعته بالتالي من إلقاء خطاب أمام الجمعية العامة في نيويورك ، حول إعلانه قيام دولة فلسطينية مستقلة . وقد أدانت الجمعية العامة هذا العمل الذي قامت به واشنطن ، على أساس أنه انتهاك للالتزامات القانونية للدولة المضيفة ، طبقاً لاتفاقية المقر عام (١٩٤٧م) ، ومن ثم ، نقلت الجمعية العامة جلستها إلى جنيف ، في سويسرا ، حتى تتمكن من الاستماع إلى عرفات ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى والوحيدة من هذا النوع في تاريخ الأمم المتحدة ، وبذلك ، ساعدت وحدة الأعضاء المسلمين في الأمم المتحدة ، في إقناع غيرهم بالانضمام إلى صفوفهم[١] .

وأخيراً ، هل الأمم المتحدة حليف أم عدو للقيَم الإسلامية ، عندما تستضيف سلسلة من المؤتمرات العالمية ، كمؤتمر بكين حول قضايا المرأة ، ومؤتمر السكان في القاهرة عام (١٩٩٤م) ، فالمسلمون أنفسهم منقسمون حول ما إذا كانت مؤتمرات الأمم المتحدة هذه ، تودي إلى تآكل القيَم الإسلامية ، أم إنها تساعد هذه القيَم على أن تأخذ وضعاً تاريخياً جديداً في القرنين العشرين والحادي والعشرين .

وعلى سبيل المثال ، هل ستستفيد المرأة المسلمة من المعايير العالمية الجديدة حول مساواة الجنسين ، والتي تشجع عليها هذه المؤتمرات ؟ ، فهذه المؤتمرات جزء من عالمية الأمم المتحدة على أساس الدول ، والتي تتصارع أحياناً مع عالمية الإسلام على أساس العقيدة ، ولكن هذا التوتر يمكن أن يكون خلاقاً ، حيث يمكن أن يكون لهذه الجدلية وجه إنساني ، فعلى أقل القليل ، هناك اهتمام مشترك ، على جانب عظيم من الأهمية ، بين الإسلام والأمم المتحدة ، وهو ضمان أن تنكمش دار الحرب شيئاً شيئاً ، حتى تنتقل إلى دائرة النسيان ، وأن يصبح هذا الكوكب في النهاية ، وبعد طول انتظار ، داراً للسلام .

● ختام : بين تغريب الإسلام وأسلمة الغرب :

بغض النظر عن دور الأمم المتحدة ، فإنه ينبغي في مرحلة ما ، تحويل بؤرة

---

(١) انظر تقرير عن الموضوع في :
" UN Votes to Move Session to Geneva " New York Times , December 3 , 1988, sect . A . pp . 1 - 4 .

التركيز من الفكرة الواسعة حول الإسلام والغرب ، إلى استقصاء أعمق للإسلام في الغرب ، فيوماً ما ، كان الوجود الإسلامي في الغرب ، يتخذ شكل التأثير العلمي والفكري ، وذلك عندما دخلت المعاجم العلمية الأوروبية ، كلمات عربية مثل « الجبر » و« الصفر » .

ومن الأمور اللافتة للنظر في القرن العشرين ، هو أنه قد جمع بين التغريب الثقافي للعالم الإسلامي ، من جهة ، وبين أسلمة العالم الغربي من الناحية السكانية ، في وقت لاحق ، من جهة أخرى ، وبينما وضعت أسس التغريب الثقافي للعالم الإسلامي ، بشكل رئيسي ، خلال النصف الأول من القرن العشرين ، فإن أسس أسلمة العالم الغربي ، من الناحية السكانية ، قد بدئ في وضعها خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، فلنتناول هذين الطورين من أطوار التفاعل الإسلامي - الأوروبي ، الواحد بعد الآخر .

فخلال النصف الأول من القرن العشرين ، كان الغرب قد استعمر أكثر من ثلثي العالم الإسلامي ، من « كانو » إلى « كراتشي » ، ومن « القاهرة » إلى «كوالالامبور» ، ومن « داكار » إلى « جاكارتا » ، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين ، أيضاً ، انهيار الإمبراطورية العثمانية ، ونزع الطابع الإسلامي ، بشكل كامل ، عن نظام الدولة ذي النمط الأوروبي ، وكان من بين النتائج التي أعقبت ذلك : إلغاء الخلافة كمركز رمزي للسلطة الإسلامية ، كما أصبحت الأمة أكثر تفتتاً من قبل ، بل وأصبحت أكثر قابلية للاختراق الثقافي الغربي .

كما كانت هناك قوى أخرى ، سهلت التغريب الثقافي للعالم الإسلامي ، وكان من بين هذه القوى : إحلال مدارس النظام الغربي محل المدارس القرآنية والإسلامية ، والاستخدام المتزايد للغات الأوروبية في البلدان الإسلامية الكبرى ، وتأثير أجهزة الإعلام الغربية على توزيع الأخبار والمعلومات والترفيه ، والتي تتراوح بين المجلات والسينما والتليفزيون والڤيديو ، إلى عالم الحاسبات الجديد ، وأخيراً ، كانت هناك تكنولوچيا الغرب واسعة الانتشار ، والتي تحمل معها ، ليس فقط مهارات جديدة ، ولكن قِيَم جديدة أيضاً ، وتمثلت المحصلة الصافية لهذه القوى ، في الواقع ، في عولمة بعض جوانب الثقافة ، ومع ذلك ، فقد كان ذلك طرازاً أوروبياً أو أمريكياً من العولمة ، بمعنى أن أحد جوانب الثقافة ذات الطابع

الأوروبي أو الأمريكي ، تعتنقه في النهاية ثقافات أخرى ، متنكراً تحت مسمى لعالمية ، وبهذه الطريقة ، تكون قد ولدت إمبراطورية ثقافية غير رسمية .

إن عولمة جانبين من جوانب الثقافة العالمية ذات الطابع الأوروبي ، قد تخبرنا بقصة ما سيأتي بعد ذلك ، وهذان الجانبان هما : التقويم المسيحي الغربي ، وخصوصاً التقويم « الجريجوري » ، وملابس الرجال في سائر أنحاء العالم .

فقد أخذت كثير من البلدان في إفريقيا وآسيا ، بالجملة ، بالتقويم المسيحي الغربي ، كتقويم لها ، فهي تحتفل بعيد استقلالها طبقاً للتقويم المسيحي ، وتكتب تاريخها طبقاً للسنوات « الجريجورية » ، مستخدمة تمييزات مثل : قبل أو بعد ميلاد المسيح ، بل إن بعض البلدان الإسلامية ، قد جعلت يوم الأحد ، عطلة لها، بدلاً من يوم الجمعة ، وفي بعض الثقافات ، أُعيد تقسيم الكتابات التاريخية الإسلامية برمتها ، إلى فترات طبقاً للتقويم المسيحي بدلاً من الهجري .

إن افتراض أن العولمة يمكن أن تعني التغريب الصرف ، يتضح بشكل أفضل من خلال وجه آخر من الحياة العادية ، وهو قواعد وثقافة الأزياء ، فقد قال بولونيوس - شكسبير - في وقت من الأوقات ، وبمنطق مقنع : إن « لباس المرء يدل عليه » ، كما تعود الناس على أن جنسية الشخص وثروته وطبقته وذوقه وتعليمه ، يكشف عنها ، وبحق ، ما يرتديه من زي ، إلا أن ذلك لم يعد كذلك في الحقيقة ، بسبب عولمة أزياء الرجال الغربية ، وخصوصاً « البدلة » الغربية، بحيث إنه بحلول الربع الأخير من القرن العشرين ، أصبح بمقدور أي رجل من أية ثقافة على الأرض ، أن يرتدي « بدلة » غربية ، دون أن يبدو في ذلك متنافراً مع ثقافته .

ولكن ، من جهة أخرى ، فإن أي ياباني لا يمكن أن يرتدي زياً عربياً دون أن يبدو شاذاً ثقافياً ، كما لا يمكن لأي إفريقي أن يرتدي « الدوطي » الهندي ، دون أن يسبب ارتباكاً شديداً ، كذلك ، لا يمكن لأي صيني أن يرتدي زي أحد الأرستقراطيين « اليوروبا » ، دون أن يربك كل التوقعات الثقافية ، وبعبارة أخرى فإنه رغم أن الرجال من جميع الثقافات يمكنهم أن يرتدوا ، بل ويرتدون بالفعل، الزي الغربي ، فإن أزياء أي ثقافتين أخريين لا يمكن أن تُتبادل بمثل هذه الحرية .

وإذا انتهت القصة إلى هنا ، فإنها قد تكون سيئة بما فيه الكفاية ، إلا أنها تظل من الممكن تحملها ، ولكن الأسوأ من ذلك ، هو أن المعايير الغربية أصبح ينظر

إليها الآن على أنها « طبيعية » جداً لدرجة أنه إذا ارتدى أي شخص ، في اجتماع دولي ، زياً يعبر عن معايير ثقافته الذاتية ، فإن ذلك الزي ينظر إليه على أنه غير طبيعي ، لأنه غير غربي ، كما ينظر إلى الشخص الذي يرتديه على أنه يعبر عن موقف سياسي ، فأنا لي ابن أخ في كندا ، وهو مسلم متمسك بدينه ، ويرتدي زياً على الطريقة الإسلامية ، وذي لحية أنيقة ، وفي عام (١٩٩٥م) سافر لأول مرة إلى الشرق الأوسط ، إلا أن زيه الإسلامي الصحيح ، قد تحول - من مطار إسلامي إلى آخر - إلى مصدر تعب له ، بدلاً من أن يكون عوناً له ، بل إنه غالباً ما كان ينحي جانباً لإجراء مزيد من التحقيق من جانب المسئولين في المطارات الإسلامية ، الذين رأوه مسلماً أكثر من اللازم ! ، ولو أنه كان يرتدي « بدلة » غربية، لوفر على نفسه كثيراً من العناء في المطارات الإسلامية ، أي أن « البدلة » الغربية قد أصبحت زياً عالمياً في الحقيقة ، وأصبحت الآن هي المعيار ، أما الزي الإسلامي فأصبح « غير طبيعي » ، وربما « أصولياً » ، وهذه أيضاً إمبراطورية غير رسمية في مجال الأزياء ، ولكن بأية تكلفة ؟

أما قواعد الزي بالنسبة للنساء في الثقافات غير الغربية ، فلم تتعرض للاكتساح الغربي بنفس درجة ما حدث مع قواعد أزياء الرجال ، فالنساء في الهند ما زلن ، بدرجات متفاوتة ، يرتدين الساري وما يعادله ، كما أن النساء المسلمات ما زلن يتمسكن بالقواعد الصارمة للحشمة في اللباس ، والتي تتجاوز إلى حد بعيد المعايير الغربية المعاصرة .

ولكن هذه الإمبراطورية غير الرسمية في مجال الأزياء ، ليست دون تكلفة ، فبعد التفجير الإرهابي للمباني الاتحادية في مدينة أوكلاهوما عام (١٩٩٥م) ، اتجهت الشكوك الأولى في هذا العمل الوحشي إلى الإرهابيين الإسلاميين ، وقد ولد هذا الافتراض على الفور ، قدراً كبيراً من الغضب ضد المسلمين في الولايات المتحدة ، وأصبحت النساء المسلمات أكثر مجموعة إسلامية مستهدفة غالباً ، ليس بسبب الشك في تورط نساء في عملية التفجير ، ولكن لأن النساء المسلمات كن يرتدين زياً إسلامياً ، وبسبب قواعد هذا الزي ، فإنهن كن - بوضوح - أشد إسلاماً من معظم الرجال المسلمين .

ويعيدنا هذا الموضوع - حول الشعور المعادي للمسلمين بعد العمل الوحشي في مدينة أوكلاهوما - ، إلى موضوع الوجود السكاني الجديد للإسلام في العالم

الغربي ، ففي النصف الثاني من القرن العشرين ، تعزز ذلك الوجود الإسلامي الجديد ، من خلال هجرة المسلمين إلى الغرب ، واعتناق الإسلام من جانب بعض سكان الغرب ، فهناك الآن في أوروبا ككل ، عشرون مليون مسلم ، منهم ثمانية ملايين في أوروبا الغربية ، ولا يدخل في هذا العدد المسلمون في الجمهورية التركية، الذين يبلغ عددهم حوالي خمسين مليوناً ، كذلك ، هناك مساجد جديدة يتم بناؤها ، من « ميونيخ » إلى « مارسيليا » .

ومن المفارقات أن التغريب الثقافي للعالم الإسلامي ، كان من بين أسباب الأسلمة السكانية للغرب ، فقد أسهم تغريب المسلمين في « تسرب العقول » ، والذي اجتذب المهنيين والخبراء من أوطانهم في البلدان الإسلامية ، إلى الوظائف والمؤسسات التعليمية في أمريكا الشمالية والاتحاد الأوروبي ، ومن ثم ، فقد أطلقت الإمبراطورية الرسمية القديمة للغرب ، العنان لحدوث اختراق سكاني مضاد، حيث تم اجتذاب بعض من أفضل المسلمين تأهيلاً في العالم ، إلى المراكز المهنية في الغرب .

إلا أنه ، بأي حال من الأحوال ، لم يكن كل المهاجرين المسلمين إلى الغرب، من المؤهلين تأهيلاً عالياً ، ذلك أن تراث الاستعمار الغربي قد يسر هجرة المسلمين ذوي المؤهلات الأدنى ، من أماكن كبنجلاديش والهند وباكستان والجزائر ، إلى بريطانيا وفرنسا ، وهو ما يعتبر ، مرة أخرى ، اختراقاً سكانياً مضاداً ، فيما بعد الاستعمار ، بل إنه في بعض الأحيان ، قام الغرب ، عن قصد ، بسبب الحاجة إلى العمل الرخيص ، بتشجيع هجرة المسلمين الأقل تأهيلاً ، كما حدث في استقدام العمال الأتراك إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية في الستينيات والسبعينيات .

وهناك مظهر آخر للأسلمة السكانية للعالم الغربي ، حيث يوجد الآن أكثر من ألف مسجد ومركز قرآني في الولايات المتحدة وحدها ، بالإضافة إلى الجمعيات المهنية للمهندسين المسلمين والعلماء الاجتماعيين المسلمين والمعلمين المسلمين ، وهناك أيضاً حوالي ستة ملايين مسلم أمريكي ، ويتزايد العدد بصورة مدهشة ، بحيث أنه بنهاية القرن العشرين ، سوف يفوق المسلمون اليهود ، من حيث

العدد، في الولايات المتحدة ، فالإسلام حالياً ، هو أسرع الأديان نمواً في أمريكا الشمالية [١] .

وفي فرنسا ، يأتي الإسلام في المرتبة الثانية ، من حيث أتباعه ، بعد الكاثوليكية ، ذات العدد الأكبر من الأتباع ، وفي بريطانيا ، يحاول بعض المسلمين إقامة برلمان لهم ، ويطالب آخرون بدعم من الدولة للمدارس الإسلامية ، كما أدركت جمهورية ألمانيا الاتحادية ، مؤخراً ، أن استقدام العمال الأتراك في السبعينيات ، كان أيضاً دعوة للمؤذنين والمآذن لكي ترسخ وضعها في المدن الألمانية، كما اكتشفت أستراليا أنها تجاور أكبر بلد إسلامي من حيث عدد السكان (إندونيسيا) ، واكتشفت أيضاً أن هناك وجوداً إسلامياً في كيانها السياسي نفسه.

لقد كانت اليهودية والمسيحية والإسلام ثلاث ملل إبراهيمية في تاريخ البشرية ، وفي القرن العشرين ، يوصف العالم الغربي غالباً بأنه حضارة مسيحية يهودية ، وهو ما يربط الغرب ، بالتالي ، باثنتين فقط من الديانات الإبراهيمية ، ولكن ، إذا كان المسلمون سيفوقون اليهود ، من حيث العدد ، في القريب العاجل ، في بلد كالولايات المتحدة ، فربما يحل الإسلام محل اليهودية ، باعتباره الدين الإبراهيمي الثاني الأكثر أهمية بعد المسيحية ، كذلك ، فإن الإسلام سوف يلقي بظلاله ، من الناحية العددية ، على اليهودية في معظم بلاد الغرب ، بغض النظر عن سياسات الهجرة في المستقبل .

ومن هنا ، جاء التساؤل حول الكيفية التي ينبغي تناول الإسلام بها في فصول الدراسة والكتب الدراسية وأجهزة الإعلام بالغرب ، في ظل تحول الإسلام ليصبح بدرجة أكبر ، جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الغربي ، وإذا كان التعليم في العالم الإسلامي قد أصبح غربياً إلى حد كبير ، فهل آن الأوان الآن لكي يصبح التعليم الغربي إسلامياً جزئياً ؟

إن قصة الاختراق المتبادل الإسلامي الأوروبي ستظل دون نهاية ، فهل هذه بداية جديدة للعولمة ؟ ، أم أنها مجرد مظهر آخر لحالة ما بعد الاستعمار في التاريخ العالمي ؟ ، في الواقع ، ربما كان الاثنان معاً .

* * *

---

(١) " Amid Islam" Growth in the U . S . Muslims Face A Surge of Attacks , " New York Times , August 28 , 1995 .

الفصل الثالث

الدين والسياسة : المسيحية والإسلام
في الخبرة السياسية الإفريقية

الفصل الثالث

الدين والسياسة : المسيحية والإسلام في الخبرة السياسية الإفريقية

ترجمة : محمد عاشور مهدي (*)

● **مقدمة :**

هل تضاءل أثر الدين في المجتمعات النامية ؟

البادي الآن : إن نظريات التحديث وافتراضاتها عن الأفول الوشيك للدين في المناطق النامية ثبت بدرجة كبيرة عدم صحتها ، من خلال الدليل العملي المتمثل في التكيف العجيب للدين (١) . فالاعتقاد في الآخرة والإله ، عوامل مؤثرة في شكل السلوك على الأرض (٢) .

وفي بعض الأحيان ، فإن هذه الأشكال من السلوك تكون متناقضة . وانطلاقاً من حقيقة أن الإسلام يلعب دوراً رئيسياً في الشئون الإفريقية ، فإن هذا المقال سوف يناقش بعض تناقضات علاقة الإسلام بالمسيحية في الخبرة الإفريقية ، وسنعرض في هذا المقام لأثر الاستعمار على علاقة الإسلام بالمسيحية ؛ التفاعل بين

(*) محمد عاشور : مدرس مساعد بقسم النظم السياسية والاقتصادية ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة .

(١) راجع فى ذلك :

Steve Burce (ed .) , Religion and Modernization : Sociologists and Historians Debate The Secularization Thesis (Oxford and New York . Clarendon press and Oxford University press , 1992) .

Rabbi Jonathan Sacks , The Persistence of Faith : Religion Morality & Society in Secular age (Landon : Weidenfeld and Nicolson , 1991), and Edward Tiryakian , " From Modernization to Globalization " , Journal for The Scientific study of Religion , Volume 31 , (September 1992) , PP . 304 - 310 .

(٢) لأمثلة على علاقة الدين بالانبعاث القومى انظر :

Mark Juergensmeyer , The New Cold War : Religious Nationalism Confronts The Secular Stata (Berkeley : University of Calfornia Press , 1993) .

الدين من ناحية والعلاقات المدنية - العسكرية من ناحية أخرى ؛ أثر الثقافة الدينية على مستويات العنف الاجتماعي ؛ علاقة الثقافة الدينية بانتشار وباء « الإيدز » في إفريقيا .

وتجدر الإشارة إلى نقطتين : أولاً : أنني - في بعض الأحيان - استخدم مصطلح « إسلام » هنا بشكل مجازي ليعني أتباع الدين وليس المذاهب الأصلية للدين بالضرورة . ثانياً : لتيسير عملية التحليل ، فإننا قد نلجأ إلى مقارنات مع دول ومجتمعات غير إسلامية وغير إفريقية ، على أنه سيظل تركيزنا منصباً على التفاعل بين الإسلام والمسيحية في الخبرة الإفريقية .

● بين الإيمان والاختلاف :

إن العلاقة بين الإسلام والمسيحية يمكن أن تكون صراعية كما تبدو حالياً في بعض مناطق وادي النيل ، أو تنافسية كما تظهر في شرق إفريقيا ، أو تقدم على قبول الآخر كما هو الغالب في بعض الدول مثل تنزانيا . فالمسيحية والإسلام يدخلان في علاقات تصارعية عندما تتصاعد العداءات ، حيث يتمثل الدينان العظيمان ظلال الحروب الصليبية . وتكون العلاقة تنافسية بين المسيحية والإسلام حينما يتباريان في سوق مفتوحة من القِيَم والمبادئ ، ويتدافعان في الدعوة إلى دينهم دون الوصول إلى مرحلة العداء ، وتكون المسيحية والإسلام في علاقة تآلف، حينما يقبل كل منهما الآخر بوصفه طريقة متمايزة للوصول إلى حقيقة متقاربة (واحدة) ، وسبل مختلفة لغاية واحدة مشتركة ، وعلى أقل تقدير فإن روح القبول بالآخر ناتجة عن قاعدة : « عش ودع غيرك يعيش » ، وفي أقصى صورها فإن روح التآلف تعني روح التعاون . ويقع الحوار الإسلامي المسيحي موقعاً وسطاً بين الاثنين .

وسواء كانت العلاقة صراعية ، تنافسية ، أو علاقة تآلف ، فإنها تتحدد بثلاث قوى هي : أهمية العقيدة ، التوازن الاجتماعي في مجتمع ما ، الشرعية التاريخية في هذا المجتمع المعني .

فالقوى العقائدية ، والاجتماعية ، والتاريخية تساهم في تحديد العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في أي مكان من العالم .

وفي إفريقيا فإن هذه الثنائيات الثلاثية (الصراع - التنافس - التعاون ، من جانب ، العقيدة - المجتمع - التاريخ من جانب آخر) تجد فاعليتها في إطار ثلاثية

أخرى ، هي الميراث الثلاثي لإفريقيا القرن العشرين ، الناجم عن الحضارة المحلية والحضارة الإسلامية والحضارة الغربية .

فإفريقيا القرن العشرين قد تأثرت بهذه الحضارات الثلاث . فالمسلمون من شعوب نيجيريا ، مصر ، إثيوبيا ، يبلغون معاً (١٤٠ مليون نسمة) ، يمثلون أكثر من ربع إجمال عدد سكان قارة إفريقيا ككل . ويوجد في نيجيريا مسلمون أكثر من أي دولة عربية بما في ذلك مصر . وفي عام (١٩٩٤م) احتفلت جنوب إفريقيا ليس فقط بأول انتخابات ديمقراطية تشترك فيها إثنيات متعددة ، ولكن أيضاً بالذكرى الثلاثمائة لوصول أول مجموعة إسلامية وافدة إلى البلاد . وهي الأقلية الدينية التي أثبتت مرونة وتكيفاً تاريخياً بأكثر مما كان متوقعاً ، كما شهد عام (١٩٩٤م) انتخاب أول رئيس مسلم في مالاوي . وكان التراث الثلاثي لإفريقيا، الذي يتكون من الثقافة الوطنية ، الإسلام ، الثقافة الغربية ، في بعض الأحيان مصدراً للثراء الثقافي ، كما كان سبباً في أحيان أخرى للتوترات الاجتماعية والسياسية ، وفي إطار ذلك السياق للتراث الثلاثي دخلت المسيحية والإسلام في صراعات تارة، وفي منافسة شريفة تارة أخرى ، وكان لديهما مجالات فكرية متزايدة تعبر عن التعاون المتآلف تارة ثالثة .

وجاء التأثير الغربي عبر الاستعمار بشكل أساسي ، وكان لهذا أثره المباشر على مستقبل كل من المسيحية والإسلام ، والثقافة الوطنية في إفريقيا . حيث أصبح حجر الأساس في سياسة بريطانيا الاستعمارية في إفريقيا هو مذهب لوجارد عن « الحكم غير المباشر » . وذلك بالسيطرة على الشعوب التابعة من خلال «سلطاتهم أو مؤسساتهم المحلية » [كالمهراجا في الهند ، الأمراء في شمال نيجيريا ، الكاباكا (الملك) في البوجاندا) .

وعند تطبيقه في إفريقيا ، كان الحكم غير المباشر في صالح الإسلام في هذه المناطق التي أسلمت بالفعل قبل وصول البريطانيين إليها ، لكن كان في صالح المسيحية في المناطق التي كانت تسودها الديانات الإفريقية التقليدية . وهكذا ، عزز الحكم غير المباشر الإسلام في شمال نيجيريا (التي تدين بالإسلام منذ ما قبل الاستعمار) ، ولكنه عزز المسيحية في « بوجاندا » ، وجنوب السودان ، حيث كانت العادات والتقاليد التقليدية هي السائدة .

ولكن بأي السبل عزز الحكم البريطاني غير المباشر الإسلام أو المسيحية ؟ لقد تمثلت إحدى الاستراتيجيات المتطرفة في إبقاء الإسلام بعيداً تماماً عن مناطق معينة.

وهو ما جسدته سياسة بريطانيا في جنوب السودان خلال الحقبة الاستعمارية ، حيث حظرت أي نشاط للدعوة الإسلامية في الجنوب .

وفي شمال نيجيريا لم يُشجع الحكام البريطانيون القيام بأعمال تنصير في المناطق الإسلامية في الشمال مثل « سوكوتو » ، « زاريا » ، ولكنهم سمحوا بالتنصير في تلك المناطق الشمالية التي لم تخضع كلية للإسلام .

أما في بقية الأجزاء الأخرى من إمبراطوريتها في إفريقيا ، فقد ساعدت بريطانيا المسيحية من خلال تقديم التسهيلات والدعم للمدارس التبشيرية والبعثات التبشيرية الطبية ، كما أن السياسة اللغوية البريطانية كانت لصالح المسيحية ، وليست لصالح الإسلام ، حيث ساهمت بريطانيا في تطوير عدد من اللغات الإفريقية ، ووضعت القواعد الهجائية لها . وكان للمبشرين دور أساسي في هذا المضمار . كما تُرجم «الإنجيل» للعديد من اللغات الإفريقية مقارنة بالقرآن .

فهل أدت آثار الحكم غير المباشر فيما بعد الاستقلال إلى تعزيز الصراع والتنافس أم التعاون بين المسيحية والإسلام ؟ ربما يرى البعض أن معظم التداعيات « الدرامية » في مرحلة ما بعد الاستقلال كانت صراعية . ففي السودان كانت السياسات الاستعمارية القائمة على الفصل الاثنى - الديني بين الشمال والجنوب أحد الأسباب الرئيسية في نشوب الحرب الأهلية الأولى في السودان (١٩٥٥ - ١٩٧٢م) ، وعامل مساعد في الحرب الأهلية الثانية التي بدأت في (١٩٨٣م) وما زالت محتدمة .

كما أن السياسات البريطانية للحكم غير المباشر في نيجيريا قد عمقت بلا شك الانقسام بين الشمال والجنوب في البلاد ، كما فاقمت من التوترات الإثنية والطائفية . لكن السياسات البريطانية كانت أكثر احتراماً للإسلام والثقافة الوطنية من سياسات أي قوة أوروبية أخرى في إفريقيا ، ومع ذلك فإن الامتيازات البريطانية الممنوحة للمؤسسات الوطنية قد شكلت عقبة أساسية ، في مرحلة ما بعد الاستعمار ، في إطار الحدود الاصطناعية التي خلقتها حقبة الاستعمار .

على الجانب الآخر ، فإن السلطات الاستعمارية الفرنسية ، قد ركزت بدرجة كبيرة على سياسة الاستيعاب . ففي سعية الطموح فكر الاستعمار الفرنسي في تحويل الأفارقة إلى رجال فرنسيين ونساء فرنسيات . ونظراً لأن الشعب الفرنسي

طوال تاريخه لم يكن مسلماً ، فإن سياسة الاستيعاب كانت تعني ضمنياً معارضة الإسلام ، وإعلان الحرب الثقافية على التقاليد الوطنية .

وعلى أية حال ، فإنه باستثناء شمال إفريقيا ، فإن سياسة فرنسا الاستيعابية قد أثرت بعمق على الثقافات الوطنية ، أكثر من تأثيرها على الإسلام ، فللمفارقة أن سياسات الاستيعاب قد أضعفت مقاومة الوطنيين للإسلام ، وبالتالي ساعدت على انتشار الإسلام في غرب إفريقيا .

ذلك أنه إذا كانت سياسة الاستيعاب الفرنسية قد جعلت الأفارقة يخجلون من ثقافاتهم الأصلية ، فإن ذلك لم يكن يعني بالضرورة جعلهم فرنسيين ، لذا استمر الإسلام في الانتشار حتى في أكثر المستعمرات خضوعاً لفرنسا كالسنغال ، التي نظر إليها الفرنسيون كنموذج لثقافتهم وجزء منها ، حيث استعمروها لأكثر من قرن .

أما بقية البلدان الإسلامية في منطقة إفريقيا الفرنسية الغربية بما في ذلك السودان الغربي (مالي الآن) ، النيجر ، غينيا (كوناكري) ، أجزاء من ساحل العاج ، موريتانيا في الشمال الغربي ، فقد أفادت سياسة الاستيعاب الفرنسية - دون عمد أو قصد - الإسلام وخدمته في بعض الأحيان .

هذا الترتيب الخاص بالعقيدة ، والمجتمع ، والتاريخ ، إبان الحقبة الاستعمارية كان له تداعيات في مرحلة ما بعد الاستقلال ، بعض هذه التداعيات جدلية ، مليئة بالمتناقضات ، والمفارقات Paradoxes ، لا سيما آثار هذه التداعيات على صعيد الخبرة السياسية في مرحلة ما بعد الاستعمار ، وهو ما سنعرض له حالاً لإيضاح كافة المفارقات المرتبطة بها .

● في الحكم والثقافة الدينية :

أول المفارقات في مرحلة ما بعد الاستعمار نجدها مثيرة ومزعجة ، فاتنة ومقلقة، وتتمثل هذه المفارقة فيما يلي :

إن الإسلام في الزي العسكري (العسكريون المسلمونّ) في إفريقيا ، ما بعد الاستعمار ، أكثر قمعاً من المعتاد ، وأن الإسلام في الرداء المدني في إفريقيا أكثر تسامحاً من المعتاد . فالإسلام المسلح في إفريقيا شديد الاستبداد ، والإسلام المدني شديد التسامح .

لكن ما حقيقة هذا الأمر ؟ وما أسباب ذلك ؟ وما نتائجه ؟

لقد كانت أزهى فترات الحرية ، في نيچيريا، في ظل الإدارة الإسلامية المدنية ، كما كانت أقسى صور المجتمع القمعي ، في بيچيريا ، في ظل الإدارات العسكرية المسلمة .

لقد أخذ الحكام المدنيون المسلمون النيچيريون البلاد إلى أبعد درجات الانفتاح والحرية ، حتى إن نيجيريا كانت في وقت ما على حافة الفوضى . وفي المقابل فإن الحكام العسكريين النيجيريين في الزي المدني قد تمادوا في قمع البلاد حتى دخلت بوابة الطغيان . أما حكام نيجيريا غير المسلمين فقد كانوا مسيحيين .

وفي كل مرة تجري انتخابات مدنية حرة في نيچيريا تسفر عن رئيس حكومة مدني أو رئيس دولة مسلم . وكانت أعظم فترات انفتاح المجتمع النيجيري في ظل حكم الشيخ شاجاري [1] . ففي عهد شاجاري ، أُطلقت الحريات السياسية، وكانت الحرية الاقتصادية بمثابة ترخيص للنهب . وربما تعد فترة حكم شاجاري (١٩٧٩ - ١٩٨٣م) أعظم سنوات حرية التعبير في نيجيريا في القرن العشرين . فكل الاتجاهات ، مهما قل شأنها ، كان يمكنها أن تعبر عن رأيها بشكل مطلق . كما كان رئيس الدولة موضوعاً للعديد من الألقاب والنعوت الساخرة ، من الشيخ إلى الشيطان ، من المعلم إلي الوحش (المسخ) [2] ، كما أن اختيار الصحف والجرائد ما بين اليمين واليسار ، أو قرارها بالاستمرار في الصدور أو التوقف ، كان يعتمد على قوى السوق أكثر من اعتماده على القمع والقهر . ولقد كانت الصحف ، بدرجة أو بأخرى ، أدوات في السياسة الحزبية ، وبناء على ذلك ، كانت متحزبة بدرجة كبيرة ، كما يشير أدجون أجباچى Adigun Agbaja :

---

(١) لمزيد عن حياة شاجارى وسيرته الذاتية انظر :

David Williams , President and Power in Nigeria : The Life of Shehu Shagari (London and Totowa , Nj : F , Cass , 1990) and A . Okion Ojigbo , Shehu Shagari : The Biography of Nigeria's First Executive President (Lagos , Nigeria : Tokion Co. , 1982) .

(٢) حول تفاصيل التهجم على شاجارى انظر :

Adigun Agbaja , " Freedom of the Press and Party Politics in Nigeria : Precepts , Retrospect and prospects ; African Affairs , Volume 89 (April , 1990 , P 211 .

« لقد كانت طباعة الصحف أحد الأدوات الهامة في الصراعات الحزبية التي حطمت الجمهورية الثانية » [١] .

وفى الناحية الأخرىٰ ، فإنه في ظل الحكام العسكريين المسلمين ، قاست نيجيريا القمع الوحشي . وكان أهدأ الحكام العسكريين في نيجيريا هم المسيحيون - وبخاصة الجنرال يعقوب جوون (رئيس الدولة في الفترة ١٩٦٧ - ١٩٧٢م) ، والجنرال أولسيجون أباسونجو (رئيس الدولة في الفترة ١٩٧٦ - ١٩٧٩) . ولقد كان أباسونجو القائد النيجيري الوحيد الذي تخلى طواعية عن السلطة لحكومة بديلة منتخبة بحرية .

ويمكن القول : إن درجات الحرية قد تباينت من نظام حكم إلى آخر في نيجيريا، وكما تشير بيانات مؤسسة بيت الحرية (Freedom House) عن ترتيب السياسة والحقوق المدنية في نيجيريا في الفترة من (١٩٧٢ - ١٩٩٤م) [٢] ، فإن فترة شاجاري قد شهدت أعلى الدرجات في كل من الحقوق السياسية والحقوق المدنية ، وحتى في ظل حكم يعقوب جوون وأباسونجو كانت نيجيريا أفضل مما هي عليه في ظل حكم كل من بابا نجيدا وأباتشي .

أما الصومال فقد كانت قبل أن يحكمها العسكر ، واحدة من أكثر الدول

---

(١) Ibid, p 223.

(٢) يرصد بيت الحرية Freedom House ، ومقره نيويورك ، درجات لكل من مستوى الحقوق السياسية ، والحقوق المدنية (أو ما نسميه الحريات المدنية) فى العديد من البلدان ، ينشرها بعد ذلك فى دليل الحرية الذى يصدر فى دورية « الحرية » Freedom عدد يناير / فبراير من العام بحيث يتناول الوضع فى العام السابق ، وتؤخذ الدرجات من المنبع ، وعلى الرغم من عدم دقة هذا الدرجات إلا أنها توفر قاعدة ملائمة للمقارنة منذ عام ١٩٧٢ . وتعتبر أفضل الحالات هى الحاصلة على درجة (١) فعلى صعيد الحقوق السياسية يعنى ذلك الرقم أن الأفراد يلعبون دوراً فاعلاً ، ويقومون بجانب رئيسى فى أختيار نظامهم السياسى الحاكم ، ويشير كذلك إلى وجود تعدد حزبى ، ومعارضة معتبرة وتداول للسلطة عبر الانتخابات.

ومن ثم تشير الحقوق السياسية إلى قدرة الشعب على أختيار قادته بحرية ، ويعنى رقم (١) على صعيد الحقوق المدنية حرية الأفراد فى التعبير عن آرائهم ، وسيادة حكم القانون ، والتحرر من القمع السياسى (التعذيب ، السجن لأسباب سياسية) ، حرية العقيدة ، حرية الانتماء للمنظمات التطوعية حرية الانتقال والعمل. وهذا التعريف مستمد من .

Reymond Gastil , " The Comparative Survey of Freedom - VII ," Freedom At Issue , 39 (January / February 1977) : 5 - 8 .

ديمقراطية ليس في إفريقيا فحسب بل في أي مكان في العالم ، حيث برز نوع من الديمقراطية الرعوية بعد توحد كل من الصومال الإيطالي والبريطاني وقيام الصومال المستقل في يوليو (١٩٦٠م) (١) .

واستمر هذا المجتمع الديمقراطي أقل من عقد من الزمان . ففي ٢١ أكتوبر (١٩٦٩م) قام نظام عسكري ، ولعقدين من الزمان أصبحت البلاد قطعة شطرنج في الحرب الباردة الدائرة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية في القرن الإفريقي ، تتبادل الانتقال ما بين الطرفين ، وقد استمر سياد بري العسكري في السلطة كديكتاتور عسكري ، متمادياً في القمع أكثر فأكثر حتى أُجبر على مغادرة البلاد في يناير سنة (١٩٩١م) (٢) .

ومرة أخرى يكشف صومال ما بعد (١٩٦٩م) عن أن الحكام المسلمين ذوى الزي العسكري في إفريقيا عادة أكثر قمعاً من المعتاد ، في حين أن صومال ما قبل (١٩٦٩م) يؤكد افتراض أن الحكام المسلمين المدنيين في إفريقيا كانوا أكثر تسامحاً من المعتاد .

وتعد السودان حالة أكثر تعقداً . فجنوب السودان منذ عام (١٩٥٥م) في حالة اضطراب ما أن يخمد حتى يعاود الظهور من جديد ، والغالبية العظمى من سكان الجنوب غير مسلمين .

والجزء الأكبر في السودان هو الشمال السوداني المسلم ، وفي الشمال تصدق

---

(١) من الكتابات المفيدة عن تاريخ الصومال وسياساته منذ الاستقلال .

I . M Lewis , A Modern History of Somalia : Nation and State in Horn of Africa . (Revised , updated and expanded edition) (Boulder , Co : Westview Press ; 1988) .

(٢) انظر تفاصيل القمع فى الصومال فى :

Jama M . Ghalib , The Cost of Dictatorship : The Somali Experience (New York , NY : L . Barber , 1995)

وحول علاقاتها بالحرب الباردة انظر :

Gerry O'Sullivan , " Another Cold War Casualty " , The Humanist Volume 53 , (January / February 1993) , pp 36 - 7 .

حقيقة أن السلطة المدنية المسلمة تسامحية على نحو بعيد - بغض النظر عن الحرب الأهلية في الجنوب - [(١)] .

ومثل العديد من البلدان الإفريقية الأخرى ، فإن السودان قد خبرُت كلا من نظم الحكم العسكرية والمدنية [(٢)] . في ظل الحكم المدني في السودان لم يُعرف الاعتقال السياسي حقيقة ، ولم يكن التفكير في دولة الحزب الواحد وارداً ، ولم تقم أبداً أي محاكمات سياسية ، ولم تقع أي اغتيالات سياسية .

وعلى الجانب الآخر ، فإن الحكومات العسكرية في السودان قد بدأت بداية هشة نسبياً ، فالجنرال إبراهيم عبود الذي استولى على السلطة في نوفمبر عام (١٩٥٨م) كان أول حاكم عسكري في إفريقيا يتم إقصاؤه من خلال مظاهرات شعبية في أكتوبر - نوفمبر عام (١٩٦٤م) ، لقد كان نظاماً شديد الهشاشة حتى إنه ترك نفسه ليطاح به من خلال المدنيين الغاضبين .

ومرة أخرى كان النظام المدني التالي متعدد الأحزاب في السودان متسامحاً ، إلا أن هذا الهدوء النسبي انتهى في مايو عام (١٩٦٩م) ، عندما قام العقيد محمد نميري، يساري حينذاك ، بالإطاحة بالمدنيين وإقامة ما عرف بالمجلس الثوري .

وأصبح نميري نفسه رئيساً بالانتخاب في عام (١٩٧١م) ، ثم قام بعد ذلك بحل المجلس الثوري ، وأنشأ تنظيم الاتحاد الاشتراكي السوداني كحزب سياسي شرعي وحيد .

وعلى عكس النظام العسكري لإبراهيم عبود (١٩٦٤ - ١٩٦٩م) لم يكن نظام نميري العسكري بنفس درجة الهشاشة ، فمن وجهة نظر المتدينين كانت أفظع

---

(١) أعاقت الحرب الأهلية عملية التوطين سواء بالقوة أو عبر الوساطة . لمزيد انظر :
M . W . Daly and Ahmed A . Sikainga , (eds) , Civil War in the Sudan (London and New York : British Academic Press , 1993) .

وانظر أيضاً :
Dunstion M . Wai , The African - Arab Conflict in Sudan (New York : African Pub Co , 1981) .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول مختلف أنظمة الحكم فى السودان راجع .
Muddathir Abd Al - Rahim et al (eds) , Sudan Since Independance Studis in the Political Development since 1956 (Aldershot UK and Brook- field , VT : Gower , 1986) .

أعمال النظام الحاكم هي إعدام محمود محمد طه - الرجل المسن - بتهمة الهرطقة والردة . وعلى الجانب الآخر أجرى نميري مباحثات ، ووصل إلى اتفاق «أديس ابابا » مع السودان الجنوبي في (١٩٧٢م)، ومنح السودان الجنوبي عقداً من السلام. إلا أن نظام نميري كان هشاً بما يسمح بالإطاحة به من السلطة عبر مظاهرات شعبية في شوارع الخرطوم في (١٩٨٥م) .

وبعد فترة انتقالية قصيرة للمجلس العسكري المؤقت - لمدة عام بقيادة الجنرال سوار الذهب من إبريل (١٩٨٥م) حتى إبريل (١٩٨٦م) ، عادت السودان مرة أخرى إلى الحكم المدني بقيادة الصادق المهدي كرئيس للوزراء ، وكان من المتوقع أن يكون نظام الحكم المدني الإسلامي أكثر تسامحاً من المعتاد .

وبمقياس بيت الحرية - سالف البيان - تمتعت السودان بأعلى درجات الحقوق السياسية في الفترة (١٩٨٦ - ١٩٨٨م) ، حيث حصلت على أربع درجات ، لكن درجات الحقوق الاجتماعية لم تتغير نسبياً عن الفترات السابقة ، رغم أنها كانت أفضل منها في الحقبة الأولى لنميري .

ولسوء الحظ لم تستمر الحقبة المدنية طويلاً ، ففي ٣ يونيو (١٩٨٩م) تمت الإطاحة بحكومة الصادق المهدي بواسطة انقلاب الجنرال عمر حسن أحمد البشير، الذي أثبتت حكومته أن الحكام المسلمين في الزي العسكري أكثر قمعاً من المعتاد ، فنظام حكم البشير هو الأكثر قسوة وعنفاً من كافة نظم الحكم العسكرية التى عرفتها السودان ، ويدعى هذا النظام أنه الأكثر وعياً بالإسلام .

ويشير مقياس درجات الحقوق السياسية والاجتماعية في السودان إلى أن الفترة من (١٩٨٩ - ١٩٩٤م) هي الأسوأ في تاريخ هذين النوعين من الحقوق . فقد وصلت الدرجات إلى أسوأ معدلاتها على المستويين ، الأمر الذي يعني أن الوضع في ظل حكومة البشير هو الأسوأ حتى من وضع السودان في ظل حكم نميري ، الذي كانت درجة السوء (٦ درجات) أقل منها في عهد البشير . ويقدم لنا السودان بناء على ما سبق نموذجاً لكلا الجانبين من التفسير الثنائي المتمثل في أن السلطة المسلمة في الثياب المدنية أكثر تسامحاً ، وأن السلطة الإسلامية في الزي العسكري أكثر قمعاً .

أما أوغندا فقد عرفت الحاكم العسكري المسلم ، إلا أنها لم تعرف الحاكم المسلم

في الثياب المدنية . ومع ذلك فإن نصف افتراضنا ما زال قائماً ذلك أن الحاكم العسكري المسلم في أوغندا كان أكثر قمعاً من العسكريين المسيحيين الذين حكموا أوغندا . فعيدي أمين (١٩٧١ - ١٩٧٩م) قد أحدث من الخسائر لأوغندا ما لم يحدثه أي حاكم آخر ، عسكرياً كان ، أو مدنياً [١] .

ويدعي البعض أن إدارة ميلتون أوبوتي الثانية كانت على درجة من السوء إن لم تكن أسوأ من حكم عيدي أمين ، وربما قد قتل الكثير من الشعب في ظل إدارة حكم أوبوتي الثانية (١٩٨١ - ١٩٨٦م) ، إلا أن علينا أن نتذكر أنهم قد ماتوا من الحرب الأهلية بذات الدرجة من الطغيان ، أما أكثر مذابح عيدي أمين فكانت راجعة للطغيان أو الفوضى [٢] . وعلى أية حال فإن أوبوتي ذاته لم يكن حاكماً عسكرياً [٣] .

وتشير بيانات مقياس الحقوق السياسية والمدنية إلى أن أوغندا في ظل عيدي أمين شهدت أسوأ درجات الحرية ، حيث تراوحت ما بين (٧ ، ٦) درجات لكل من الحقوق السياسية والحقوق المدنية . على الجانب الآخر ، فإن أوغندا في ظل «أوبوتي» ونظم الحكم التالية كانت أفضل نسبياً ، حيث تراوحت درجة المقياس ما بين (٦ ، ٤) درجات في السنوات التالية للإطاحة بعيدي أمين .

وفي مالاوي تولى السلطة حاكم مسيحي يدعى الورع « هو هستنجز ، باندا » ، ويتولاها الآن رئيس مسلم يُدعى « باكيلي مولوزي » الذي انتخب كرئيس لمالاوي في ١٧ مايو (١٩٩٤م) .

وقد ظل باندا في السلطة من (١٩٦٤ إلى ١٩٩٤م) ، أي أنه استمر حاكماً لمدة ثلاثين عاماً ، بشكل تعسفي . وكان واحداً من أسوأ حكام إفريقيا في مرحلة ما

---

(١) عن أوغندا فى ظل حكم عيدى أمين انظر :
Martin Jamison , Idi Amin and Uganda : An Annotated Bibliogrophy (Westport , CT : Greenwood Press , 1992) .

(٢) عن أنشطة الكفاح فى أوغندا فى ظل حكم عيدى أمين انظر :
S . M . Semakula Kiwanuka , Amin and the Tragedy of Uganda (Munich : Weltforum Verlag , 1979) .

(٣) حول طبيعة التكرار في السياسة الأوغندية راجع :
Kenneth Ingham , Obote : A political Biography (London and New York : Routledge , 1994) .

بعد الاستقلال . وينتمي « باندا » إلى الكنيسة الاسكتلندية ، وكان شيخاً بالكنيسة وتحت حكم « باندا » انغمست « مالاوي » في ظروف اقتصادية بائسة ووهن سياسي، حيث حكم البلاد بيد من حديد ، ومنع أي معارضة ذات معنى (١) . وفي ظل فترة حكم باندا (١٩٧٢ - ١٩٩٣م) وعلى نحو ما تشير بيانات مقياس «بيت الحرية» ، بلغت درجة مالاوي في معظمها (باستثناء عام ١٩٩٣م) ٧ أو ٦ درجات على متصل الحقوق السياسية والحقوق المدنية . وعلى الجانب الآخر ، فإنه مع اعتلاء « مولوزي » السلطة ، تحسن الوضع فبلغت الدرجات (٢) على صعيد الحقوق السياسية ، و(٣) على صعيد الحقوق المدنية .

والأمر الواضح أن « باكيلي مولوزي » سيكون حاكماً أكثر ديمقراطية بكثير لمالاوي حتى إذا تدهورت مؤشراته الحالية المرتفعة (٢) . فحالة مالاوي إذن تؤكد افتراض أن الحاكم المدني المسلم أكثر تسامحاً .

ويمكن اعتبار تنزانيا عنواناً على تداول الرئاسة بين المسلمين والمسيحيين ، وكان أول من تولى المنصب بالطبع جوليوس . ك . نيريري الذي كان رئيس السلطة التنفيذية منذ الاستقلال عام (١٩٦١م) حتى اعتزاله الرئاسة في (١٩٨٥م) . وكان نيريري رئيساً تنفيذياً خلاقاً وذا قدرات استثنائية (٣) .

أما الرئيس الثاني لتنزانيا فقد كان علي حسن معيني الذي تولى المنصب منذ (١٩٨٥ إلى ١٩٩٥م) ، ولم يصل الرئيس معيني بحال في زعامته أو حيويته أو

---

(١١) انظر :

T . David Williams , Malawi , The Politics of Despair (Ithaca , NY : Cornell University Press , 1978) and Andrew Meldrum , " Legacy of Dictator ; " Africa Report Volume 40 (March / April 1995) , pp 56 - 9 .

(٢) عن انتقال السلطة من « باندا » إلى « مولوزى » انظر :

Mike Hell and Melinda Ham , " From Tyranny to tolerance ", Africa Report Volume 39 (November / December 1994) , pp 56 - 7 .

(٣) من المؤلفات المبكرة عن حكم نيريري :

William E . Smith , Nyerere of Tanzania (London : Gllancz , 1973) .

ومن المؤلفات الحديثة :

Andrew Meldrum , " Julius Nyerere : Former President of Tanzania , " Africa Report Volume 39 (September / October 1994) , pp 70 - 1.

نفوذه إلى ما وصل إليه سلفه جوليوس نيريري ، إلا أن الرئيس مُعيني كان أكثر رأفة وتسامحاً من سابقه ، وكان الرئيس معيني مسلماً .

ونحن الآن في الدورة الثالثة في تنزانيا - حيث يتولى السلطة رئيس مسيحي . وقد تولى « بنيامين ماكابا تشاما تشاما بندوزي » السلطة على الرغم من العديد من صرخات الاستنكار من جانب المعارضة .

وما لم يتغير تحت ضغوط (إغراءات) سلطة الرئاسة ، فإن بنيامين ماكابا سيكون حاكماً رؤوفاً ، ولكن هل سيكون برأفة سابقه المسلم علي حسن معيني ؟ هذا ما سوف نراه .

وتثير حالة السنغال المزيد من الفضول والتساؤلات حول العلاقة بين السياسة والانتماء الديني . ففي تعداد (١٩٨٨م) ظهر أن (٩٤٪) من السكان مسلمين [١] .

فشعب السنغال يضم نسبة مسلمين أكبر من شعب مصر ، ومع ذلك ، فإن هذا البلد المسلم شعبها كله تقريباً قد رأسها رئيس كاثوليكي روماني في حقبة ما بعد الاستعمار ليس لخمس أو عشر سنوات ، بل لعشرين عاماً من (١٩٦٠ - ١٩٨٠)، فقد رأس ليوبولد سيدار سنجور واحدة من أكثر الحكومات حرية في قارة إفريقيا [٢] ، فقد تخطى سنجور الحاجز الديني الضخم في المجتمع - ليس لأن الجميع كان يقدسه ، ولكن لأن مجتمع السنغال من أكثر المجتمعات علمانية . فرغم أن غالبية المجتمع مسلمون ، فإن الإسلام لم يظهر كمنافس لسلطة الدولة ، وإنما كقوة موازنة في المجتمع المدني تُحد من بطش الدولة ، وبالتالي تعمل كرقيب على سلطة الدولة ، فكما يشير فيلالون :

« تتركز الأهمية السياسية للإسلام في السنغال ، في نطاق علاقات الدولة والمجتمع لا في الصراع من أجل السيطرة على الدولة » [٣] .

---

(١) Arthur S . Banks , (ed) , The Political HandBook of the World 1994 - 1995 (Binghamton , NY : CSA Publications , 1995) , p . 758 .

(٢) عن العوامل المختلفة التى أثرت فى سنجور انظر :
Janet G . Vaillant , Black , French and African : A life of Leopold Sédar Senghor (Cambridge , MA : Harvard University Press , 1990) .

(٣) Leanordo A . Villalon , Islamic Socity and State Power in Senegal : Disciples and Citizens in Fatick (New York Cambridge Univeristy Press , 1995) , p 262 .

ولما كانت السنغال مجتمعاً مفتوحاً نسبياً ، فإن سنجور كان موضع العديد من التسميات اللاذعة ؛ « خادم فرنسا » ، « هرطاقي الزنوجة » ، « الداعر السياسي». إلا أنه لم يوصم أبداً بالكفر أو الإلحاد .

فانظر إلى مدى تميز هذا الموقف عن أي موقف سياسي ديني في العالم الغربي، فبعد مرور أكثر من مائتي عام عليها كدولة علمانية ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تفلت سوى مرة واحدة فقط من هيمنة البروتستانت على البيت الأبيض . ولسنا متأكدين عما إذا كان چوون . ف كينيدي قد انتُخب حقيقة ، كل ما نعرفه أنه أصبح رئيساً . فقد كان هناك اضطراب في ولاية « إيلينوي » التي سلبت الفوز من نيكسون (١) ، وكان فوز كينيدي محدوداً إلى حد بعيد .

ولم يتول يهودي رئاسة الولايات المتحدة ، بل إنه لم يتقدم أي يهودي للمنصب وهناك من المسلمين الآن في الولايات المتحدة الأمريكية ما يقارب عدد اليهود بها إن لم يكن أكثر (٢) ، ومع ذلك فإن فكرة رئيس مسلم للولايات المتحدة الأمريكية ما زالت مفهوماً يفزع الأذهان . وبرغم ذلك فقد رأينا كيف حكم السنغال المسلمة رئيس كاثوليكي رومانى لعشرين عاماً ، دون أي اضطرابات في الشوارع أو أي محاولات للاغتيال .

والسنغال الآن بها رئيس مسلم ، إلا أن السيدة الأولى كاثوليكية على المذهب الروماني ، فتخيل أن أحد مرشحي الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية ذاهباً إلى مناظرة تليفزيونية ويعترف بقوله :

« يا للمصادفة ، إن زوجتي مسلمة شيعية »

---

(١) من الدراسات التفصيلية فى انتخابات ١٩٦٠ المشكوك فيها انظر :

Edmund F . Kallina , Courthouse Over White House : Chicago and the Presidential Elections of 1960 (Orlando , FL : University Presses of Florida , University of Central Florida Press 1988) , pp . 96 - 114 .

(٢) أحصى ٥٫٩٤٤ مليون يهودي في الولايات المتحدة الأمريكية في الجدول رقم ٨٠ في :

United State Bureau of the Census , Statistical Abstract of the United States 111 the Edition , (Washington , DC : Government Printing Office , 1991) , p85

وعلى الجانب الآخر يقدر عدد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية بنحو ستة ملايين نسمه .

A New York Times (February 21 , 1989) Section A . p 1 .

فالأحسن للمرشح أن يحزم أمتعته وينسحب من المنافسة باحثاً عن ركن يلعق فيه جراحه . فبكل المعايير فإن المسلمين في السنغال هم الأكثر قبولاً للآخر في القرن العشرين . الأمر الذي مثل عاملاً حيوياً في الاستمرارية الملحوظة للبداية الديمقراطية في السنغال في هذه المنطقة من العالم التي تعاني من ندرة مثل هذه النظم [(١)] .

هل ثمة استثناءات تدحض ذلك التعميم الطاغي بأن الإسلام المدني في إفريقيا أكثر تسامحاً من المعتاد ؟ وهل ثمة استثناء يدحض أن ذلك التعميم المتمثل في أن سلطة الحكم العسكرية المسلمة في إفريقيا أكثر قمعاً من المعتاد ؟

في الواقع هناك استثناءات يُتصور أنها تؤكد القاعدة ، فغينيا « كوناكري » قدمت قائداً مسلماً مشهوراً هو « أحمد سيكوتوري » الذي يعد من أكثر الحكام استمراراً في الحكم في إفريقيا ، حيث استمر رئيساً للدولة في الفترة من (١٩٥٨م) حتى وفاته في مستشفى بالولايات المتحدة الأمريكية في مارس (١٩٨٤م) . وقد وقف سيكوتوري في وجه فرنسا ، وتولى لفترة رئاسة منظمة المؤتمر الإسلامي . ومع ذلك كان واحداً من أسوأ الديكتاتوريين المدنيين الذين عرفتهم إفريقيا فيما بعد الاستعمار ، فقد فر ربع السكان إلى المنفى . وبالرغم من العديد من محاولات الإطاحة - الحقيقية والمزعومة - بحكم سيكوتوري ، فإنه لم يتزحزح من السلطة حتى موته في (١٩٨٤م) [(٢)] .

ودولة « مالي » التي يسودها الإسلام ، قد أفرزت هي الأخرى حكاماً فاسدين سواء كانوا مدنيين أو عسكريين ، ومن ثم فإنها تُعتبر استثناءً آخراً ، حيث لا تتفق مع أطروحة الميل المزدوج .

وتؤكد نظم الحكم المدنية في شمال إفريقيا التعميم الذي توصلتُ إليه ، ففي ظل الحكام المدنيين ، كانت تونس والمغرب على الأقل حتى الآن ، أكثر تسامحاً

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول عوامل تميز التجربة الديمقراطية فى السنغال انظر :
Robert Fatton, The Making of A liberal Democracy :Senegal's Passive Revolution , 1975 - 1985 , (Boulder , Co : L . Rienner Publishers , 1987).

(٢) عن غينيا فى ظل حكم سيكوتورى راجع :
Ladipo Adamolekun , Sekou Toure's Gunea : An Experiment in Nation - Building (London and New York : Methuen; Harper & Row , and Barnes & Noble, 1976) .

من المعتاد ، سواء مقارنة مع معظم الدول الإفريقية الأخرى ، أو مقارنة مع بعض الدول العربية الأخرى .

ومنذ عام (١٩٩٢م) على الأقل يمكن استخلاص أن نظام الحكم العسكري في الجزائر يؤكد الشق الثاني من التعميم ، فالفترة اليسيرة للحرية (الليبرالية) السياسية منذ عام (١٩٨٩م) أجهضت على نحو مفاجئ في (١٩٩٢م) لتؤدي إلى حرب أهلية قاسية ، حيث أصبح النظام أكثر قمعاً من المعتاد .

فالعديد من البلدان ، وبخاصة فرنسا ، كانت مشغولة بالتنبؤات عن تحول الجزائر إلى إيران أخرى [١] .

ولكن ماذا عن مصر ؟ وإلى أي مدى يُعتبر الحكم في مصر عسكرياً ؟ وإلى أي مدى أصبح ذا طابع مدني في ظل استمراريته الممتدة من (١٩٥٢ حتى ١٩٩٥م) ؟. يمكن القول : إن مصر يصعُب تصنيفها - إلا أن نظامها يتفق والتعميم بأن نظم الحكم المدنية أو المتمدنية في إفريقيا أكثر تسامحاً من المعتاد .

وينقسم المراقبون بصدد معمر القذافي في ليبيا . فقد استولى القذافي على السلطة في (١٩٦٩م) ، فهل ازداد نظامه قمعاً عن المعتاد عبر السنوات ؟ أم أنه نظام عسكري سخي خاصة بالمعنى المادي ، وعادل بالمعنى الإيديولوجي ؟ تشير التسعينيات إلى أن تعسفية النظام قد رجحت القول بقمعية النظام ، وتعتبر عملية ترحيل الفلسطينيين والسودانيين في (١٩٩٥م) دليل القمعية في النظام ، كما أن ليبيا تواجه مشكلات مع الإسلاميين [٢] .

● ملاحظات حول الثقافة والعنف :

ليس من الواضح لماذا تقدم إفريقيا دليلاً على أطروحتي ذات الطابع المزدوج والمتمثلة في أن الحكام المسلمين العسكريين أكثر قمعاً ، وأن الحكام المدنيين المسلمين أكثر تسامحاً . ويمكن أن ترتبط هذه الثنائية بثنائية أخرى مفادها : أن المدن

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Edward G . Shirley , " Is Iran's Present Algeria's future ? " Foreign Affairs , Volume 74 (May / June 1995) , pp 28 - 44 .

(٢) راجع : Dennis Sammutt , " Libya and the Islamic Challenge " The World Today , Volume 50 (October 1994) , pp 198 - 200 .

الإسلامية في إفريقيا عادة أقل عنفاً من المدن غير الإسلامية ، إلا أنه من وقت إلى آخر تكون المدن الإسلامية أكثر نزوعاً للتمردات والتظاهرات المسيسة . فالإسلام لا يحث على مشاجرات الشوارع ، ولكنه عادة ما يشعل المظاهرات السياسية النارية .

من أمثلة ذلك : مدينة « كانو » في نيجيريا ، التي يقطنها مسلمون أكثر مما يقطن « إيبادان » ، يوماً بعد يوماً اعتبرت شوارع « كانو » أكثر أمناً من شوارع «إيبادان» من الهجامة واللصوص ، إلا أن « كانو » تنافس حتى « لاجوس » فيما يتعلق بالشغب السياسي .

وفي كينيا تعتبر « ممباسا » - حتى في التسعينيات - مدينة للمسلمين أكثر من «نيروبي» ، وما زالت شوارع « ممباسا » نسبياً تنطق بالأمن أكثر من شوارع «نيروبي» ، إلا أن « ممباسا » بدأت تنافس مدينة العاصمة في الاضطرابات ذات الطبيعة السياسية .

وبالنسبة للنتوء المسلم المحمي حقيقة في « لامو » بشمال شرق كينيا ، فإنه ظل لقرون خالياً من الجريمة بالمعنى الغربي ، فربما كانت هناك العديد من الرزائل المستترة كالزنا وما شابهه ، إلا أنه لم تكن هناك عمليات سطو أو اغتصاب أو قتل وكان السجن خالياً غالباً معظم الوقت قبل الثمانينيات .

ويمكن أيضاً أن نقارن « القاهرة » : أكبر مدينة في شمال قارة إفريقيا - «بجوهانسبرج» أكبر مدينة في الجنوب ، فرغم أن « جوهانسبرج » أقل من سدس سكان « القاهرة » ، فإن معدل العنف والجريمة بها يفوق « القاهرة » ثلاث مرات .

وفي أكبر مدن تنزانيا « دار السلام » التي تعتبر مدينة شبه إسلامية من الناحية الثقافية ، وليس لاسمها العربي ، لا يعدو معدل الجريمة جانباً ضئيلاً من معدل الجريمة في « كينشاسا » « بزائير » قبل (١٩٩٧م) .

وخارج إفريقيا في « طهران » التي تقارب في الحجم مدينة « نيويورك » من حيث السكان - ١٠ ملايين نسمة - وتحديداً في (١٩٩٣م) شُوهد في « طهران » نساءٌ وأطفال يتنزهون في الحدائق العامة في وقت متأخر من الليل ، كما شُوهدت ظاهرة مماثلة لعدم الخوف من الشوارع ليلاً في ثلاث مدن إيرانية أخرى .

والخلاصة التي يمكن الخروج بها مما تقدم كله أنه من ناحية تأمين (أمن) الشوارع من العنف اليومي ، كالسطو ومضايقات بائعي المخدرات ومتعاطيها ، كان

الإسلام قوة أمان في المدن الإفريقية ، إلا أنه من ناحية الاضطرابات المسيسة والمظاهرات واحتمال العصيان المدني ، فيمكن أن يكون الإسلام قوة تأجيج ، وسواء ارتبطت هذه النقطة أم لا بالطرح الثنائي الذي نقدمه عن الإسلام في الزي العسكري في مقابل الإسلام في الثياب المدنية ، فإنه تتبقى نقطة ينبغي توضيحها .

● الإسلام ومرض فقدان المناعة المكتسبة « الإيدز » AIDS

بعد تناول المدن وطرق المعيشة ، يمكننا أن نعرض للعلاقة بين الإسلام ووباء «الإيدز » في إفريقيا . فلا شك إن العديد من المسلمين ماتوا ، وسيموت بلا ريب غيرهم ، فما من أحد منا محصن ضد هذا المرض المميت ، ولا يدري أحد منا كيف سينتقل إليه الفيروس ؟

لقد ضرب الفيروس إفريقيا بقوة ، فطبقاً لتقديرات منظمة الصحة العالمية (WHO) فإنه في (٣١ ديسمبر ١٩٩٢م) كان بإفريقيا (٧١٪) من إجمال الـ (٥ر٢) مليون مريض بالإيدز في العالم [١] .

إلا أنه حتى الوقت الراهن يشير توزيع انتشار المرض إلى أنه أكثر بكثير في إفريقيا غير الإسلامية ، خاصة الحزام الأوسط من قارتنا ، وجانب كبير من التفسير يرد ذلك إلى مجرد الصدفة التاريخية ، حيث إنها المنطقة التي انطلق منها الفيروس القاتل [٢] .

ولكن يثور تساؤل : هل للعوامل الثقافية صلة بانتشار المرض ؟ وهل تتضمن هذه العوامل الثقافية الانتماء الديني والشعائر (الممارسات) الدينية ؟

فعلى سبيل المثال - تقدر منظمة الصحة العالمية أن عدد الأفراد المصابين بمرض «الإيدز» في شمال إفريقيا والشرق الأوسط يبلغ نحو (٧٥٠٠٠) نسمة ، مقارنة

---

(١) انظر United Nations , Department for Economic and Social Information and Policy Analysis , AIDS and the Demograplhy of Africa (New York : United Nations , 1994) . p . 6 .

(٢) انظر : أحد الأشكال الموضحة للفروق بين الدول في الشكل ٣ - ٢ في :
Tony Barnett and Piers Blaikie , AIDS in Africa : Its Present and Future Impact (New York and London : The Guildford Press , 1992) , ص , 24 .

ولمزيد من التفاصيل عن مناطق متفرقة انظر الفصول من ٢٩ - ٣٣ من كتاب .
Max Essex , et al (eds.) , AIDS in Africa (New York : Raven Press 1994 . pp . 603 - 712 .

بـ (٨) مليون مصاب بالغ في إفريقيا جنوب الصحراء . وعلى الأقل هناك بعض العاملين في مكافحة مرض الإيدز يعتقدون أن الإسلام ربما يلعب دوراً في تعويق انتقال مرض « الإيدز » بسبب « المحاذير الدينية والثقافية القوية بشأن ممارسة الجنس» [١] .

ففي بعض الدول الإفريقية التي يتجاور فيها كل من المسلمين وغير المسلمين ، أظهرت الدراسات أن المسلمين أقل عرضة للإصابة بمرض الإيدز ، فكما يذكر أحد التقارير :

- في ساحل العاج أظهرت الدراسات أن نسبة التعرض للإصابة في المسلمين نصف نسبتها في غير المسلمين تقريباً [٢] .

وهناك اعتبارات دينية - ثقافية ذات صلة بالموضوع منها :

- أن الرجل غير المسلم يمكن أن يكون متزوجاً من زوجة واحدة ، من الناحية القانونية ، لكنه عادة ما يمارس المعاشرة الجنسية مع أكثر من شريكة (التعددية الجنسية خارج إطار الزواج) .

- أن المسلمين الذكور يرتفع احتمال زواجهم من أكثر من امرأة واحدة (تعددية جنسية في إطار الزواج) .

فالتعدد القانوني للزوجات هو تعددية جنسية مع شريكات (زوجات) محددات أما الرجال الأفارقة الذين يتزوجون زوجة واحدة فإنهم قد يمارسون المعاشرة الجنسية عشوائياً خارج بيت الزوجية ، ولا شك أنه ممارسة الجنس دون اتخاذ الاحتياطات، كما في الغرب - يمكن أن تكون أداة تنشر وتشجع انتشار الإيدز) .

فهل الأسلوب القديم الخاص بالتعددية الزوجية أكثر حماية ضد مرض الإيدز من الأسلوب الأحادي في ظل الثقافات التي يصر الذكور فيها على التعددية الجنسية ؟ وهل المسلمون الذين يتزوجون بأكثر من زوجة أكثر مناعة من المسيحيين الذين

---

(١) راجع : Catherine Tastemain and Peter Coles , " Can A culture Stope AIDS in its Tracks ? " New Scientist (September 11 , 1993) .

وبالطبع فإن تقريرها ليس شاملاً أو قاطعاً .

(٢) Ibid .

يتزوجون بزوجة واحدة ؟ إن أحد التحليلات المتوازنة بين المؤيدين والمعارضين لدور تعدد الزوجات في الحيلولة دون انتشار « الإيدز » يشير إلى أن استمرار تعدد الزوجات أو الأشكال البديلة له في إفريقيا له مزاياه ، كما أن له عيوبه فيما يتعلق بالحيلولة دون انتشار وباء « الإيدز » (١) .

ومن ناحية أخرى فإن ممارسة الجنس خارج إطار الزواج في المجتمعات الإسلامية يتخذ أشكالاً أكثر تحفظاً مما يجده المرء في المدن ذات بيوت الدعارة والدعارة المفتوحة المسموح بها أمام الفنادق . فالمرء يمكنه أن يجد الإغراءات الجنسية أمام «لوكاندات» في «مورت هاركورت » أكثر من « كادونا » ، وأن يجدها في « كيب تاون » أكثر من القاهرة ، وفي نيودلهي أكثر من إسلام آباد ، وفي لندن أكثر من الرياض ، أو لو كان البغاء أقل ابتذالاً ويسراً هل يقل خطر انتشار « الإيدز » ؟

إن طريقة زواج الأخ من أرملة أخيه المتوفي ، أو أن يرث الأخ أرملة أخيه قد اندثرت سريعاً بين الأفارقة المسلمين عنها بين غير المسلمين ، وهذه الطريقة شائعة بين العديد من غير المسلمين في إفريقيا ، فأم « نكروما » الأرملة ورثها « عمه » ، وأرملة الزعيم الكيني المغتال « توم موبويا » ورثها أصغر أبنائه (رغم إجراء مراسم احتفال الزواج) . واليوم ، يمكن أن تحمل « الأرملة المُوَرَّثَة » أعراض مرض الإيدز من زوجها الراحل (٢) ، وهكذا تصبح وراثة الأرملة مصدراً ثقافياً إضافياً لانتقال المرض في المناطق التي يحد فيها الدين من ذلك الانتشار ، فإذا ما كان المسلمون قد نبذوا مذهب وراثة الأرملة بصورة مبكرة عن غير المسلمين ، فهل يعني ذلك أن المسلمين محصنون ضد الإيدز ؟

وعلى صعيد آخر ، فإن هناك حظراً شديدا للمخدرات في الشريعة الإسلامية ، وفي بعض الأحيان تم تعزيزها وتدعيمها بتحريم الخمر ، وهو ما يمكن أن يقلل أحد أسباب انتشار « الإيدز » المتمثل في تبادل « إبر » حقن المخدرات المشتركة . كما أن الإسلام يمكن أن يقلل من إغراءات الاتصال الجنسي غير المشروع تحت وقع السُكر .

---

(٣) راجع : Manuel Carballo and Patrick I , Kenya ; " Behavioral Issues and AIDS , " in Max Essex et al (eds.) op cit , p 501 .

(٢) لا شك أن ذلك سوف يزيد من عدد من يعاشرون المرأة المصابة ، انظر :
Idem .

ولكن هل هناك ممارسات للمسلمين يمكن أن تشجع انتشار فيروس الإيدز HIV ومرض الإيدز AIDS ؟ هناك في الواقع بعض العادات الجراحية في الثقافة ، فختان الذكور يحدث قطعاً ويسيل دماً ، وقد يتلوث الجرح ، وهو ما قد يسفر عن الإصابة بفيروس الإيدز . فالباجندا المسلمون يختتنون ، أما غير المسلمين من الباجندا فلا يختتنون . ويجب ملاحظة أنه لم تثبت حتى الآن صلة ما بين الختان وانتشار فيروس الإيدز . وعلى الرغم من أن ممارسة الختان يمكن أن تؤدي إلى نزف دم ، فإنها على الأقل في الذكور ، ترتبط بالحد من الأمراض الجنسية المعدية التي يمكن أن تكون فيما بعد بمثابة بوابة عبور لمرض الإيدز (١) .

أما ختان الإناث فليس شعيرة إسلامية حقيقية ، ولكنه يمارس على نطاق واسع في العديد من المجتمعات الإسلامية ، فهو يمارس في مصر ، ولكنه لا يمارس في الجزائر ، ويمارس في اليمن ، ولا يمارس في السعودية ، يمارس في الصومال ، ولا يمارس في زنزبار ، وهكذا فالعادات والتقاليد ، وليس الدين هي التي تحكم انتشار هذا الأمر .

وعملية ختان الإناث يمكن أن تسبب نزيف دائم مدى الحياة للمرأة مع كل عملية جماع ، ولكن هل يمكن أن تزيد هذه العملية من مخاطر فيروس الإيدز ؟ .

أما اللواط فيعتبر أكثر ندرة في إفريقيا عن غيرها من الأجزاء الأخرى من العالم أو إنه على الأقل يتم في الخفاء ، ولكن في نطاق الموجود منه ، يلاحظ أنه يرتفع في الأجزاء الإسلامية من القارة عنه في إفريقيا غير الإسلامية . ويرجع ذلك جزئياً إلى الأسباب الاجتماعية الناجمة عن نظام عدم الاختلاط ، فمادام الجنسان منفصلين بدرجة كبيرة ، فأحد المخاطر المحتملة هو تزايد نسبة السحاق واللواط ، كما أن هناك ظاهرة السياح الأجانب لا سيما في شمال إفريقيا ، الذين يعتبرون بمثابة زبائن دائمين للشواذ جنسياً (٢) .

فهل يزيد ذلك أيضاً من انتشار فيروس الإيدز ؟

---

(١) انظر المناقشات :

Seth F Berkley , " Public Health Measures to Prevent HIV Spread in Africa , " in Mas Essex et al (eds) , op . cit , pp 489 - 485 .

(٢) انظر :

Tastemain and Coles , op . cit . , p 14 .

الواقع أن تنوع فيروس الإيدز في إفريقيا يختلف عنه في مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية [(١)] ؛ حيث لا يوجد في الأخير فرق كبير بين اللواط والجماع (المعاشرة الطبيعية)، إلا أن خطورة ذلك المرض تجعل الأمر أي كانت درجته جدير بالأخذ في الاعتبار .

● **الخلاصة :**

ما هي نقطة التوازن بين الصراع والتنافس ، التعاون بين الإسلام والمسيحية ونحن ندخل القرن الحادي والعشرين ؟ في إفريقيا ، تسبب المسيحية والإسلام الشقاق فقط في حالة دعمهما للانقسامات الأخرى القائمة من قبل من ذلك إنه في نيجيريا أغلب الهوسا مسلمون ، ومعظم الإيبو مسيحيون ، واليوربا ، يتوزعون على الديانتين ، وبالتالي دعم الإسلام هوية الهوسا ، وعززت المسيحية هوية الأيبو، وانقسم اليوربا بين الطرفين .

وفي السودان ، فإن درجة الإسلام ليست هي فقط الفارق الوحيد بين شمال وجنوب البلاد ، فكل من الإقليميين له خصائصه الثقافية والتاريخية .

- أما في الحالات التي لا يدعم فيها الإسلام والمسيحية الانقسامات الأولية (كما في حالة السنغال) ، فإنهما لا يتصارعان ، وتلك هي الطريقة التي تساهم فيها الأبعاد الاجتماعية والتاريخ في تلطيف تداعيات المعتقد .

- ويساعد تحديد نطاق أعمال الدعوة والتنصير بين الإسلام والمسيحية على إخماد الصراع وتحويله إلى تنافس سلمي بشأن عقيدة إفريقيا ، ولقد أدت الثروة البترولية في بعض أجزاء العالم الإسلامي إلى توفير التمويل اللازم لدعاية « جماعة التبليغ والدعوة » التي لم يُسمع عنها لمئات السنين .

وأعمال التبشير الإسلامي ما زالت أقل كفاءة ، أقل تنظيما ، أقل إبداعاً ، وأقل تمويلاً من أعمال التنصير ، إلا أن الفجوة ضاقت نتيجة أنشطة مؤسسات الدعوة الإسلامية المدعومة من دول البترول ، وتعادل مجال العمل المقدس حثيثاً .

---

(١) فيما يتصل بهذا انظر :

Jon Cohen , " Differences in HiV Strain May Underlie Disease Patterns , " Science Volume 270 (October , 6 , 1995) pp 30 - 31 .

حيث يُرجع معظم الأصابات في أفريقيا إلى انتقالها عبر المعاشرة الجنسية (الجماع) .

- العامل الثالث المساعد في خفض الصراع ويشجع على التعاون هو التغير الهام في طبيعة الإرساليات المسيحية في إفريقيا ، فالعديد من الجماعات المسيحية قد قررت التركيز على حماية الأفراد الأحياء بدلاً من حماية الأرواح ، وذلك بالتركيز على الخدمة المباشرة أكثر من التركيز على ما بعد الموت ، فمثل هذه الجماعات تذهب للمساعدة في المناطق الإسلامية المنكوبة كالصومال لحماية حياة الصوماليين أكثر من العمل على تحرير أرواحهم عن طريق تنصيرهم ، ويركزون على تخفيض الآلام أكثر من نشر الإنجيل .

وفي إفريقيا ، وجدت أيضاً مثل هذه الأنشطة الخدمية على الجانب الإسلامي ، فمنظمة الأطباء المسلمين في جنوب إفريقيا تنفق العديد من الساعات والموارد الطبية لمعاونة الفقراء في جنوب إفريقيا بصرف النظر عن انتمائهم الديني ، فهم يشيدون المراكز العلاجية ، ويساعدون الفقراء ويعطون من وقتهم للمرضى .

وتبقى الاتجاهات الثلاثة قائمة بين الديانتين العالميتين :

- خطر الصراع .
- التنافس الموروث .
- احتمال التعاون القائم على قبول الآخر .

وفي إفريقيا ، فإن الحقبة السيئة للصراع الديني في شمال الصحراء لسوء الحظ لا ينتظر انتهاؤها ، ولكن في جنوب الصحراء يحتمل أن تصبح تلك الفترة جزءاً من التاريخ . أما حقبة التنافس بين المسيحية والإسلام في إفريقيا فما زالت قائمة وستبقى ، ولكن التنافس سيصبح أكثر سعة وحصافة .

وعهد التعاون القائم على قبول الآخر بين المسيحية والإسلام مزدهر في إفريقيا الآن ، ويمكن أن تكون إفريقيا أفضل مكان في العالم لمثل هذا التعايش الإسلامي - المسيحي في القرن الحادي والعشرين . فالمسيحية تعد من حيث الانتشار ، ديانة أفرو - غربية نظراً لأن أغلب الأمم المسيحية توجد إما في العالم الغربي أو في إفريقيا ، فآسيا القارة الكبرى في العالم ، كانت أقل استقبالاً للمسيحية ، ولا توجد أي أمة مسيحية في آسيا ، باستثناء الفلبين .

أما الإسلام فيعد من حيث الانتشار ، دين إفريقي - أسيوي ، حيث أن أغلب الأمم الإسلامية إما في آسيا أو في إفريقيا ، فبصرف النظر عن دولتي ألبانيا

والبوسنة الصغيرتين لا يوجد أي بلد إسلامي في العالم الغربي ، حيث تنقسم تركيا ما بين آسيا وأوروبا .

وإذا كانت المسيحية أفرو - غربية بصفة أساسية ، وإذا كان الإسلام أفرو - أسيوي بصفة أساسية ، فإن الجزء الإفريقي أساساً هو المشترك جغرافياً بين الديانتين ، ومن ثم فإن إفريقيا هي المسرح البارز للتعاون القائم على قبول الآخر بين هاتين الديانتين العظيمتين ، وربما يشجع على ذلك العقائد التقليدية وعلم الاجتماع ، وتاريخ الشعوب الإفريقية ذاتها .

* * *

الفصل الرابع

المسلمون الأمريكيون والسياسة الخارجية الأمريكية

الفصل الرابع

المسلمون الأمريكيون والسياسة الخارجية الأمريكية

ترجمة : أحمد علي سالم (*)

من المتوقع أن يتجاوز عدد المسلمين في الولايات المتحدة عدد اليهود قبل نهاية القرن الحالي . فالمجموعتان هما بالفعل فرسا رهان من الناحية العددية (فكل منهما يبلغ عدد أفرادها نحو ستة ملايين نسمة) (١) ، ومع ذلك فإن تأثير المسلمين على السياسة الخارجية للولايات المتحدة لايزال أضعف بكثير من التأثير الذي يمارسه الأمريكيون اليهود الأكثر تمركزاً من الناحية الاستراتيجية في قطاعي الاقتصاد والإعلام ، وفي مؤسسات التعليم العالي ، وفي العملية السياسية .

ومن منظور صنع السياسة الخارجية ، فإن المسلمين في الولايات المتحدة يتأثرون بأربعة هويات رئيسية داخل مجموعتهم . **فأولاً** : يتأثر المسلمون بارتباطاتهم العاطفية ومشاعرهم تجاه أصولهم الوطنية الخاصة (على سبيل المثال : كباكستانيين أو إندونيسيين أو إيرانيين أو صوماليين أو مصريين) (٢) .

(*) باحث بمركز دراسات المستقبل الإفريقي .

(١) قدرت صحيفة نيويورك تايمز عدد السكان (المسلمين) في الولايات المتحدة في أغسطس عام (١٩٩٥م) بستة ملايين نسمة . انظر : المقال المنشور في الصفحة الأولى من الصحيفة في العدد الصادر في ٢٨ أغسطس (١٩٩٥م) ، وموضوعه : الإسلام في أمريكا ، وقدر تقرير صادر عام (١٩٩٣م) عدد المسلمين الأمريكيين بما بين (٤ و٦) مليون نسمة ، بينما قدر عدد اليهود بـ (٥٫٩٤) مليون نسمة انظر :

Mary H. Cooper, " Muslims in America " ; CQ Researcher 33 : 16, 30 April 1993 .

وانظر أيضاً :

Fareed H. Numani , The Muslim Population in the United States : A Brief Statement (Washington DC · American Muslim Council , 1992) .

ويتزايد عدد المسلمين بسرعة

(٢) لإلقاء نظرة عامة على المسلمين في أمريكا انظر

Vonne Y. Haddad , the Muslims of America (New york : Oxford University Press , 1991) .

وثانياً : يتصرف المسلمون بتأثير هوياتهم العرقية ، بالنظر إلى طبيعة المجتمع الأمريكي التي تجعل أفراده على وعي بالمسألة العرقية ، فمن بين المسلمين الأمريكيين يمثل العامل العرقي أهمية خاصة تاريخياً للأمريكيين الأفارقة الذين يشكلون الآن نحو (٤٢٪) من السكان المسلمين في الولايات المتحدة [١] .

وثالثاً : يحاول مسلمو الولايات المتحدة أن يؤثروا في السياسة بصفتهم مسلمين ، وذلك على سبيل المثال من خلال أنشطة المجلس الإسلامي الأمريكي ، ومقره العاصمة واشنطن ، فهذا المجلس يعمل كجماعة ضغط على كل من الكونجرس والحكومة الفيدرالية في قضايا تتراوح بين البوسنة وقانون مكافحة الإرهاب وآثاره على الحريات المدنية [٢] .

ورابعاً : قد يتصرف المسلمون الأمريكيون أيضاً وببساطة بوصفهم أمريكيين ، فهم كمواطنين أمريكيين لديهم قدر من الاهتمام أو الوطنية قد يتبنون مواقف تتعلق بحجم الميزانية الفيدرالية أو بكيفية التعامل مع عدم التوازن التجاري مع اليابان أو بمستقبل دور حلف شمال الأطلنطي ، وتتباين وجهات نظرهم حول هذه القضايا بشكل طبيعي تماماً ، وبذات القدر من التباين في وجهات نظر الأمريكيين الذين يعتنقون معتقدات دينية أخرى [٣] .

* ومن كافة هذه المواقف الأربعة أصبح المسلمون الأمريكيون أكثر تنظيماً وأقل امتناعاً عن النشاط في الربع الأخير من القرن العشرين بالمقارنة بأية فترة سابقة ، مع احتمال استثناء أتباع جماعة أمة الإسلام الذين لم يمتنعوا مطلقاً عن العمل السياسي منذ نشأتهم الأولى في الثلاثينات من القرن العشرين .

● التوازن الإسلامي - اليهودي .

هل يمكن مقارنة المسلمين في الولايات المتحدة بالأمريكيين اليهود ؟ وما هو المشترك بينهما وأين يختلفان ؟ إن كلا من المسلمين واليهود تواقون لتجنب الخضوع

---

(١) حول تصنيف للإثنية بين المسلمين الأمريكيين انظر :

Cooper, " Muslims in America " ; P. 364 .

(٢) وتشمل الجماعات والمنظمات الأخرى التي أسسها المسلمون في الولايات المتحدة لتصحيح الصور النمطية والتأثير في السياسة مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية - ومقره العاصمة واشنطن - ومجلس الشئون العامة للمسلمين . انظر :

" Muslims learn to Pull Political Ropes in US " , Christion Science Monitor, 5 Feb. 1996, PP. I, 10, 12 .

(٣) Ibid., P. 10 .

الكامل للثقافة المسيحية السائدة ، وكل منهما قلق بشأن التزاوج بين أتباع الديانات المختلفة ، وكل منهما يتمنى الاحتفاظ بقدر من الاستقلال والتمايز الثقافيين في النظام التعليمي الواسع . إن هذه التعميمات المتعلقة بالمسلمين تنطبق على أولئك المهاجرين المسلمين القادمين من « باكستان » و« مصر » و« نيجيريا » و« العربية السعودية » و« بنجلاديش » و« إندونيسيا » و« ماليزيا » و« بروناي » ، وغير ذلك من البلاد . فهم مهتمون بالقضايا التي ذكرناها آنفاً بصفتهم مسلمين ، وشكلوا منظمات كبيرة ، تشمل جميع المسلمين مثل المجلس الإسلامي الأمريكي ومجلس العلاقات الأمريكية - الإسلامية ، وجمعية علماء الاجتماع المسلمين ، وجمعية المهندسين المسلمين ، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي في العاصمة واشنطن ، والجمعية الدولية لأمريكا الشمالية . وقد شارك عدة آلاف في المؤتمر السنوي لتلك الجمعية ، والذي كان حقاً حدثاً يجمع المسلمين من كافة الأصول الوطنية ، ولا يقتصر على واحد منها فقط .

كما أن المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية (وهي نشرة مشتركة بين جمعية علماء الاجتماع المسلمين والمعهد العالمي للفكر الإسلامي) ، تضم مقالات ذات صلة وثيقة بالسياسة . وعلى سبيل المثال : فإن العدد الصادر في خريف عام (١٩٩٥م) كان يحتوي على ملف يشمل مقالات عن « الإسلام والغرب » ، و«أخلاقيات العمل » .

ولكن في أي شيء يختلف المسلمون في الولايات المتحدة عن اليهود ؟ رغم أن كلا من اليهود الأمريكيين والمسلمين الأمريكيين ينتمون إلى أصول وطنية مختلفة ، فإن اليهود في الولايات المتحدة أصبحوا الآن يهوداً في المقام الأول وأبناء أصولهم الوطنية في المقام الثاني ، بينما لا يزال المسلمون أبناء أصولهم الوطنية في المقام الأول وأصحاب هوية إسلامية في المقام الثاني ، إن ذلك جزئياً أمر متعلق بالزمن، فقد يكون اليهود الإيرانيون يهوداً وإيرانيين بنفس القدر ، وفي الولايات المتحدة سيصبحون في يوم ما يهوداً أكثر من كونهم إيرانيين ، فهل سيصبح المسلمون الباكستانيون في الولايات المتحدة في يوم ما مسلمين أكثر من كونهم باكستانيين ؟ وهل هي مسألة خاصة بالتطور الاجتماعي - الديني ؟ إن الهوية الإسلامية في الولايات المتحدة أحدث من الهوية اليهودية ، ولايزال محل نظر ما

إذا كان الإسلام سيرجح على الأصول الوطنية بنفس الطريقة التي تفوقت بها اليهودية على تلك الأصول الوطنية في أمريكا .

فاليوم في أمريكا يتم تعريف اليهود البولنديين واليهود البريطانيين واليهود المغاربة على أنهم يهود ، ولكن بينما يشترك المسلمون واليهود في حالة ثقافية واحدة في الولايات المتحدة ، فإنهم لا يشتركون في المكانة ذاتها في الاقتصاد السياسي ، فاليهود ممثلون جيداً في الكونجرس ، ولهم حضور واضح بين القيادات المسيطرة في التعليم الجامعي ، ناهيك عن قوتهم الاقتصادية في مجالات البنوك والتجارة والإنتاج . وبقدر ما تعبر الأرقام فإن المسلمين الآن - وفقاً لصحيفة نيويورك تايمز - يفوق عددهم عدد أعضاء الكنيسة الأسقفية البروتستانتية (الإنجليكانيين) بنسبة (٢ : ١) .

ومن المتوقع أن يتخطى الإسلام - الذي يبلغ عدد أتباعه ستة ملايين مسلم - اليهودية كأكبر ديانة غير مسيحية في الولايات المتحدة بحلول نهاية العقد الحالي[١] .

● الإسلام الأمريكي : بين العرقية والأصول الوطنية .

يعتبر العرب الأمريكيون نشطاء حتى قبل مولد دولة إسرائيل ، ويشمل الأمريكيون ذوو الأصول الوطنية العربية مسيحيين (مثل المحامي الشهير رالف نادر، والسياسي جون سنونو) ، وعرباً مسلمين أكثر انخراطاً في السياسة . وأثناء النضال لمنع تقسيم فلسطين قبل عامي (١٩٤٧و١٩٤٨م) تكتل العرب المسيحيون والمسلمون وضغطوا بشدة من أجل « فلسطين غير مقسمة » ، ولا يزال السكان الأمريكيون العرب في الولايات المتحدة يغلب عليهم المسيحيون بدرجة تفوق المسلمين حتى يومنا الحاضر [٢] .

ومع ذلك فبعد إنشاء إسرائيل أصبحت « القضية الفلسطينية » في الولايات المتحدة تعتبر على نحو متزايد قضية المسلمين وحدهم ، وتزامن ذلك التطور مع فترة من النصف الثاني من القرن العشرين بلغ فيها التأثير اليهودي في العملية

---

(١) James Brooke , " Amid Islam's Growth in the US, Muslims Face A Surge in Attacks " ; New York Times (front page), 28 Aug. 1995 .

(٢) انظر التقدير في :

Gregory Orfalea, Befor the Flames : A Quest for The History of Arab Americans (Austin, TX : University of Texas Press, 1988), P. 318 .

السياسة الأمريكية درجة غير مسبوقة . فقد كان للقوة السياسية اليهودية تأثير كبير على السياسة الخارجية للولايات المتحدة في قضايا تتراوح من المساعدات الخارجية إلى نقل الأسلحة ومبيعاتها إلى الدول العربية [١] .

ورغم أن عدد العرب في الولايات المتحدة ارتفع من عام (١٩٤٨م) ، (وهو العام الذي أنشئت فيه إسرائيل) إلى عام (١٩٦٧م) ، (وهو العام الذي وقعت فيه حرب الأيام الستة) ، وارتفع بعد ذلك أيضاً [٢] ، فإن أثر العرب على السياسة الخارجية الأمريكية ربما يكون قد تراجع أثناء تلك الفترة ، ومن غير ريب أن ذلك حدث بمقدار مساوٍ للتوسع المذهل في تأثير جماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل على الكونجرس ، وعلى أفرع الحكومة الفيدرالية أثناء تلك السنوات ، وقد اختار كثير من الأمريكيين العرب أيضاً ألا يكون وجودهم ظاهراً خوفاً من المتطرفين الصهاينة وغيرهم من غلاة المتعصبين للسياسة الشرق أوسطية . إن ما تغير في الربع الأخير من القرن العشرين هو أن الأمريكيين العرب أصبحوا أقل امتناعاً عن النشاط ، وأقل إحساساً بالخوف سياسياً ، وأكثر احترافاً للمهارات المطلوبة للعمل من خلال العملية السياسية الأمريكية . ومع ذلك فإنهم لا يزالون عرضة للتأثر ببعض التوترات والانقسامات في العالم العربي الواسع .

وأما قضية السياسة الخارجية التي يشعر المسلمون في الولايات المتحدة (ولا سيما مسلمي جنوبَ آسيا الذين يشكلون نحو (٢٤٫٤٪) من مجموع المسلمين في الولايات المتحدة) [٣] بأنهم أشد ارتباطاً بها ، فلعلها قضية كشمير ، فقد مورست ضغوط متواصلة من جانب جماعات ضغط على الكونجرس لإصدار قرارات تنتقد الهند لانتهاكاتها لحقوق الإنسان في كشمير ، أو لاتخاذ إجراء تشريعي بحثاً عن

---

(١) انظر على سبيل المثال :
Fdward Tivnan, Jewish Political Power and American Foreign Policy (New york : Simon & Sehuster, 1987) .

(٢) توجد بعض الإحصاءات عن طبيعة الأمريكيين العرب وهجرتهم إلى الولايات المتحدة في :
Orfalea, Befor the Flames PP. 316 - 17, and Elias T. Nigem, "Arab Americans : migration, Socioeconomic, and Demogrophic Characteristics ", International Migration Review 20, Fall 1986, PP. 629 - 49 .

(٣) انظر :
Cooper, " Muslims in America ", P. 364 .

حل [١] ، كما تتدفق الأبحاث الموجزة والكتيبات والبيانات الصحفية الخاصة بكشمير بشكل منتظم ، ليس فقط على الكونجرس ، ولكنها توزع أيضاً على نطاق واسع في الجامعات ووسائل الأعلام وغيرها من المساهمين في صنع السياسة .

وبينما يفضل معظم المسلمين المنحدرين من أصول جنوب آسيوية في الولايات المتحدة منح كشمير حق تقرير المصير ، فإن أغلبية من مواطني الهند المسلمين يودون أن تظل كشمير جزءاً من الهند . ومن الجدير أن نتذكر أن الهند يوجد بها اليوم أكثر من (١٠٠) مليون مسلم ، (وهي بذلك رابع أكبر تجمع وطني للمسلمين في العالم بعد إندونيسيا وباكستان وبنجلاديش) ، وتعتبر مواقف كثير من المسلمين الهنود متناقضة بشأن كشمير ، فهل يرغبون في أن يحصل «الكشميريون» على حق تقرير المصير والمخاطرة بحرمان الهند من أن تظل دولة بها أغلبية مسلمة ؟ أم أنهم يفضلون أن تظل كشمير جزءاً من الهند وتقوية موقف المسلمين الآخرين في البلد ؟ ويبدى المسلمون القادمون من الهند والذين أصبحوا مواطنين أمريكيين ذات القدر من التناقض بشأن كشمير [٢] . ومع ذلك فإن المسلمين الأمريكيين الذين يفضلون استمرار الوضع الراهن في كشمير قرروا ألا يكون وجودهم ظاهراً ، لا سيما وأن معظم هؤلاء قد روعتهم انتهاكات حقوق الإنسان التي غالباً ما ترتكبها القوات الهندية في كشمير . فالمسلمون الأمريكيون الأعلى صوتاً بشأن قضية كشمير هم أولئك الذين يفضلون منح حق تقرير المصير للشعب المكافح في تلك المقاطعة .

ومن منظور الهوية العرقية ، فإن الغالبية العظمى من المسلمين في الولايات المتحدة هم بالطبع من الملونين ، وكان موقفهم من سياسة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا (الابارتهيد) قبل فترة التسعينيات يحظى بإجماع كامل ، تقريباً ،

---

(١) توجد تغطية لانتهاكات حقوق الإنسان في كشمير على يد الحكومة الهندية في :
Patricia Gossman , The Crackdown in Kashmir (Boston, MA, New York : Physicians for Human Rights and Asia Watch, 1993) ; Gossman , The Human Rights Crisis in kashmir (New York: Human Rights Watch, 1993) .

(٢) حول تحليل حديث لمشكلة كشمير المحيرة انظر :
Mushtaqur Rahman, Divided Kashmir : Old Problems, New Opportunities for India, Pakistan, and the Kashmiri people (Boulder, CO : lynne Rienner, 1996) .

منهم : فالمسلمون كانوا مجمعين على أن الولايات المتحدة يجب أن تفرض عقوبات ضد النظام العنصري في بريتوريا ، وتحافظ على استمرارها ، ودخل المجلس الإسلامي الأمريكي في نوع من التحالف الاستراتيجي مع منظمة « ترانس أفريكا » (عبر إفريقيا) التي يتزعمها أحد النشطاء الأمريكيين الأفارقة ، وهو « راندال روبنسون » ، وكانت منظمة (ترانس أفريكا) إلى حد بعيد أكثر المنظمات نشاطاً ضد « الابارتهيد » ، ولكن كثير من المسلمين أيدوا « روبنسون » ، وعقد المجلس الإسلامي الأمريكي مؤتمراً كبيراً في الثمانينات حول فكرة «الإسلام ضد الابارتهيد» التي تناولها حشد من كبار المتحدثين على المستوى الدولي بمن فيهم نشطاء مسلمون من جنوب إفريقيا ذاتها ، واقتنعت الولايات المتحدة (لا سيما نتيجة جهود منظمة ترانس أفريكا وحلفائها) بفرض عقوبات واسعة النطاق على النظام العنصري في جنوب إفريقيا . واستمر العمل بهذه العقوبات حتى بعد إطلاق سراح نيلسون مانديلا ، وإضفاء الشرعية على المؤتمر الوطني الإفريقي في التسعينات .

إن أكثر الناس وعياً بالعامل العرقي من بين كافة أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم مسلمين في الولايات المتحدة هم أتباع جماعة « أمة الإسلام » التي يتزعمها الآن « لويس فرخان ». وكانت السياسة الخارجية جزءاً من ميلاد الحركة، فمؤسس الحركة كان مهاجراً ، قيل : إنه ولد بمكة المكرمة ، ووصل إلى الولايات المتحدة عام (١٩٣١م) ، فهل كان « فَرَّاد محمد » عربياً ؟ لقد اختلفت الحكايات حول أصولة الإثنية ، لكن اثنتين من الحكايات الشائعة عنه تؤكد كل منهما على أنه من سلالة عربية [١] ، وكان ذلك الرجل يبدو وسيماً حين يتخضب ، ولكنه اعتبر نفسه واحداً من السكان السود في مدينة « ديترويت » ، واختفى فراد محمد عام (١٩٣٤م) دون أن يعثر له على أثر ، وخلفه في زعامة جماعة أمة الإسلام محمد إليجة [٢] .

وباندلاع الحرب العالمية الثانية تعرضت جماعة أمة الإسلام لأول اختبار في السياسة الخارجية ، فقد ألزم « محمد إليجة » أتباعه بفتوى مفادها أن المسلمين غير ملزمين بالقتال من أجل العلم الأمريكي ، وتعرض للسجن في الفترة من عام

---

(١) انظر :

Martha Elee, The Nation of Islam : an American Millennarian Movement (New York : Edwin Mellen Press, 1988), PP. 30 - 31 .

(٢) حول السيرة الذاتية انظر :

Malu Halassa, Eligah Muhammed (New York : Chelsea House, 1990) .

(١٩٤٢م) إلى عام (١٩٤٦م) بسبب اتخاذه ذلك الموقف [١] ، واستمرت المعضلة بين الإسلام والولاء للعَلَم في الولايات المتحدة بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، فقد رفض بطل الملاكمة محمد علي - وهو من أتباع جماعة أمة الإسلام - أن يحارب من أجل الولايات المتحدة في فيتنام ، ورداً على ذلك أُدين محمد علي قضائياً وسُحب منه لقب البطولة ، فقام بدوره بالتخلي عن ميداليته الأولمبية الذهبية اعتراضاً على ذلك ، واستمر الأمر كذلك حتى عام (١٩٧١م) حين سحبت المحكمة العليا في الولايات المتحدة إدانته ، وساعدت في استعادته لقب البطولة ، وذلك بموجب حقه في الحرية الدينية، وحرية التعبير بموجب الدستور الأمريكي[٢] .

ولقد قضيت خمس ساعات مع الزعيم الديني لويس فرخان في منزله في شيكاجو بولاية ألينوي في يناير عام (١٩٩٦م) ، وكان ذلك بطبيعة الحال بعد مسيرة المليون رجل التي قام بها في أكتوبر عام (١٩٩٥م) ، فهل كانت لمسيرة المليون رجل مضامين متعلقة بالسياسة الخارجية ؟ أخبرنا الزعيم الديني لويس فرخان أنه تلقى التهاني من الرئيس الليبي « معمر القذافي » بعد المسيرة مباشرة ، وأن الرئيس القذافي عبر عن تأثره البالغ بنجاح المسيرة . وحدثنا فرخان أيضاً عن خططه للسفر إلى كل من العالم الإسلامي وإفريقيا . وقد بدأ بالفعل رحلته في الشهر التالي ، مثيراً بذلك كثيراً من الجدل في الولايات المتحدة حين ذُكِر أنه قد زار إيران والعراق وسوريا وليبيا ، وهي دول تعتبرها حكومة الولايات المتحدة على درجة خاصة من العداء .

وحين ذكرت مصادر ليبية أن « معمر القذافي » أبدى استعداده لتقديم بليون دولاراً إلى «لويس فرخان» كدعم لحركته، وأكد ذلك فرخان حين عاد إلى الولايات المتحدة ، طالب البعض في الكونجرس بإجبار فرخان على أن يسجل نفسه « كعميل أجنبي » ، ورد فرخان على ذلك بإعلان استعداده لمناقشة مثل هذا الاحتمال ، إذا سجل عديد من أعضاء الكونجرس أنفسهم كعملاء لدولة إسرائيل بنفس الطريقة ، وعلى أية حال فإنه أكد على أن الهبة التي اقترحها القذافي ، والتي تبلغ قيمتها بليون دولار ، لجماعة أمة الإسلام كانت مخصصة للمدارس والعيادات

---

(١) Lee, The Nation of Islam, P. 37 .

(٢) نشرت صحيفة نيويورك تايمز في الصفحة الخامسة من عددها الصادر في ٢٩ يونيو (١٩٧١م) حكم المحكمة العليا .

الطبية والخدمات الاجتماعية ، وليس لأغراض الضغط السياسي أو النشاط السياسي[1] .

● الإسلام الأمريكي : مواجهة سلسلة من المفارقات .

حين يتصرف المسلمون الأمريكيون بوصفهم مسلمين ، وحين يتصرفون بوصفهم أمريكيين لهم اهتمامات عامة ، فإنهم يتأثرون بعدد من المفارقات ، أولى هذه المفارقات هي أنه بينما تعتبر العلمانية الأمريكية (فصل الكنيسة عن الدولة) أمراً طيباً للمسلمين ، فإن التحررية الأمريكية (من قبيل الجدل الذي دار مؤخراً بين الأمريكيين حول ما إذا كان يجب الاعتراف قانوناً بالزيجات بين أفراد من جنس واحد في كل الولايات المتحدة على نحو ما هو قائم في ولاية هاواي) تعد أمراً سيئاً بالنسبة للإسلام . والحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة أكثر إصراراً على فصل الكنيسة عن الدولة ، بما في ذلك معارضة إقامة الصلوات في المدارس . إن ذلك الأمر يجذب بعض الآباء المسلمين إلى الحزب الديمقراطي ، حيث إنهم لا يرغبون في أن يتعرض أطفالهم لضغوط لحضور الصلوات المسيحية . وعلى الجانب الآخر فإن الحزب الجمهوري أقوى تأييداً لقيم العائلة التقليدية ، وأشد معارضة للتحررية الجنسية . وهذا الأمر يجذب كثير من المسلمين (لا سيما المهاجرين القادمين من آسيا) إلى الحزب الجمهوري . وفي الحقيقة ، فإن المسلمين الأمريكيين كانوا تقليدياً يصوتون للحزب الجمهوري - على حد ما ذكرت إحدى الصحف ، ولكن ما ذكرناه لا يمثل الصورة كلها . فعلى سبيل المثال ساند المسلمون في كاليفورنيا حاكم الولاية الجمهوري « بيتر ويلسون » في الانتخابات ، ولكنهم عارضوا أحد مشروعات القوانين الأثيرة لديه ، وهو الاقتراح (١٨٧) الذي يستهدف الخدمات المقدمة للمهاجرين[2] .

وتتعلق المفارقة الثانية بإدارة كلينتون ، فبينما تعد هذه الإدارة أكثر تأييداً

---

(١) انظر التقارير في :

Amsterdam News, 3 Feb. 1996 ; New York Times, 22 Feb. 1996 ; Afro-American, 10 Feb. 1996 ; Chicago Tribune, 22 Feb. 1996 ; Chicago Defender, 1 February .

وغيرها .

(٢) انظر :

" Muslims Learn to Pull Political Ropes in US ", P. 10 .

لإسرائيل بالمقارنة بجميع الإدارات الأمريكية الأخرى منذ إدارة « ليندون چونسون»، فإنها في المجال المحلي قامت بأكثر التصرفات وديةً تجاه مسلمي الولايات المتحدة بالمقارنة بجميع الإدارات السابقة . فقد بعث الرئيس بتحياته للمسلمين في شهر صيامهم (رمضان) عام (١٩٩٦م) ، واستضافت قرينته احتفالاً بعيد الفطر (وهو عيد انتهاء شهر رمضان) في البيت الأبيض في أبريل (١٩٩٦م) ، وفي خريف عام (١٩٩٥م) زار نائب الرئيس آل جور أحد المساجد ، كما قام أول إمام مسلم للمسلمين العاملين في القوات المسلحة الأمريكية - والبالغ عددهم عشرة آلاف مسلم - بحلف اليمين مؤخراً في القوت الجوية [١] ، واستقبل الرئيس وفداً من الأمريكيين العرب في البيت الأبيض لمناقشة عدد كبير من القضايا المحلية والدولية، واستقبل مستشاره للأمن القومي « أنتوني ليك » وفداً من المسلمين (وكان منهم كاتب هذا المقال) لمناقشة نتائج أزمة البوسنة ، كما التقى ممثلون عن المجلس الإسلامي الأمريكي بمسئولين في وزارتي الخارجية والعدل للإعراب عن قلقهم بشأن مشروع قانون مكافحة الإرهاب ، وللضغط لتغيير بنوده التي يشعر البعض أنها تجور على المسلمين [٢] .

لقد كانت تلك الإشارات من جانب الرئيس كلينتون تجاه المسلمين على درجة كافية من الوضوح لإثارة أحد الصحفيين لكتابة مقال عدائي في صحيفة وول ستريت چورنال في مارس (١٩٩٦م) تثير شبح « أصدقاء حماس في البيت الأبيض» ، وتزعم أن بعض المسلمين الذين استضافهم الرئيس أصدقاء لحماس ومؤيدون للحركة الفلسطينية ، ولكاتب ذلك المقال - ستيڤن إمرسون - سجل طويل من العداء تجاه مسلمي الولايات المتحدة . فبرنامجه التليفزيوني الذي أذاعته محطة PBS عام (١٩٩٤م) ، والذي يحمل عنوان : « الجهاد في أمريكا » زعم أن جميع الأنشطة الإرهابية تقريباً التي يقوم بها بعض المسلمين في جميع أنحاء العالم يتم تمويلها جزئياً من جانب مسلمي الولايات المتحدة . وبالتأكيد فإن إشارات الرئيس كلينتون الودية للمسلمين أثارت ذلك الذي نصب نفسه داعية للحروب الصليبية [٣] .

(١) Ibid.

(٢) Ibid.

(٣) نشرت مقالة Emerson في الصفحة الرابعة عشرة من العدد الصادر في ١٣ مارس (١٩٩٦م) من صحيفة وول ستريت چورنال .

والمفارقة الثالثة التي تواجه المسلمين الأمريكيين هي أن الجمهوريين كانوا أكثر صداقة للمسلمين في السياسة الخارجية من الديمقراطيين طوال التاريخ الحديث للولايات المتحدة ، لكن الديمقراطيين قد يكونون أكثر وداً للمسلمين في السياسات المحلية من الجمهوريين ، وسوف نعود إلى هذه المسألة لاحقاً .

وتتعلق المفارقة الرابعة بالإيرانيين . فالإيرانيون في إيران نفسها يعتبرون من أكثر المسلمين في العالم انغماساً في السياسة ، ولكنهم في الولايات المتحدة من أقل المنغمسين في السياسة .

فما هو موقع الأمريكيين الإيرانيين من حكاية المسلمين الأمريكيين مع السياسة الخارجية الأمريكية ؟

أولاً : كانت الثورة الإسلامية في إيران في عام (١٩٧٩) بحق أكثر الثورات الإسلامية أهمية في النصف الثاني من القرن العشرين .

وثانياً : كانت أزمة الرهائن ما بين عامي (١٩٧٩ ، و١٩٨١م) حين احتجز طلاب إيرانيون أكثر من (٦٠) أمريكياً كرهائن في السفارة الأمريكية في طهران لمدة (٤٤٤) يوماً أكثر الأحداث إذلالاً للولايات المتحدة منذ هزيمتها في ڤيتنام .

وثالثاً : تعد إيران أحد أكبر منتجي البترول ، وهي بلد موثر في سياسة الشرق الأوسط .

إن هذه العوامل وغيرها جعلت من إيران شغلاً شاغلاً للسياسة الخارجية الأمريكية المتعلقة بالعالم الإسلامي . ومع ذلك فإن الأمريكيين الإيرانيين كانوا نسبياً أقل نشاطاً في العملية السياسية الأمريكية من معظم المنحدرين من أصول شرق أوسطية باستثناء السنوات الأخيرة من حكم الشاه ، لقد تحقق الاندماج الاقتصادي للإيرانيين في المجتمع الأمريكي بسرعة نسبياً ، لكن المشاركة السياسية كانت أكثر تواضعاً ، وبكلمات معبود أنصاري فإنه « في الوقت الحاضر لا ينخرط المهاجرون الإيرانيون في الولايات المتحدة في أية أنشطة سياسية سواء كانت إيرانية أو أمريكية ، وعليه فإنه فيما يتعلق بالمجال السياسي الضيق فإن الجماعة الإيرانية لا تعاني من انقسامات حزبية كتلك الانقسامات التي تسيطر على الجماعات الإثنية الأخرى ، وبعد سنوات من الامتناع عن النشاط السياسي المنظم بدأ الأمريكيون من

أصل إيراني في البحث عن دور لهم في الشئون السياسية . ومع ذلك فلا توجد لديهم منظمات سياسية تحتية تضم كافة المهاجرين الإيرانيين » [١]

ويتركز الأمريكيون من أصل إيراني بشكل غير متجانس في كل من كاليفورنيا ونيويورك ، ولكنه سيكون من الخطأ أن نفترض أن جميعهم مسلمون ، فعلى العكس توجد نسبة كبيرة فيهم من البهائيين واليهود ، فالأقليات الدينية في إيران ممثلة بشكل غير متكافئ في المنفيين الإيرانيين في الولايات المتحدة .

ويمثل المسلمون الإيرانيون (٦ر٣٪) من السكان المسلمين في الولايات المتحدة ، بينما يمثل العرب (٤ر١٢٪) منهم ، ويمثل المنحدرون من أصول جنوب آسيوية (٤ر٢٤٪) منهم . ورغم تواضع المشاركة السياسية الإيرانية وسط الأمريكيين المسلمين ، فإن الإيرانيين قدموا بعض ألمع وأبرز المفكرين الإسلاميين في الولايات المتحدة ، وأشهرهم البروفيسور « سيد حسين نصر » أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة جورج واشنطن ، والمدير السابق لأكاديمية الفلسفة الإمبراطورية في طهران، وأحد أصدقاء عائلة الشاه قبل الثورة [٢] .

وتتعلق المفارقة الخامسة بنموذجين للإسلام في أمريكا ، وهما : الإسلام المحلي والإسلام المهاجر . وكما لاحظنا سابقاً فإن نسبة كبيرة من الإسلام الأمريكي محلي، لا سيما الأمريكيين الأفارقة الذين كانوا جزءاً من التاريخ الأمريكي لقرون طويلة ، لكن الجماعات التي كانت أكثر نشاطاً من الناحية السياسية بخصوص قضية الإسلام في الولايات المتحدة قد تكون في الواقع جماعات المسلمين المهاجرين الذين أتى كثير منهم إلى الولايات المتحدة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وعلى الأخص في العقود الثلاثة الماضية .

والآن لنعد إلى المفارقة الأولى ، فقد حمت العلمانية الغربية في الولايات المتحدة الأمريكية جماعات الأقليات الدينية بإصرارها على الفصل بين الكنيسة

---

(١) Maboud Ansari, The Making of The Iranian Community in America (NEw Youk : Pardis Press, 1992) PP. 146 - 7 .

(٢) حول النسب المئوية للأصول الجغرافية للمسلمين في الولايات المتحدة انظر
Cooper, " Muslims in America ", P. 64 .

وانظر أيضاً :

Jonathan Friedlander, Anita Colby et al. . Irangeles · Iranians in los Angeles (Berkeley, CA : University of California Press, 1993) .

والدولة . وهذا سببٌ من الأسباب الكبرى التي تفسر دفاع اليهود في الولايات المتحدة المستميت عن الفصل بين الكنيسة والدولة . فأي خرق لهذا المبدأ يمكن أن يؤدي إلى فرض بعض.ممارسات الأغلبية الدينية على الأقليات ، وعلى سبيل المثال: إجبار الأطفال اليهود على المشاركة في الصلوات المسيحية في المدارس .

وعند مناقشة دور المسلمين الأمريكيين بوصفهم مسلمين يجب أن ننظر عن كثب لاهتماماتهم الأخلاقية المتعلقة بالثقافة الأمريكية . فالعلمانية الأمريكية أمر طيب للمسلمين في أمريكا ، ولكن الأمر المؤسف لهم هو اتساع مجال التحررية الأمريكية. فالعلمانية في العملية السياسية تساعد على حماية ديانات الأقلية من احتمال اقتحام قوة اليمين المسيحي . وعلى الجانب الآخر فإن التحررية في مجالات من قبيل الأخلاق الجنسية تزعج التقليديين من اليمين المسيحي والمسلمين على السواء ومن ثم ، فإن المسلمين قد يمدون أيديهم لدعاة المحافظة على القِيَم العائلية في مهاجمتهم لأفلام هوليوود الجنسية والعنيفة على سبيل المثال (١) .

ولهذه الاهتمامات الأخلاقية بدورها آثار على علاقة المسلمين الأمريكيين بالانقسام السياسي الأوسع بين الجمهوريين والديمقراطيين ، فيما يتعلق بكل من السياسات الخارجية والمحلية .

وفي التسعينيات تتزايد أعداد المسلمين الأمريكيين الذين يسجلون أنفسهم للتصويت في الانتخابات ، والذين يسعون للتأثير على المرشحين ، وكما ذكر أحد التقارير ، فإن جماعات المسلمين ساندت (٧٧) مرشحاً في انتخابات الكونجرس وحكام الولايات عام (١٩٩٤م) . وساند تحالف الجماعات الإسلامية لأول مرة أحد مرشحي الرئاسة عام (١٩٩٦م) (٢) .

ولم يحقق المسلمون سوى نجاح محدود في الوصول من خلال الانتخابات إلى مواقع ومراكز على المستوى المحلي ، كنجاحهم في مدن من قبيل أوكلاندا (كاليفورنيا) ، وكاتانوجا (تنسي) . وقد ذُكر أيضاً أن موافقة المسلمين على دعم أحد مرشحي الرئاسة سيرتبط بوعد بتعيين شخصية مسلمة في منصب رفيع المستوى في الإدارة القادمة (٣) .

---

(١) " Muslims Learn To Pull Political Ropes in US ", P. 10 .

(٢) I bid

(٣) I bid

وفي القضايا الاجتماعية من قبيل القيم العائلية والأخلاق الجنسية يجد المسلمون أنفسهم غالباً أكثر تناغماً مع الخطاب الجمهوري والاهتمامات الجمهورية . وفيما يتعلق بالحاجة إلى فصل صارم بين الكنيسة والدولة - وهو ما يساعد على حماية الأقليات الدينية - فإن الديمقراطيين الليبراليين هم أكثر من يعرض حماية أفضل للمسلمين ، والآن لننظر في هذه التناقضات عن كثب .

سمح أول تعديل للدستور الأمريكي للأقليات الدينية بممارسة شعائرها الدينية في سلام نسبي . وبالطبع فإن العلمانية - مثل كافة المبادئ - لها متعصبوها الذين يرغبون أحياناً في الحط من قدر ما هو مقدس بدلاً من السماح به . ولكن في أحسن الأحوال لا تعدو أية دولة علمانية أن تكون ملجأ آمناً لديانات الأقلية ، وبهذا المعنى تكون العلمانية الأمريكية صديقاً للمسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة ، ولكن بينما تمثل العلمانية طلاقاً للدولة من الدين الرسمي ، فإن المسلمين يعتبرون التحررية تمييعاً للروحانية ، فيمكن أن يعيش الفرد دون أن يكون له دين رسمي ويظل روحانياً للغاية بالمعنى الإنساني ، فلم يكن لأي من « جون ستيوارت مل » ، و« برتراند راسل » دين رسمي ، رغم أن كل منهما كان لديه قيم روحية عميقة ، وكان « ألبرت شفايتزر » الذي حصل على جائزة نوبل للسلام في فترة من حياته ممن يعتقدون بأن وجود الله وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها ، ولكنه كان متمسكاً للغاية بمبدأ مرجعية الحياة ، حتى إنه كان يحمي أرواح الحشرات في إفريقيا .

لقد تراجع الدين عن التأثير في الغرب منذ أيام عصر النهضة وعصر التنوير ، ولكن التراجع الحاد للروحانية في الغرب لم يحدث أساساً إلا في القرن العشرين. ومن منظور إسلامي فإن أمريكا لم تصبح أقل تديناً فقط ، بل إنها أصبحت أقل روحانية وهو الأخطر ، كما أنها لم تصبح أكثر علمانية فقط ، بل أصبحت أكثر تحررية ، وهو الأخطر كذلك . وينظر إلى التحررية على أنها خطر على المسلمين الذين يعيشون في نصف الكرة الأرضية الغربي ، وتشمل هذه التحررية مادية الإفراط في شدة الحرص على الكّسب (الجشع) ، والإفراط في الاستهلاك (النزعة الاستهلاكية) ، ومادية الجسد (الإفراط في الفجور الجنسي) ، والإفراط في إطلاق المرء العنان لأهوائه ورغباته وشهواته (النزعة الفردية المنحرفة) . ويمكن لهذه الصور الأربعة للتحررية أن تؤدي إلى أسلوب للحياة يطبق مذهب المتعة ، وهو

أسلوب هدفه السعي إلى الملذات ، ويخشى الآباء المسلمون من أنه من المحتمل أن تؤثر التحررية الأمريكية في التنشئة الاجتماعية للجيل الجديد من أطفال المسلمين وتربيتهم ، بتشجيع الإفراط في الحرص على الكسب والاستهلاك والصور المتنوعة للحياة الجنسية (١) ، وبسبب جميع هذه الاعتبارات يشعر الإسلام في الولايات المتحدة بتهديد بسيط من العلمانية الأمريكية بالمقارنة بالتهديد الذي تمثله التحررية الأمريكية له .

بالإضافة إلى ذلك توجد أيضاً التحولات السياسية والإيديولوجية في القوة في العالم الغربي برمته ، وهي تحولات تحدث بين الليبراليين والمحافظين ، بين معارضي التغيير والاشتراكيين ، بين الديمقراطيين والجمهوريين . وكان المسلمون الأمريكيون حساسين لتلك التحولات على المستوى الدولي ، فماذا تعني نهاية الحرب الباردة بالنسبة للدول الإسلامية ؟ في كثير من بلدان العالم الغربي تشهد الفترة الحالية ببساطة حالة من التحول نحو الأحزاب المحافظة التي فاز كثير منها في الانتخابات . فالنظام السياسي بأكمله في كل من فرنسا وبريطانيا يتحول نحو اليمين ، ويتساءل المسلمون في جميع أنحاء العالم عن مغزى هذه التطورات والتغييرات بالنسبة للإسلام اليوم ، ويتابع قادة المسلمين الأمريكيين الاتجاهات العالمية بمشاعر مختلطة . فالأحزاب التي اعتدنا على أنها أحزاب اشتراكية أو دولية كبرى لم يتضاءل تأييدُها فحسب ، بل إنها خففت أيضاً من توجهها اليساري . فالشيوعية أصيبت بالشلل ، وبينما قد يخسر حزب يميني في إحدى الانتخابات - مثل ما هو متوقع لحزب المحافظين في الانتخابات البريطانية العامة القادمة - فإن ذلك قد يحدث لصالح حزب للعمال أصبح اليوم قوة أكثر محافظة مما كان عليه قبل ثلاثين أو خمسين سنة .

وفي الواقع فإن زعيم حزب العمال البريطاني جعل حزبه يتخلى عن المادة الرابعة من دستوره ويسقطها ، وهي المادة التي جعلت الحزب ملتزماً منذ عام (١٩١٨م) بالطموح الاشتراكي نحو تأميم أدوات الإنتاج والتوزيع والتبادل .

وفي فرنسا عندما مرض الرئيس الاشتراكي الراحل ميتران ، فإن منهجه الاشتراكي القديم كان قد مرض أيضاً ، وهناك لم يتحول النظام نحو اليمين فقط ،

(١) انظر :

Cooper, " Muslims In America " . P . 367 .

ولكنه أصبح أيضاً نظاماً أشد عنصرية ، وتزامن التحرك نحو اليمين مع زيادة المشاعر المعادية للمسلمين وللمهاجرين (١) ، وأصبحت فرنسا تشهد اليوم مزيداً من مشاعر الكراهية للإسلام أكثر من أي وقت مضى خلال القرن العشرين .

لكن ماذا عن الولايات المتحدة ؟ أليست ببساطة حالة لفوز الجمهوريين بالسيطرة على الكونجرس ؟ أم أن الأفرع الثلاثة للحكومة تتحرك جميعها نحو اليمين مع وجود فروق طفيفة بين الحزبين ؟ هل يعد النموذج الذي يطرحه كلينتون « للحزب الديمقراطي الجديد » انعكاساً لقوة التأثير المحافظ ؟ هل يتحرك النظام الأمريكي برمته لكي يصبح نظاماً محافظاً - وكيف سيؤثر ذلك على المسلمين ؟ وهل هذا التحول قصير المدى أم طويل المدى ؟ لقد أصبحت كراهية الأجانب التي تشكل جزءاً من الثقافة الفرنسية تشمل كراهية الإسلام ، وفي ألمانيا أصبحت كراهية الأجانب تشمل كراهية الأتراك ، وهي تحمل بدورها عناصر كراهية الإسلام ، فقد أحرقت منازل الأتراك ومات بعضهم على أيدي النازيين الألمان الجدد (٢) .

ويُعد مسلمو الولايات المتحدة أنفسهم لمواجهة موجة مشابهة من الغلو في الوطنية الموجه ضد المهاجرين ، فبعد الانفجار الذي وقع في مدينة أوكلاهوما وقعت على الأقل (٢٢٧) جريمة كراهية ضد المسلمين ، وذلك وفقاً لما ذكره مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (٣) .

وكان للتغيرات التي شهدها النظام الأمريكي بين الجمهوريين والديمقراطيين مظاهر تعبر عن مفارقات ، ففيما يتعلق بالسياسة الخاصة بالشرق الأوسط لاحظ المسلمون الأمريكيون أن الإدارات الجمهورية أظهرت في بعض الأوقات قدرة أكبر للتصدي لإسرائيل بالمقارنة بالإدارات الديمقراطية . ففي عام (١٩٥٦م) أصر الرئيس

---

(١) حتى المفكرين الليبراليين في فرنسا عارضوا حرية فتيات المدارس المسلمات في ارتداء الحجاب . انظر تحليلاً لهذا الحدث في :

Norma C . Moruzzi , " A Problem with Headscarves : Contemporary Complexities of Political and Social Identity ", Political Theory 22, Nov. 1994, PP. 653 - 72 .

(٢) انظر على سبيل المثال :

Anson Rabinbach, " Fire and Blood in Germany " , Dissent 40, Fall 1993 , PP 416 - 18 .

(٣) " Muslims Learn to Pull Political Ropes in US ", P. 12 .

الجمهوري « دوايت أيزنهاور » على إنهاء كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لاحتلال أجزاء من مصر ، وأجبر الإسرائيليين على الانسحاب من سيناء التي احتلوها في حرب السويس في ذلك العام [1] ، واتخذ الرئيس الجمهوري «ريتشارد نيكسون» موقفاً متعاطفاً مع باكستان ضد الهند في الصراع الهندي - الباكستاني عام (١٩٧١م) ، وأصبح مكروهاً في الهند بسبب ذلك ، وبالطبع فإن جانباً من «الهجوم» الشهير الذي شنه نيكسون قد أملته المنافسات الإقليمية تلك التي كانت بين القوتين العظميين ، ولكن ما تم إدراكه هو أن نيكسون فَضَّل المسلمين في هذه القضية [2] ، وكانت زلة الرئيس الجمهوري « جورج بوش » هي أنه عارض الاستخدام غير المباشر للأموال الأمريكية في بناء مستوطنات يهودية غير شرعية على أراضٍ عربية محتلة . ونتيجة ذلك وقع صدام بينه وبين جماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل وقيادات الكونجرس [3] ، ولقد قاد « جورج بوش » حرب عاصفة الصحراء ضد العراق عام (١٩٩١م) ، ولكن أي رئيس للولايات المتحدة ربما لا يسمح للعراق بضم الكويت، بل إن رئيساً ديمقراطياً قد يفوض بالزحف على بغداد.

وعلى الجانب الآخر كان الرئيس الديمقراطي « هاري ترومان » هو الذي أعطى الضوء الأخضر الأمريكي عام (١٩٤٧م) لإنشاء دولة إسرائيل مستهلاً خمسين عاماً من الحروب العربية الإسرائيلية ، ومن المعاناة الفلسطينية ، ومن الكراهية المتبادلة[4]. وكانت إدارة الرئيس الديمقراطي « ليندون جونسون » هي التي ساعدت

---

(١) انظر تحليلاً حديثاً لمعالجة أيزنهاور لأزمة السويس في :

Cole C. Kingseed, Eisenhower and the Suez Crisis of 1956 (Baton Rouge : University of Louisiana Press, 1995) .

(٢) انظر تحليلاً مقارناً للسياسة الخارجية الأمريكية في ظل حكم نيكسون وسلفه في :

Lloyd I . Rudolph, The Regional Imperative : the Adminstration of US Foreign Policy Towards South Asian States Under Presidents Johnson and Nixon (Atlantic Highlands, NJ : Humanities Press, 1990) .

(٣) انظر تقارير حول هذا الصدام المثير للجدل في :

The Congressional Quarterly Weekly Report 49, 14 Sept. 1991, PP. 2635 - 6, 2649 .

(٤) انظر على سبيل المثال :

Michael J . Cohen , Truman and Israel (Berkeley, CA : University of Cali Fornia Press, 1990) ; John snetsinger, Truman, The Jewish Vote, and the Creation of Israel (Stanford, CA : Hoover Institution Press, 1974) .

إسرائيل (بالمعلومات اللوجستيكية) على الانتصار في حرب يونيو (١٩٦٧م) خلال ستة أيام مما أدى إلى احتلال الأراضي العربية في غزة وسيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية [١] ، والرئيس الديمقراطي « بيل كلينتون » هو الذي اقترب أكثر من أي رئيس أمريكي آخر من إضفاء مشروعية صامتة على المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية المحتلة . وبيل كلينتون هو الذي اعترف ذات مرة في حديث موجز ، بالقدس عاصمة لإسرائيل . وكذلك تناضل إدارة كلينتون لعزل إيران دولياً بدرجة لم تبلغها أي من الإدارات الأمريكية السابقة منذ قيام الثورة الإسلامية عام (١٩٧٩م) [٢] .

إن ما يعنيه كل ذلك هو أنه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية كان الجمهوريون في الغالب أصدقاءً للعالم الإسلامي بدرجة أكبر مما كان عليه الديمقراطيون ، ولكنه فيما يتعلق بالشئون المحلية ، فإن الديمقراطيين هم حزب الأقليات والدولة العلمانية، وهكذا فرغم أن المسلمين لم يظهروا بشكل واضح تماماً كأقلية سياسية ، فإن الحزب الأكثر احتمالاً للحساسية تجاه التنوع المحلي هو الحزب الديمقراطي ، فإذا وقع تمييز ضد المسلمين أو إذا تعرضوا للمضايقة في الولايات المتحدة ، فإن احتمال أن يسارع الديمقراطيون إلى نجدتهم أكبر من احتمال أن يفعل الجمهوريون ذلك . إن التشريع الجديد لمكافحة الإرهاب الذي اقترحته إدارة كلينتون ووقعته هو من السياسات المحلية والخارجية في آن واحد ، وعليه ، فإن الفرق بين الجمهوريين والديمقراطيين ما زال قائماً .

● الإسلام الأمريكي : الإسلام المهاجر والإسلام النامي محلياً .

في بلاد مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا ينظر على نطاق واسع ، إلى كل من الإسلام كحضارة ، وإلى المسلمين المحليين كمقيمين ، بوصفهما غرباء (أجانب)، حتى حينما يكون المسلمون مواطنين في هذه البلاد الأوروبية . وفي المقابل فإن

---

(١) حول جونسون والحرب انظر :

William B . Quandt, " Lyndon Johnson and the June 1967 War : What Color was the Light ? ", Middle East Journal 46, Spring 1662, PP. 198 - 228 .

(٢) انظر على سبيل المثال التقرير التالي :

" Clinton to Order Halt to all US Trade with Iran ", Oil and Gas Journal 93, 8 May 1995, P. 26 .

نصف السكان المسلمين في الولايات المتحدة في وقت قريب سيكونون منحدرين من عائلات ظلت أمريكية لمئات السنين . فكما ذكرنا سابقاً فإن (٤٢٪) من المسلمين في الولايات المتحدة هم من الأمريكيين الأفارقة ، إن ذلك يجعل الموقف مختلفاً عما هو قائم في أوروبا ، فرغم أن الإسلام قد يكون أحدث نسبياً في أمريكا ، فإن من بين أتباعه ملايين الأشخاص الذين كانوا جزءاً من التاريخ الأمريكي لمئتي أو ثلاثمائة سنة ، وتتزايد أعداد المسلمين الأمريكيين الأفارقة بدرجة كبيرة ذات مغزى .

ولكن حتى بالنسبة للنصف المهاجر من المسلمين في الولايات المتحدة ، فإنهم يعيشون في بلد من المهاجرين ، وذلك على خلاف المسلمين المهاجرين في فرنسا وبريطانيا وألمانيا . ففي الولايات المتحدة بات من الممكن لأحد المهاجرين من ذوي الأصول الأجنبية المتجذرة أن يصبح أبرز رجل دولة أمريكي من دون الرؤساء في النصف الثاني من القرن العشرين ، ألا وهو « هنري كيسنجر » وزير الخارجية اليهودي اللامع ، وهكذا فحتى المسلمين المهاجرين في الولايات المتحدة « أقل أجنبية » بهذا المعنى الأمريكي المحدد والخاص مقارنة بالمهاجرين المسلمين في أوروبا. ومع ذلك فلا يوجد شك في أن الولايات المتحدة تواجه مقولة وجود إسلاميين ، وهذه هي المفارقة الخامسة للإسلام الأمريكي .

ونستخدم لفظ « المحلي » للولايات المتحدة هنا لوصف الأشخاص الذين ظلوا أمريكيين لقرن من الزمان على الأقل ، ونخلص من ذلك إلى أن المسلمين الأمريكيين المحليين هم أساساً من الأمريكيين الأفارقة ، مع نسبة صغيرة من الأمريكيين البيض ، ونشير بلفظ « المهاجر » هنا إلى أولئك الذين يشكلون جزءاً من المجتمع الأمريكي منذ فترة تقل عن قرن من الزمان . والمسلمون الأمريكيون المهاجرون قدموا أساساً من آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا ، وبعضهم من مسلمي أوروبا . وبينما يشعر المسلمون الأمريكيون المحليون بحساسية بالغة تجاه قضايا السياسة المحلية في الولايات المتحدة ، فإن المسلمين الأمريكيين المهاجرين أكثر حساسية تجاه السياسة الخارجية للولايات المتحدة .

وقد تكون مشكلة العائلات ذات الدخل المنخفض أبرز بين المسلمين المحليين مقارنة بجميع سكان الولايات المتحدة ، وهذا يعني وجود عدد كبير جداً من العائلات الفقيرة بينهم . وعلى الجانب الآخر قد تكون نسبة العائلات التي تنتمي

إلى الطبقة المهنية (المدرسين ، والمحامين ، والأطباء ، والمهندسين ، وغيرهم) بين المسلمين المهاجرين أعلى من المعدل الوطني لها . ويميل المسلمون المحليون (ولا سيما الأمريكيون الأفارقة) إلى التمرد على أسطورة الحلم الأمريكي المتمثل في السعي وراء التقدم الشخصي في جو من الحرية الاقتصادية .

وعلى النقيض ، فإنه يبدو أن المسلمين المهاجرين مقتنعون بدرجة أو بأخرى بأن الرأسمالية تقدم من الفرص أكثر من الظلم الذي ينتج عنها .

والمسلمون الأمريكيون المحليون حديثوا عهد بالإسلام (رغم أن الإسلام وصل منذ زمن إلى الأمريكتين مع العبيد الأفارقة) . واليوم أصبح المسلمون الأمريكيون الأفارقة أمريكيين تماماً ، ولكنهم ليسوا دائماً مسلمين تماماً . والعكس صحيح بالنسبة للمسلمين المهاجرين ، فهم مسلمون منذ زمن طويل ، ولكنهم حديثو عهد بأمريكا ، وغالباً يكونون متأثرين أو ملتزمين بالإسلام بقوة ، ولكنهم لم يصبحوا أمريكيين تماماً بعد . والمسلمون الأمريكيون المحليون لا يتحدثون سوى الإنجليزية (الفصحى أو العامية ، أو كلاهما) ، فأغلبيتهم الساحقة لا تتحدث سوى بلغة واحدة ، رغم أنهم غالباً ما يتعلمون النذر اليسير من العربية لممارسة الشعائر الإسلامية . وفي المقابل ، فإن المسلمين المهاجرين غالباً ما يتحدثون بلغتين أو حتى بثلاث لغات ، وهم قد يتحدثون في منازلهم بأكثر من لغة أوروبية واحدة ، فالأمريكيون اللبنانيون قد يتحدثون الفرنسية والعربية بالإضافة إلى الإنجليزية .

والمسلمون الأمريكيون المحليون ضعفاء من الناحية الاقتصادية ، ولكنهم -باعتبارهم أمريكيين أفارقة - ذوو نفوذ سياسي كامن . فالأمريكيون الأفارقة عموماً أكبر عدداً من اليهود في جميع أنحاء العالم . ومع ذلك فإن تأثير الأمريكيين الأفارقة في السياسة الخارجية الأمريكية ما يزال لا يساوي سوى جزء يسير من التأثير الذي يمارسه الأمريكيون اليهود فيها حتى الآن ، فهل ستضيق هذه الفجوة في النفوذ في القرن الحادي والعشرين ؟ وهل سيعكس تأثير الأمريكيين الأفارقة الأهمية السياسية للإسلام بين الأمريكيين السود ؟ وإذا كان المسلمون الأمريكيون المحليون الآن ضعفاء اقتصادياً وأقوياء سياسياً بشكل محتمل ، فإن حالة المسلمين المهاجرين قد تكون على العكس من ذلك تماماً ، فهم قد يكونون ضعفاء سياسياً ، ولكن مع احتمال كبير لأن يتمتعوا بنفوذ اقتصادي ومهني .

وقد يتزايد عدد المسلمين المحليين نتيجة للهجوم الجديد الذي يشنه الجمهوريون

على الخدمات الاجتماعية والمساعدات الطبية وشبكات الأمن التي كانت تقدم ذات يوم للفقراء السود ، وذلك مع تحول كثير من السود إلى الإسلام . وفي المقابل فإن المسلمين المهاجرين قد يتقلص عددهم ، نتيجة القوانين الأشد صرامة ضد الهجرة من كافة بقاع العالم . كما قد يعاني المسلمون المهاجرون عند تطبيق قانون مكافحة الإرهاب الجديد ، حيث قد يتشجع موظفو الهجرة على مضايقة المرشحين للحصول على تأشيرات دخول من العالم الإسلامي على نحو خاص .

وفي النهاية ، فإن مجموعتي المسلمين في الولايات المتحدة ، أي المحليين والمهاجرين ، في طريقهما للانصهار معاً في الأمة المسلمة الكبرى في الأمريكتين . ففي عام (١٤٩٢م) انتهى الوجود الإسلامي في إسبانيا ، وفتح « كريستوفر كولمبس» الأمريكتين للغرب . وبعد خمسمائة عام من ذلك الحدث يحاول الإسلام أن يرسخ حضوره في الأراضي التي ساعد كولمبس على اكتشافها لحساب إسبانيا والغرب . فهل يطلق التاريخ العنان لإحدى المفارقات المثيرة للسخرية ؟

وتلعب كل من الهويات الأربعة لمسلمي الولايات المتحدة دوراً في تكوين الآراء حول السياسة الخارجية ، وهذه الهويات هي الأصول الوطنية وعضوية إحدى المجموعات العرقية ، وقوة الانتماء الديني ، والاهتمامات الأخلاقية للمسلمين الأمريكيين بوصفهم أمريكيين عاديين ، إن هذا الحشد من الهويات هو جانب من سياسة التعددية التي تعد بدورها إحدى جوانب صنع السياسة في نظام ليبرالي ديمقراطي .

* * *

الفصل الخامس

الأفروعربية

إفريقيا والعرب في النظام العالمي الجديد

الفصل الخامس
الأفروعربية
إفريقيا والعرب في النظام العالمي الجديد
ترجمة : أحمد علي سالم (*)

أود أن أبدأ هذا المقال حول العلاقات الإفريقية - العربية بنموذجين لمصالحة تاريخية خبرتها مجتمعات أخرى . فالنموذج الأنجلو - أمريكي يعبر عن التحول من العداء إلى الآخاء في العلاقات بين الشعب البريطاني وشعب الولايات المتحدة في الفترة من أواخر القرن الثامن وحتى الحرب العالمية الأولى . فهل هناك دروس يمكن أن نتعلمها من هذا النموذج ، تتعلق بالعلاقات بين العرب والأفارقة تاريخياً؟

والنموذج الثاني للمصالحة يعبر عن التحول من العداوة إلى الصداقة بين الولايات المتحدة واليابان في الفترة من عام (١٩٤١م) وحتى التسعينيات . فهل هناك دروس أخرى يمكن أن نتعلمها من هذا النموذج الأمريكي - الياباني تتعلق أيضاً بالعلاقات الإفريقية - العربية من منظور تاريخي ؟

دعونا نقترب أكثر من هذين النموذجين للمصالحة .

كان عام (١٧٧٦م) هو العام الذي بدأ الأمريكيون فيه تمردهم ضد البريطانيين ، ذلك التمرد الذي تحول إلى حرب الاستقلال الأمريكية ، ولقد كان البريطانيون طيلة قرن على الأقل هم الشعب الذي يحب الأمريكيون بشدة أن يبغضوه ، واقتضى ذلك اندلاع حرب أخرى بين الأمريكيين والبريطانيين عام (١٨١٢م) .

واليوم ربما تكون بريطانيا العظمى هي الحليف الأقرب للولايات المتحدة - وربما أقرب إلى واشنطن حتى من إسرائيل وكندا . إن جراح الأمريكيين والبريطانيين بسبب أحداث عامي (١٧٧٦ و١٨١٢م) لم تلتئم فحسب ، بل إن إحساساً جديداً وعميقاً بالهوية المشتركة بات يجمع بينهما .

(*) باحث علوم سياسية بمركز دراسات المستقبل الإفريقي .

في عام (١٩٦٤م) اندلعت ثورة في « زنجبار » ضد حكومة كان يُنظر إليها على أنها خاضعة للعرب وضد ملكية كان يُنظر إليها على أنها عمانية ، وحدثت إراقة مريرة للدماء ووقعت البغضاء بين العرب المتأثرين بالسواحيلية والسواحيليين المتأثرين بالعربية ، وبلغت كراهية العرب وعداوتهم في بعض مناطق شرق إفريقيا مستويات جديدة أكثر عمقاً ، وكذلك فإن كراهية الأفارقة وعداوتهم في بعض المناطق العربية كانت واضحة .

وفي الحقيقة فإن الأمريكيين والبريطانيين احتاجوا إلى قرن من الزمان لكي يتوقف كل منهما عن كراهية الآخر - واحتاجوا إلى فترة أطول لكي يصبحوا أصدقاء حميمين .

وفيما يتعلق بالعلاقات بين الأفارقة والعرب ، هل سنحتاج أيضاً للانتظار قرناً من الزمان لكي تلتئم جراح الماضي ؟ وهل النموذج الأقرب هنا هو النموذج الأنجلو - أمريكي - الذي تحقق فيه التسامح ببطء شديد ، ولكنه عندما حدث كان عميقاً جداً ؟ أم أن النموذج الأقرب هنا هو النموذج الأمريكي - الياباني ؟ ففي عام (١٩٤١م) ارتكبت اليابان خيانة وقصفت « بيرل هاربور » دون إعلان الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ، ووصف الرئيس روزفلت ذلك بقوله : « إنه يوم سيظل رمزاً للعار » ، فكان لدى الأمريكيين سبباً وجيهاً لبغض اليابانيين .

وفي أغسطس عام (١٩٤٥م) أسقطت الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين على «هيروشيما» و« ناجازاكي » ، فكان اليابانيون أول ضحايا العصر النووي - إذ ارتكبت بحقهم هذه المذبحة التي قُتل فيها من قُتل وأُصيب فيها آخرون بعاهات قد تستمر لأجيال ، فكان لدى اليابانيين سبباً وجيهاً لبغض الأمريكيين .

ومع ذلك فإنه في أقل من جيل واحد أصبحت الولايات المتحدة واليابان حليفين سياسيين كبيرين وشريكين تجاريين بارزين ، ولقد تحقق التسامح بين اليابانيين والأمريكيين بسرعة - لكن هل كان هذا التسامح سطحياً ؟ وتحقق التسامح بين بريطانيا والولايات المتحدة ببطء - فهل كان هذا التسامح عميقاً ؟

ربما يكون التسامح بين العرب والأفارقة في موضع ما بين النموذج الأنجلو - أمريكي (بطيء لكن عميق) ، والنموذج الأمريكي - الياباني (سريع لكن سطحي) ، وربما تكون المصالحة الأفريقية - العربية أسرع من الأخاء الأنجلو - أمريكي وأعمق بوضوح من المصالحة الأمريكية - اليابانية . والمصالحة الأفرو -

عربية لا تشمل فقط ذكريات ثورة زنجبار ، بل إنها تشمل على نحو أكثر جوهرية ذكريات تورط العرب في تجارة الرقيق في إفريقيا ، فهل يمكن نسيان آلام الماضي ؟

إن التوجهات العالمية في النظام العالمي الجديد تفرض سرعة تحقيق المصالحة والتكامل الإفريقي - العربي . وربما توفر الاستمرارية التاريخية، والامتداد الجغرافي عمقاً أكبر للعلاقة المستقبلية بين إفريقيا والعالم العربي ، لكن من المطلوب اتخاذ خطوات واعية سعياً وراء تحقيق أشكالاً جديداً من التضامن ، ويمثل نسيان الماضي أحد هذه الخطوات ؛ كما أن صياغة مستقبل جديد تمثل الخطوة الأكثر إلحاحاً .

لقد بدأت الحوائط الأيديولوجية التي كانت تفصل الهند الصينية عن بقية جنوب شرق آسيا في الانهيار . كما أن الحوائط الأيديولوجية التي كانت تفصل أوروبا الشرقية عن أوروبا الغربية قد انهارت بالفعل . وكذلك فإن الحوائط الاقتصادية التي كانت تفصل الولايات المتحدة والمكسيك وكندا آخذة في الانهيار . فهل ستنهار الحوائط التي تفصل بين إفريقيا والعالم العربي أيضاً كجزء من النظام العالمي الجديد ؟

من الأمور القابلة للجدل والمناقشة أن بعض هذه الحوائط التي تفصل الأفارقة عن العرب ما هي إلا جدران مصطنعة كتلك التي فصلت السلاف عن الألمان في أوروبا. ويدور نقاش أوسع حول الصحراء الكبرى كحاجز مصطنع يقسم إفريقيا إلى إفريقيا العربية وإفريقيا السوداء ، وكذلك حول البحر الأحمر كحاجز أكثر اصطناعاً وعامل تقسيم . والآن ونحن نختبر النظام العالمي الجديد هل علينا أن نعيد تقويم هذه التخوم القديمة ونعيد تعريف هوياتنا ؟

● **مفهوم « الأفروعربية »** .

درس الفرنسيون يوماً ما علاقاتهم الخاصة مع إفريقيا وابتكروا مفهوم «الأوروبأفريقية» كأساس للتعاون الخاص . ونحن بدورنا يجب أن ندرس العلاقات الخاصة الأقدم بين إفريقيا والعالم العربي ، ونطلق عليها « الأفروعربية » .

فغالبية الشعب العربي يقطن الآن معظم القارة الإفريقية ، كما أن الكتلة الرئيسية من الأراضي العربية تقع في إفريقيا . ويوجد من المسلمين في نيجيريا ما يفوق عدد المسلمين في أي بلد عربي بما في ذلك مصر ، وبعبارة أخرى ؛ فإن السكان المسلمين في نيجيريا أكبر عدداً من السكان المسلمين في مصر . والقارة

الإفريقية بأكملها في طريقها لأن تصبح أول قارة في العالم يشكل المسلمون الغالبية المطلقة من عدد سكانها .

لكن الأفروعربية ليست مجرد حالة من حالات انتشار اللغات أو التضامن الديني، بل أن هذه الديناميات هي المسئولة عن خلق كل المجتمعات الاثنية الجديدة. ويُعد ظهور الجماعات « الكوشية » مثل الشعب الصومالي في القرن الإفريقي هي مجرد مثال على ذلك . كما كانت عمان واليمن والعربية السعودية تمثل وسائل مساعدة على ميلاد جماعات إثنية جديدة على الساحل الشرقي من إفريقيا . فالثقافة السواحيلية والدول - المدن السواحيلية تمثل حقبة كاملة في التاريخ والتراث الإفريقي . وتُعد عمان بلداً ذات أهمية مركزية في التاريخ الحديث للتراث السواحيلي .

وإن شعب إرتيريا الشجاع يُمثل جزءاً من جسر الأفروعربية . وحتى البربر فإنهم يمثلون حالة خاصة من الأفروعربية ، فاسم « إفريقيا » ذاته قد يجد أصوله في لغة البربر ، وكان يستخدم في السابق للإشارة إلى ما يعرف الآن « بتونس » . فالقارة أخذت اسمها مما يطلق عليه الآن « إفريقيا العربية » . فهل هناك حجة أخرى أكثر قوة للأفروعربية ؟

لقد كان هناك هجرات وتحركات للسكان بين إفريقيا والجزيرة العربية خلال القرون الماضية ، إذ تتوفر الأدلة على وجود مستوطنات عربية على الساحل الإفريقي الشرقي وفي القرن الإفريقي قبل ميلاد النبي محمد ﷺ ، كما أن حقيقة أن أول مؤذن عظيم في الإسلام كان سيدنا « بلال » لدليل على الوجود الإفريقي في مكة والمدينة قبل الإسلام . فقد كان بلال هناك قبل أن يهتدي إلى الإسلام ، وهو بذلك يمثل رمزاً لارتباط الجزيرة العربية القديم بإفريقيا . فالأفروعربية تسبق حادثة الهجرة .

والإسلام ذاته قديم في إفريقيا قدمه في الجزيرة العربية تقريباً ، فقد نشد المسلمون اللجوء الديني في إثيوبيا خلال الفترة الأولى من بعثة النبي محمد ، حين كان يتعرض هو وأتباعه للاضطهاد وفي مكة . وقد أظهرت الحفريات الأثرية في شرق إفريقيا آثاراً لمساجد ترجع إلى العقود الأولى للإسلام . وفي الواقع فإن الإسلام كأساس من أسس الأفروعربية يرجع إلى نحو أربعة عشرة قرناً من الزمان.

وهناك أيضاً أثر اللغة في الأفروعربية . فلا تزال اللغة العربية هي اللغة التي يتحدث بها أكبر عدد من سكان القارة الإفريقية . كما أن أكثر اللغات الإفريقية المحلية تأثيراً هما اللغتان السواحيلية في شرق إفريقيا والهوسا في غربها ، وكلاهما تأثر بشدة بكل من اللغة العربية والإسلام ، وهذا يعد تجسيداً للأفروعربية .

وفي الحقيقة فإن الروابط اللغوية بين إفريقيا والجزيرة العربية أقدم من الإسلام . فالجميع يعلم أن اللغة العربية لغة سامية ، ولكن قليل من الناس يعلم بأن اللغة الأمهرية - وهي اللغة المحلية السائدة في إثيوبيا - لغة سامية أيضاً . والواقع فإن المؤرخين منقسمون حول ما إذا كانت اللغات السامية ظهرت أولاً في إفريقيا ثم عبرت البحر الأحمر أم أنها نشأت في الجزيرة العربية وانتقلت إلى إفريقيا في مرحلة لاحقة . وتعد هذه الشكوك ، في حد ذاتها، جزءاً من واقعية الأفروعربية.

وثمة عمليتان مستمرتان في النظام العالمي الجديد تسعى كل منهما إلى إعادة تعريف الدولة القومية . حيث تخلق القوى الطاردة الانقسام والنزعة الانفصالية - والمثال الأشد درامية على ذلك هو تفكك الاتحاد السوفيتي - بينما تخلق القوى الجاذبة التجمعات الاقتصادية والسياسية الأكبر - وكان من المقرر أن يشهد عام (١٩٩٢م) الوحدة الاقتصادية الأعمق للجماعة الأوروبية ، والتي ربما يعقبها قبول مزيد من الدول للعضوية في الجماعة قبل نهاية القرن (*) .

وفي العالم العربي كانت الحالات الأشد خطورة على الانقسام الداخلي بفعل قوي الطرد داخل الدول هي حالات العراق ولبنان والسودان . فالعراق يواجه اضطهاداً من المركز ونزعة انفصالية إثنية ، فالأكراد والشيعة ثائرون ، وهم يفعلون ذلك أحياناً بموضوعية . ولم تلتئم حتى الآن الجراح التي أصابت لبنان بفعل انقساماته الطائفية . والسودان ممزق الآن ليس فقط بسبب الحرب الأهلية في الجنوب وإنما أيضاً نتيجة التوترات الدينية والسياسية الجديدة في الشمال .

ولا يمثل السودان حالة الانقسام الوحيدة في إفريقيا الناتجة عن قوى الطرد ، بل إن هناك نزعات انفصالية إثنية أخرى في كل من إثيوبيا ، وليبيريا ، والصومال ، والسنغال ، وبدرجة أقل من الكثافة في نيجيريا .

(*) حدث بالفعل ذلك التطور ، حيث توسعت عضوية الجماعة الأوروبية في سعيها لتحقيق وحدتها ، ومازال هناك الحديث عن مزيد من التوسع لضم المزيد من دول أوروبا الشرقية وتركيا إلى عضوية الجماعة (المراجع) .

وبالإضافة إلى النزعات المحلية الطاردة تظهر قوى إقليمية أوسع للتمزق في كل من إفريقيا والعالم العربي . وتمثل أزمة الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١م) واحدة من أكثر الأحداث المسببة للخلاف والشقاق في التاريخ العربي الحديث ، فقد وقع أحد السيناريوهات التي لم تكن تخطر على بال أحد ؛ حين ابتلعت دولة عربية دولة عربية أخرى - وأعني بذلك الغزو العراقي للكويت في أغسطس (١٩٩٠م) والذي لم يدم طويلاً . كما حدث أمر آخر ما كان لأحد أن يتصور وقوعه ، ألا وهو قصف مدن عربية بقنابل وصواريخ عربية . ولم تلتئم جراح الانقسام في العالم العربي حتى الآن .

وعلى الرغم أن إفريقيا تدخل العقد الأخير من القرن العشرين وهي تعاني من انقسام عميق على المستوى الإقليمي ، على العكس مما حدث في العالم العربي ؛ فإن الموقف الاقتصادي لإفريقيا في التسعينيات يعد موقفاً غاية في الخطورة ، كما أن الإرادة السياسية لمواصلة الوحدة الإفريقية قد أصابها المزيد من الوهن . لكن ثمة حديثين مبشرين وقعا في إفريقيا خلال عامي (١٩٩٠ و١٩٩١م) أديا بشكل غير مقصود إلى إضعاف الالتزام بالوحدة الإفريقية . فبداية انتهاء التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا (الأبارتهيد) يمثل من كافة وجهات النظر تقريباً أمراً ساراً وحسناً لإفريقيا وللجنس البشري . ولكن الكفاح ضد الأبارتهيد كان يمثل لفترة طويلة قوة توحيد كبرى في إفريقيا - على الأقل بذات الدرجة التي يفرضها الكفاح ضد الصهيونية في العالم العربي . وبينما لا تزال الصهيونية قوية ومتحدية ، فإن الأبارتهيد قد بدأ في الانهيار. وقد تدفع فكرة الوحدة الإفريقية ثمن نجاحها الذاتي. إذ قد يؤدي انتهاء الأبارتهيد إلى حرمان الوحدة الإفريقية من قوة توحيد كبرى(*) والحدث السار الآخر الذي وقع في إفريقيا في عامي (١٩٩٠ و١٩٩١م) هو الكفاح من أجل مزيد من الديمقراطية ذلك الكفاح الذي انتشر من « دار السلام » إلى «داكار» ، ومن « لوساكا » إلى « لاجوس » ، ومن « الجزائر » إلى « كينشاسا ». فالحكام الأفارقة مطالبون الآن بأن يصبحوا أكثر عرضة للمحاسبة . وبينما تمثل الحركة المؤيدة للديمقراطية في إفريقيا تطوراً مثيراً ، فإنها جعلت عقول المواطنين تركز على القضايا المحلية في كل بلد على حدة أكثر من تركيزها على قضايا

(*) انتهى الأبارتهيد بوصول حكومة الوحدة الوطنية تحت زعامة نلسون مانديلا للسلطة في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٤م (المراجع) .

الوحدة القارية . إن الأثر الإقليمي للنشاط في مجال الديمقراطية هو في مجمله أثر طارد - على الأقل في المدى القصير.

ولكن بينما تعاني كل من إفريقيا والعالم العربي ، في الوقت الحاضر ، من الانقسام الداخلي فيما يتعلق بالسياسة المعاصرة ؛ فإن المنطقتين المتداخلتين مرتبطتان ثقافياً بقوى التاريخ والجغرافيا .

وفي الواقع فقد حان الوقت الذي أصبحت فيه ما نطلق عليها الآن شبه الجزيرة العربية ، جزءاً لا يتجزأ من إفريقيا ، من الناحية الطبيعية ، لذا يجب علينا أن نتحول الآن إلى دروس الجغرافيا الطبيعية للأفروعربية .

● القارة السوداء ، والبحر الأحمر .

أطروحتنا المركزية في هذا الجزء من المقال هي أنه ليس من حق البحر الأحمر أن يفصل إفريقيا عن الجزيرة العربية .

أين إذن إفريقيا ؟ وما إفريقيا ؟ وإلى أي مدى تعد حدودها معقولة ومقنعة ؟ فهناك جزر بعيدة للغاية عن إفريقيا ولا نزال ننظر إليها كجزء من إفريقيا -شريطة ألا تكون قريبة جداً من كتلة أرضية كبرى أخرى . ولكن هنا شبه جزيرة انتزعت إفريقيتها علىّ نحو تعسفي .

فقناة موزمبيق التي يبلغ عرضها (٥٠٠) ميل تفصل مدغشقر عن القارة الإفريقية وعلى الجانب الآخر فإن اليمن الكبرى لا تنفصل عن جيبوتي إلا بمقدار رمية حجر. ومع ذلك فإن مدغشقر جزء من إفريقيا سياسياً، لكن اليمن ليست كذلك.

وعلى الرغم من أن المدارس الفكرية الإفريقية في فترة ما بعد الاستعمار تتناول زيف حدود الدول الإفريقية المعاصرة ، فليس ثمة اهتمام بمدى زيف حدود القارة الإفريقية ذاتها . فلماذا ينتهي شمال إفريقيا عند البحر الأحمر ، بينما لا ينتهي شرق إفريقيا عند قناة موزمبيق ؟ لماذا تكون تاناناريف عاصمة إفريقية بينما لا تكون عدن كذلك ؟

ويدور نقاش في إفريقيا حول ما إذا كانت الصحراء الكبرى أداة فصل أم أداة ربط . ويؤكد دعاة الوحدة الإفريقية أن الصحراء تمثل بحراً للاتصال أكثر من

كونها جداراً للفصل . ومع ذلك يزعم البعض أن شمال إفريقيا ليس جزءاً حقيقياً من إفريقيا لماذا ؟ لأنه أكثر شبهاً بالجزيرة العربية ؟

ولكن في هذه الحالة ، لماذا لا ندفع حدود شمال إفريقيا شرقاً لتشمل الجزيرة العربية ؟ لماذا لا نرفض الاعتراف بالبحر الأحمر كأداة فصل ، تماماً كا يرفض دعاة الوحدة الإفريقية التسليم بأن الصحراء الكبرى تلعب دوراً مماثلاً ؟ لماذا لا نؤكد أن القارة الإفريقية لا تنتهى عند الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى ولا عند الساحل الغربي للبحر الأحمر ؟ ألا يجب أن تتحرك إفريقيا شمالاً حتى البحر المتوسط وباتجاه الشمال الشرقي حتى الخليج الفارسي ؟ وعلى نحو بديل هل يجب أن نطلق على هذا المفهوم الجديد « الأفروعربية » ؟

ربما يكون البحر الأحمر هو أكثر البحار ذكراً في التاريخ الإفريقي . وقد اعتُبِر هذا الخط الرفيع ، الممتد من المحيط ، هو الأكثر ملائمة لتحديد أين تنتهي إفريقيا من الأدلة الجيولوجية والجغرافية والتاريخية والثقافية . لقد حُدِّدت الحدود الشمالية الشرقية لإفريقيا بممر مائي في خضم أدلة بيئية وثقافية تثبت العكس [١] .

وترجع المشكلة إلى زمن مضى عليه ثلاثة إلى خمسة ملايين سنة ، حين حدثت ثلاثة تصدعات في الجانب الشرقي من إفريقيا . وكما يقول « كولين ماكيفيدي »:

« أحد هذه التصدعات فصل الجزيرة العربية بعيداً صانعاً خليج عدن والبحر الأحمر ومختزلاً منطقة الاتصال بين إفريقيا وآسيا إلى برزخ السويس » [٢] .

وقبل أن ينفصل البحر الأحمر حدث الانفصال في إفريقيا ليصنع البحر الأحمر كأداة تقسيم ، ثلاثة تصدعات وقعت في القشرة الإفريقية ، ولكن واحداً منها فقط - وهو الذي نتج عنه بحر - الذي سُمِح له بأن ينتزع إفريقية الأراضي الواقعة وراء ذلك البحر . وأما التصدعان الآخران فقد أحدثا « ودياناً صدعية » ، وسلسلة من الخنادق التي يبلغ عرضها ثلاثين ميلاً في المتوسط . ولم يمس الصدعان الشرقي

---

(١) نوقشت مسألة ما إذا كان البحر الأحمر حداً مشروعاً لإفريقيا أيضاً في :

Mazrui, the Africans : A Triple Heritage (London : BBC Publications and Boston : Little, Brown Press, 1986) Chapter 1 .

(٢) C . MC Evedy, the Penguin Atlas of African History (Harmondsworth , Middlesex : Penguin Books, 1980) .

والغربي القارة الإفريقية بأذى - ولكن ظهور شريط من الماء أطلق عليه البحر الأحمر أدى إلى الانفصال الجيولوجي للجزيرة العربية .

ولكن ما تباعد بفعل صدع جيولوجي وقع في الماضي تحاول قوى الجغرافيا والتاريخ والثقافة أن تربط بين أجزائه منذ ذلك الحين . فمن هم الأمهريون الذين يعيشون في إثيوبيا إن لم يكونوا شعباً من المحتمل أنه انحدر من أسلاف كانوا يقطنون جنوب شبه الجزيرة العربية ؟ وما هي اللغة الأمهرية إن لم تكن لغة سامية؟ وماذا يعني أنها لغة سامية إذ لم تكن فرعاً من عائلة اللغات الأفرو- آسيوية؟ وهل ظهرت اللغة السامية الأولى في إفريقيا ثم عبرت البحر الأحمر ؟ أم أنها ظهرت أساساً في شبه الجزيرة العربية ، ثم انتقلت إلى شعوب إفريقية مثل الأمهرا والتيجري والهوسا ؟ وإلى أي حد يمثل الشعب الصومالي رباطاً بين الجزيرة العربية وإفريقيا ؟ كل هذه التساؤلات اللغوية - الثقافية تثير مسألة ما إذا كان الانفصال الجيولوجي للجزيرة العربية منذ زمن يرجع من ثلاثة إلى خمسة ملايين سنة هو الآن في الطريق لأن تبطل آثاره بفعل الأفروعربية التي تعبر عن الوحدة الثقافية الحميمة بين الجزيرة العربية والقرن الإفريقي وبقية القارة الإفريقية .

وفي المجال اللغوي ، فإنه لم يعد من السهل بالتأكيد أن نحدد أين تنتهي اللغات المحلية الإفريقية ، وأين تبدأ اللغات « السامية » . لقد جاء وقت في الماضي كان ينظر فيه إلى الحاميين والساميين بوصفهم غرباء عن إفريقيا ، وبعد ذلك تم النظر إلى الحاميين بوصفهم ينتمون إلى فئة خيالية (مفترضة) - وتم قبول الشعوب التي تعبر عن هذا المصطلح (مثل التوتسي) على أنهم أفارقة بلا أدنى شك . لكن ماذا عن الساميين ؟ إنهم موجودون بلا شك في تاريخ العالم ، ولكن هل هم « أفارقة » عبروا البحر الأحمر - مثل موسى حين فر من فرعون ؟ أم أن الساميين هم أصلاً عرب من الجزيرة العربية اخترقوا إفريقيا ؟ إن تلك المشاكل المعذبة الخاصة بالهوية كانت ستحل جزئياً في وقت أسرع إذا كانت شبه الجزيرة العربية جزءاً من إفريقيا ، أو إذا عمقنا جذور التضامن الجديد المتمثل في الأفروعربية .

● حول الثقافة والقارة .

إن الجهد الثقافي لإعادة توحيد شبه الجزيرة العربية وإفريقيا بعد الانقسام الجيولوجي الذي مضى عليه خمسة ملايين سنة وصل إلى مرحلة جديدة بظهور

الإسلام وتوسعه . فقد كان الفتح العربي لشمال إفريقيا عملية تغلبت على الانقسام الذي صنعه البحر الأحمر .

لقد بدأ حينئذ العمل للقيام بعمليتين متلازمتين في شمال إفريقيا - ألا وهما تحويله إلى الإسلام (الهداية الدينية للإيمان بالدعوة المحمدية) ، وتحويله إلى العربية (الاستيعاب اللغوي في لغة العرب) ، حتى جاء الوقت الذي أصبحت فيه الغالبية العظمى من سكان شمال إفريقيا يعتبرون أنفسهم عرباً بدرجة لا تقل عن سكان شبه الجزيرة العربية . وباختصار ، كانت عمليتا تحويل شمال إفريقيا إلى الإسلام وإلى العربية تمثلان مرة أخرى قوى التعويض الثقافي التي تحاول أن تكون عوضاً عن الانفصال الجيولوجي الذي سببه ميلاد البحر الأحمر قبل ملايين السنين. لقد وقع سكان شمال إفريقيا في معضلة : هل هم أفارقة كالسكان الذين يعيشون إلى الجنوب منهم ؟ إن المسألة التي لم تُثر بعد هي ما إذا كان العرب الذين يعيشون إلى الشرق من البحر الأحمر أفارقة كالعرب الذين يعيشون إلى الشمال من الصحراء الكبرى .

ولكن إذا كان من الممكن تجاهل البحر الأحمر في تعيين الحدود الشمالية - الشرقية لإفريقيا ، لماذا لا نتجاهل البحر المتوسط أيضاً كحد شمالي خارجي للقارة؟ وفي الواقع جاء وقت كان ينظر فيه إلى شمال إفريقيا بوصفها امتداداً لأوروبا ، ويرجع ذلك إلى أيام « قرطاج » والاستعمار « الهيليني » ، ومن بعدهما الإمبراطورية الرومانية . وقد تشكل مفهوم « أوروبا » خلال تلك الفترة ، وبكلمات المؤرخ « ر . ر بالمير » ، والمؤرخ « جويل كولتين » :

« لم يكن ثمة وجود لأوروبا في الواقع في العصور القديمة . ففي فترة الإمبراطورية الرومانية يمكن أن نرى عالم البحر المتوسط ، أو حتى غرب وشرق في الميراث اللاتيني والإغريقي . لكن الغرب كان يشمل أجزاء من إفريقيا تماماً مثلما كما كان يشمل أوروبا . . . . »(١) .

وحتى في فترة متأخرة مثل القرن السابع عشر كان لا يزال من الصعب تصور أن الكتلة الأرضية جنوب البحر المتوسط شيء منفصل عن الكتلة الأرضية شماله .

---

(١) انظر : R . R . Palmer in Collaboration with Joe Colton, A History of the Modern World (New York : Knopf , 1962) , 2 nd Edition , P. 13 .

وقد أشار المستفرق (المهتم بالشئون الإفريقية) الأمريكي العظيم « مليفايل هيرسكوفيتس » كيف أن الجمعية الملكية الجغرافية في فرنسا وصفت إفريقيا عام (١٦٥٦م) بأنها « شبه جزيرة كبيرة لدرجة أنها تشكل الجزء الثالث من قارتنا وهو الجزء المتطرف ناحية الجنوب » [١] .

وقد وجدت الفكرة القديمة القائلة بأن شمال إفريقيا يمثل الجزء الجنوبي من أوروبا من أنعشها بشدة في العالم الحديث عندما حاولت فرنسا أن تحتفظ بالجزائر كجزء منها . إن الأسطورة اليائسة التي تزعم أن الجزائر تمثل الجزء الجنوبي من فرنسا مزقت الأمة الفرنسية في الخمسينيات ، وصنعت الأزمة التي أتت « بشارل ديجول » إلى السلطة عام (١٩٥٨م) ، وأدت إلى استمرار التوتر بين اليمين واليسار في فرنسا حتى استقلت الجزائر عام (١٩٦٢م) بعد أن أضافت مزيداً من المرارة إثر نجاح شارل ديجول في مهمته .

إن ذلك الجهد الذي بذل للاحتفاظ بالجزائر كامتداد جنوبي لدولة أوروبية حدث في وقت كان شمال إفريقيا قد أصبح ، من جوانب أخرى ، امتداداً غربياً للجزيرة العربية . فمنذ القرن السابع فصاعداً أدى تحول شمال إفريقيا إلى العربية وإلى الإسلام إلى تحويل هوية المنطقة . ولأن البحر الأحمر كان يُعتبر حداً لإفريقيا فإن العرب أصبحوا شعباً « ينتمي إلى قارتين » - فلا يمكن وصفهم بالأفارقة أو بالآسيويين . وفي الحقيقة فإن معظم العرب أصبحوا بحلول القرن العشرين يقطنون المناطق الواقعة إلى الغرب من البحر الأحمر (وأعني إفريقيا « بكل ما تعنيه الكلمة») رغم أن غالبية الدول العربية كانت لا تزال تقع إلى الشرق من البحر الأحمر (الذي من المفترض أنه آسيا الغربية) .

وكما أشرنا سابقاً فإن المتحدثين باللغة العربية في القارة الإفريقية الحالية يفوق عددهم عدد نظرائهم المتحدثين بها في شبه الجزيرة العربية . وفي الحقيقة فإن اللغة العربية أصبحت أكثر اللغات أهمية في القارة الإفريقية الحالية بمعيار عدد المتحدثين بها .

---

(١) انظر : Merville Herskovits ' Contribution to Wellesley College , Symposium on Africa (Wellesley College , Massachusetts , 1960) , P . 16 .

والآن فإن مسألة النظر إلى الجزيرة العربية كجزء من إفريقيا أصبحت أكثر رسوخاً من النظر إلى شمال إفريقيا كجزء من أوروبا . لقد أدى التحول إلى الإسلام وإلى العربية إلى إعادة تشكيل هوية سكان شمال إفريقيا بدرجة أكثر جوهرية وجذرية من كل من عمليات الفرنسة والنجلزة (التحول إلى الفرنسية والإنجليزية) .

ورغم قرب صخرة جبل طارق من إفريقيا ، فإن اعتبار البحر المتوسط خطاً لتعيين الحدود بين إفريقيا وأوروبا يعد أمراً أكثر إقناعاً من الادعاء بأن البحر الأحمر يمكن أن يكون خطاً فاصلاً بين إفريقيا وآسيا .

إن كافة الحدود مصطنعة ، ولكن بعض الحدود أشد زيفاً من غيرها . إن الأفروعربية لديها تاريخ لغوي وديني يرجع إلى ألفي عاماً على الأقل ، مما يضفي عليها واقعية جيو - ثقافية .

● الأفروعربية والابارتهيد العالمي .

إن أحد الاتجاهات الجديرة بالمتابعة ، والتي أصبحت ذات طابع واسع ، هي ظهور « الابارتهيد » العالمي . إن العالم الأبيض يتقارب من حيث المكانة والمنزلة، رغم تفكك الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا . وفكرة الوحدة الأوروبية بلغت مستويات جديدة من التضامن من جبال الأورال وحتى جبال البرنس .

وفي أمريكا الشمالية يبزغ اقتصاد ضخم جديد يشمل الولايات المتحدة وكندا وربما المكسيك أيضاً .

ولكن حينما تنظر عن قرب إلى هذا النظام العالمي الجديد تظهر أمامك نزعتان مثيرتان للقلق . فالعرب والمسلمون - على نحو غير متكافئ - في صدارة الضحايا العسكريين في النظام الجديد ، كما أن السود - على نحو غير متكافئ أيضاً - في صدارة الضحايا الاقتصاديين لبزوغ « الابارتهيد » العالمي .

وتشمل التضحية بالمسلمين عسكرياً ما يلي :

(أ) السماح لإسرائيل بامتلاك أسلحة نووية ومحاولة منع ظهور أية قوة نووية في العالم الإسلامي .

(ب) تقديم العون المالي لدعم القدرات العسكرية لإسرائيل .

(جـ) القصف الأمريكي لبيروت أثناء حكم ريجان .

(د) القصف الأمريكي لطرابلس وبنغازي في ليبيا أثناء حكم ريجان .

(هـ) إسقاط طائرة مدنية إيرانية في الخليج ومصرع كل من كان على متنها أثناء حكم ريجان .

(و) قرار بوش بتوفير الوقت وليس الأرواح في أزمة الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١م) مما أدى إلى إزهاق أرواح مئات الآلاف من البشر .

(ز) احتمال توجيه ضربة ثانية إلى ليبيا .

إن ثلثي ضحايا النشاط العسكري الأمريكي منذ حرب ڤيتنام كانوا من المسلمين، ويقدر عددهم بنحو نصف مليون نفس . وكان الضحايا المسلمون أساساً من الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين والليبيين والإيرانيين وغيرهم .

وإذا كان المسلمون في صدارة الضحايا العسكريين ، فإن السود كانوا في صدارة الضحايا الاقتصاديين للنظام العالمي الجديد ، ومن ذلك :

(أ) الدعم المتواصل لأنظمة الحكم الإفريقية الفاسدة وغير الكفؤة .

(ب) أهوال التكيف الهيكلي الاقتصادي تحت إشراف صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في العالم الأسود .

(جـ) عدم عدالة أسعار السوق العالمي للسلع في مواجهة الاقتصاديات الإفريقية الهشة .

(د) العدد الكبير من السود الذين يعانون من وضعهم الطبقي المتدني بالإضافة إلى الإيدز والمخدرات بجانب الفقر والجريمة والتكيف الاجتماعي .

(هـ) ظهور العنصرية في أوروبا (فرنسا ، ألمانيا ، بلچيكا) .

(و) تحول المحكمة العليا في الولايات المتحدة نحو اليمين ، وهو ما يمثل طعنة وإساءة للتقدم الذي أحرز في مجالي الحقوق المدنية والأقليات .

إن النظام العالمي الجديد يخاطر حين يتسبب في موت عدد كبير وغير متكافئ من المسلمين ، وحين يتسبب في استمرار معاناة عدد كبير وغير متكافئ من السود من الفقر .

ومن المحتمل أن تكون الأفروعربية جزءاً من الإجابة . فسوف تستمر الحاجة إلى المصالحة بين العرب والأفارقة ، على أمل ألا تتم بذات البطء الذي تمت به المصالحة بين بريطانيا والولايات المتحدة بعد المواجهات التي وقعت بينهما عامي (١٧٧٦ و١٨١٢م) ، وعلى أمل ألا يكون الحلف الأفرو - عربي بذات الدرجة من السطحية والبرود الذي تتصف به العلاقات بين اليابان والولايات المتحدة . إن الأفارقة والعرب في حاجة إلى تعلم دروس في السرعة من اليابان والولايات المتحدة، ودروس في الأخوة من التجربة الأقدم لبريطانيا والولايات المتحدة .

إن لدينا مؤسسات عربية أُنشئت لمساعدة إفريقيا مثل المجموعة العربية للتنمية الإفريقية ، ولكن لا توجد مؤسسات إفريقية أُنشئت لمساعدة العرب خارج إفريقيا، ونحن في حاجة إلى أفكار وطرق جديدة لكسر ذلك القالب الذي يجعل العرب دائماً مانحي المساعدة الأجنبية والأفارقة دائماً متلقيها . ويمكن أن تقوم المؤسسات الأفروعربية بمزج موارد كل من العرب الأغنى نسبياً والأفارقة الأغنى نسبياً وتوجيهها لسد حاجات الفقراء في كل من إفريقيا والعالم العربي . ويمكن أن تخضع المؤسسات الأفرو - عربية لسيطرة مشتركة من جانب كل من العرب والأفارقة. وعلى الأقل فإن ذلك الأمر قد يكون مفهوماً ومعتبراً ، حيث تقدم الأموال الإفريقية لمساعدة الدول العربية الفقيرة مثل « اليمن » أو حتى « الأردن » ، تماماً كما قدمت الأموال العربية أحياناً لمساعدة دول إفريقية حتى تلك التي كانت قادرة نسبياً على منح الأموال مثل « زائير » .

هل يجب أن تنتظر مثل هذه التجربة اللحظة التي يتحقق فيها حكم الأغلبية في جنوب إفريقيا ؟ وهل يجب أن تأتي أول مساعدة أجنبية يقدمها الأفارقة إلى العرب من جنوب إفريقيا في مرحلة ما بعد « الابارتهيد » ؟ إن ذلك على الأقل هو أحد السيناريوهات المحتملة . ولن ننتظر كثيراً بعد أن تتحول جنوب إفريقيا إلى الليبرالية وتتمتع بالاستقرار لكي تظهر الحاجة إلى عقد مؤتمر قمة جديد لرؤساء الدول والحكومات العربية والإفريقية لكسب أسهم حقيقية في « النظام العالمي الجديد » . وسوف يكون من المأمول أن يتصدر جدول أعمال أية قمة أفرو - عربية مسألة إيجاد آليات أفروعربية جديدة ومبتكرة للتعاون . وبنسيان الماضي الأفرو - عربي يمكن تشكيل مستقبل أفرو - عربي جديد ، وهو ما يمكن أن يكون في النهاية الحد الأدنى من الدفاع ضد مخاطر « الابارتهيد » العالمي .

● الخلاصة .

إننا نعيش في عصر يمكن أن يتأثر فيه إدراك الناس لأنفسهم بشدة بالقارة أو الإقليم الذي يربطون أنفسهم به . فحتى الخمسينات من هذا القرن كانت السياسة الرسمية لحكومة الإمبراطور هيلاسيلاسي تؤكد على أن إثيوبيا تُعد جزءاً من الشرق الأوسط أكثر من كونها جزءاً من إفريقيا . ومع ذلك فإن الإمبراطور نفسه هو الذي أطلق سياسة إعادة أفرقة إثيوبيا حين اقتربت بقية إفريقيا من الحصول على الاستقلال. ومنذ ذلك الحين بدأ الإدراك الذاتي الإثيوبي يكتسب الطابع الإفريقي ببطء .

ومع ذلك فإن جوانب التشابه الثقافي بين إثيوبيا وبقية القارة السوداء لا تفوق بأي حال جوانب التشابه الثقافي بين شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية . ولكن القرار الأوروبي بجعل حدود إفريقيا تنتهي عند البحر الأحمر قد انتزع على نحو قاطع إفريقية شبه الجزيرة العربية ، وجعل شعوبها تنظر إلى نفسها على أنها تنتمي إلى غرب آسيا مفضلين ذلك على الانتماء إلى شمال إفريقيا (١) .

وقبل أن ينفصل البحر الأحمر حدث الانفصال في إفريقيا ليصنع ذلك الانفصال الذي جعل البحر الأحمر كأداة تقسيم . فقبل عدة ملايين من السنين تصدعت القشرة الأرضية لإفريقيا وولد البحر الأحمر . وكما أشرنا سابقاً إن هذا الشريط الرفيع من الماء قد ساعد على تشكيل هوية أجيال كاملة من الناس الذين يعيشون على جانبيه بصورة نهائية .

ومع ذلك فإن التغير الثقافي يعمل جاهداً منذ زمن على التئام الصدع الجيولوجي بين إفريقيا والجزيرة العربية . فهل كان الموطن الأصلي للساميين هو شرق البحر الأحمر أم غربه ؟ وهل ترجع أصول سكان المناطق الإثيوبية المرتفعة إلى الأسلاف الذين عاشوا في جنوب شبه الجزيرة العربية ؟ وهل اعتبر الإسلام البحر الأحمر حداً غير ذي أهمية من الناحية الثقافية ؟ وهل جعلت اللغة العربية البحر الأحمر حداً ينطوي على مفارقة تاريخية ؟ وهل حان الوقت الذي يصبح فيه العمل

---

(١) هذه القضية موضحة أيضاً في :

Ali A . Mazrui's Television Series The Africans : A Triple Heritage (London : BBC ahd Washington D. C. : WETA, Public Broadcasting System , 1986) Progromme No . 1 : " The Nature of a Continent " .

الاستبدادي (التحكمي) ، الذي يجعل من البحر محدداً للهوية ، أمر محدود الأثر - إن لم يكن غير موجود أصلاً ؟

وعلى أية حال فإن ذلك العمل الاستبدادي الذي جعل البحر محدِّداً للهوية هو جزئياً حكم تعسفي أفرزته الأهواء والتحيزات الجغرافية الأوروبية . وتماماً كما أن واضعي الخرائط الأوروبيون قد قرروا أن أوروبا تقع فوق إفريقيا على الخريطة ، وليس تحتها (وهو قرار اعتباطي فيما يتعلق بالنظام الكوني) ، فإن صانعي الخرائط ذاتهم هم الذين قرروا أيضاً أن إفريقيا تنتهي عند البحر الأحمر بدلاً من «الخليج الفارسي» ، ألم يحن الوقت بعد لكي يُجبر هذا الاستبداد الثنائي المتعلق بالبحر وبالتمركز حول الجغرافية الأوروبية أن يختفي في قاع المحيط ؟ .

وقد يثبت في النهاية أن أكثر الناس صعوبة في الاقتناع بذلك هم سكان شبه الجزيرة العربية . فقد نشأوا على الافتخار بكونهم عرب آسيا وليسوا عرب إفريقيا. وهم ليسوا شغوفين بأن يكونوا أعضاءاً في منظمة الوحدة الإفريقية ، رغم أنه مثل هذه الخطوة ستساعد على حل المشاكل المالية للمنظمة . فهل سيعتنقون على الأقل مفهوم الأفروعربية ؟

وعلاوة على ذلك ، فإذا كان الإمبراطور هيلاسيلاسي قد بادر بإعادة الطابع الإفريقي لإثيوبيا ، وإذا كان جمال عبد الناصر قد دشن إعادة الطابع الإفريقي لمصر ، فإن الآمال بشأن إعادة النظر في هوية شبه الجزيرة العربية قد لا تكون بعيدة تماماً . ففي النظام العالمي الجديد ليست أوروبا وحدها هي التي يتحقق فيها انهيار جدران التمزق الزائفة ، وليست الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وحدهم هم الذين سيقيمون جماعة ضخمة ، وليست جنوب شرق آسيا وحدها هي التي ستتعلم أن تسمح مرة أخرى للهند الصينية بأن تعود إلي الحظيرة . فكذلك سيكون الظهور المحتمل للأفروعربية خطيراً في إمكانياته التاريخية ، وذلك بالربط بين اللغات والأديان والهويات عبر كل من الصحراء الكبرى والبحر الأحمر في اندماج تاريخي بين العروبة والإفريقانية في النظام العالمي الجديد .

ولكن هل ستكون الأفروعربية مسألة اتحاد بين العرب الأغنياء والأفارقة الفقراء؟ في الواقع توجد دول غنية في إفريقيا وأخرى فقيرة في العالم العربي والعكس

صحيح . فالموارد المعدنية في إفريقيا أكثر تنوعاً من تلك الموجودة في العالم العربي لكن دولاً إفريقية مثل « زائير » تدار بطريقة أسوأ اقتصادياً من أية طريقة تدار بها أية دولة في العالم العربي تقريباً .

إن الأفروعربية ستشمل في المستقبل دولة جنوب إفريقيا في مرحلة ما بعد «الابارتهيد » ، وهى أغنى وأكثر تصنيعاً من أي مجتمع آخر في كل من إفريقيا والعالم العربي تقريباً ، وقد تقود الاقتصاديات الغنية بترولياً ومعدنياً الأفروعربية اقتصادياً في المستقبل ، لكن في نظام جديد تؤخذ فيه المساواة والعدالة بين المجتمعات بعين الاعتبار مثلما الحال في البلاد الفردية المستنيرة . آمين .

* * *

الكتاب والمؤلف

يطرح هذا العدد من سلسلة دراسات إفريقية مجموعة من القضايا والأطروحات الفكرية التي تتطلع جلها إلى آفاق الألفية الثالثة من الميلاد . وهي بمثابة قراءة فى أوراق سندباد مسلم هوالمفكر الإفريقى على مزروعى . وقد ارتأى مركز دراسات المستقبل الإفريقى أن ينشر هذه الدراسات وينقلها إلى العربية على يد نخبة من الباحثين الشباب . بما يسهم فى تحقيق الأهداف المرجوة التى تستند عليها فكرة المركز .

وباعتقادنا أن هذه القضايا الفكرية التى يثيرها على مزروعى تمثل قمة عطائه المعرفى ونضجه الفكرى . وهو الأمر الذى يكسبها أهمية خاصة . ومن جهة أخرى فإنها تناقش بحكمة المحلل المتغيرات الدولية منذ أن انفرط عقد الاتحاد السوفيتى . وبعين المستشرف لآفاق القرن الواحد والعشرين مجموعة من القضايا ذات الأهمية البالغة لنا فى مصر وإفريقيا ودول الجنوب كافة .

ويأتى عنوان هذا العدد الذى تم اختياره بالتنسيق مع المؤلف ليعكس المحاور الأساسية التى يتركز حولها الحوار . وهى على النحو التالى : الإسلام ونهاية التاريخ . وعلاقة الإسلام بالغرب كدراسة حالة لمنظومة العلاقات بين دول الشمال ودول الجنوب . أما المحور الثانى فإنه يتناول دور الدين فى الحياة السياسية الإفريقية مع التركيز على حالتى الإسلام والمسيحية . كما أنه يحلل فى دراسة مستقلة دور المسلمين الأمريكيين فى عملية صنع قرار السياسة الخارجية الأمريكية . ويطرح المحور الثالث إشكالية العلاقات العربية الإفريقية فى ظل النظام الدولى الجديد .

والمؤلف هو : على الأمين على مزروعى مدير معهد الدراسات الثقافية العالمية . وهو كينى الأصل . مسلم الديانة . وقد قضى [illegible] كبيراً من حياته فى الغرب دارساً وباحثاً حيث عمل فى الد[illegible] الإفريقية وتخصص فيها حتى صار علماً من أعلامها . لا سي[illegible] العلوم السياسية . وله العديد من المؤلفات وساهم فى العد[illegible] الندوات والمؤتمرات الخاصة بالشئون الإفريقية . ومن أشهر أ[illegible] كتابه عن الميراث الثلاثى لإفريقيا : « التقاليد والإسلام والغر[illegible] والذى تم تصويره تليفزيونياً كفيلم وثائقى عن الأوضاع الاقت[illegible] والاجتماعية والسياسية فى إفريقيا .